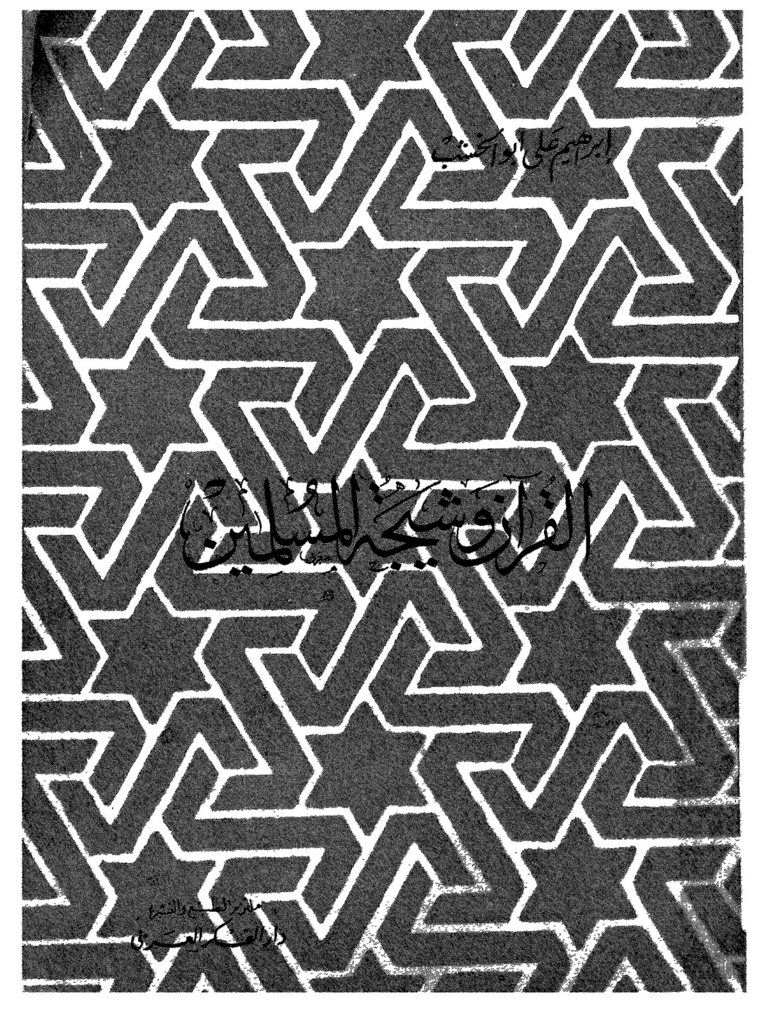

إبراهيم علي أبو الخشب
القرآن وشيجة المسلمين
ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

اهداءات ٢٠٠١

إبراهيم علي أبو الخشب



ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

مطبعة الجريدة التجارية المصرية
٤٣ شارع الشيخ ريحان عابدين ت ٢٨٢٤٣

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه خواطر سريعة ربما بدا للناظر فيها ، أو المتتبع لها ، أنها تطوى الحديث طيا ، وتجمله إجمالا ، وتكتفى من إثارته بما يشبه أن يكون عنوانا ، لا أكثر ولا أقل ، ومثل هذه الكتابة ، لا تشفى غليل [1] ظامىء ، ولا تدفع نهم [2] جائع ، ولا ترضى خاطر مشوق ملتاع [3] وأنا مع اعترافى بأن ذلك الطى والإجمال ، والمرور العابر ، والإشارة الخاطفة ، هى طابع هذا الكتاب . أؤكد أن الحاجة لم تكن ماسة إلى العمق فى البحث ، والإطالة فى الحديث ، أو الاسترسال فى الكتابة ، بمقدار ما كانت ماسة إلى وجدان صادق ، وعاطفة صحيحة ، وغيرة مشبوبة ، وإيمان قوى ، لأن الناس أصبحوا لا يحترمون فى الكاتب الكمية الكثيرة ، والحجم الكبير ، والحيز الضخم ، أو الفراغ الواسع الذى يملؤه بما يردده من الألفاظ ، ويكتبه من الكلمات ، ما داموا لم يحسوا بأنها صادرة عن يقينه المكاوم ، وشعوره المتدفق ، وجوانحه المتأججة ، وفؤاده المحترق ، وقلبه المفجوع . . .

وفى هذه القضايا التى عرضت لها — على الرغم من الإيجاز — يلمس القارىء حقيقتين واضحتين ، هما كل ما حرصت عليه فى هذا

---

١ — الظمأ

٢ — شدة الرغبة فى الطعام

٣ — الذى به حرقة من الشوق أو الحب

الكتاب. . . الأولى أنه يفتح الباب على مصراعيه لمن أراد الاستزادة، وقصد إلى الإطناب، أو رغب فى الاستقصاء، لأنه يوقظ وعيه ، ويحرك ميله،ويغرى انتباهه،ويدفعه دفعا عنيفا إلى الدراسة والبحث.. الثانية أن الإحساس الصادق كان هو السمة البادية ، والصفة الغالبة ، والميزة البارزة . . . ولست بهذا كله أبرىء نفسى من العيب، أوأنزهها عن النقص — والكمال لله وحــــده — ولكننى أدعو كل قارىء — وقارئة — أن يوجه إلى نقده ، ويبدى ملاحظته ، ليكون له الجهد المشكور ، فى أداء واجب يتحتم على كل مسلم أن يساهم فيه بنصيب ،حتى لا يظل هذا التفكك باقيا ، ولا تلك الفرقة متمكنة ، ولا ذلك الجهل مخيما على العقول ، ونسأله سبحانه أن يجعله جهداً خالصاً لوجهه ، وأن ينفع به « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » إنه أكرم مسئول ، وأعظم مأمول « والله يدعو إلى دارالسلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم »

المؤلف

العروبة والإسلام

كان العرب فى جزيرتهم يعيشون عيشة الأحرار ، لايدينون لسلطان ولا يخضعون لحكومة ، ولا يرهبون بأس قوة من القوى، إلا أنهم مع هذا كله كانوا مفككين فى الأواصر ،[1] متباعدين فى الأهواء ، متنافرين فى الميول ، لايجتمعون على غاية ، ولا يتفقون على غرض ، ولا يتلاقون عند هدف ، ولا يرجى لهم — مع ما كانوا عليه — أن تكون لهم دولة تنهض بعمل ، أو تقوم بنفع ، أو تسعى لمصلحة ، أو تنساق إلى نبل ،أو تتجه إلى عمران . . . وفى حروبها الطاحنة ، وعاداتها المرذولة ، وطباعها المسفة[2] ، وسلوكها السيء ، وعكوفها على الملذات وانصرافها إلى تلك الأخلاق المتخلفة ، والسجايا التى تحول بينها وبين الكمال الإنسانى المنشود ،مايدل على أن الأمل فيها كان ضعيفاً إلى أبعد حد . . . وإذا كان التراب الذى نطأه بأقدامنا ربما كان فى ثناياه الذهب الإبريز ، والشر الذى يهولنا وقعه قد يخفى وراءه الخير الصراح[3] ، والليل المظلم يجيء بعده النهار الواضح فإن الله سبحانه وتعالى وقد جعلهم على هذه الشاكلة من الهمجية ، أو تلك الخلال من الجاهلية ،

---

١ — الأواصر الروابط

٢ — النازلة وأصل المسف الذى فيه سفساف— تراب — والاسفاف فى الحديث أو الرأى المنزول به الى الأرض

٣ — الصراح الخالص

ثم يجردهم من الفضل كله ، وهو الذى خلقهم فى هذه البقعة المتوسطة للكرة الأرضية ، ترمقها الأنظار ، وتشرئب إليها الأعناق . . . ونحن نعلم أنهم كانوا أهل نجدة ومروءة ، وكرم ووفاء ، وغيرة على العرض ، وغضبة للحق ، وثورة على الباطل ، وتفان فى الواجب ، وجهاد فى سبيل الشرف ، وإعجاب بالمثل العليا ، وتطلع للشعاع المضىء ، والشمس المشرقة ، ولذلك فإن النبى صلى الله عليه وسلم حينما ظهر فيهم ، ونادى بدعوته بينهم — على الرغم من تسفيهه لأحلامهم[1] ، وطعنه على آلهتهم ، وإعلانه الحرب عليهم — لم يلبثوا أن استجابوا له ، والتفوا حوله ، وتعاهدوا على نصرته ، وأقبلوا بقلوبهم إليه ، وعلقوا نفوسهم به ، وجعلوا يتحولون شيئاً بعد شىء عما كانوا عليه من ضلال بغيض وطيش مقيت[2] ، وجهل فاحش ، وسفه ممجوج ، وانحراف شنيع ، إلى درجة أنه لم تمض مدة يسيرة من الزمن حتى كانت لهم دولة دوخت كبريات الدول ، وشغلت أفكار الناس ، ولفتت جيد [3] الزمن ، وحازت إعجاب الفلاسفة ، وأصبح الأساتذة من هنا وهنالك ، ولا حديث لهم إلا هذا الدستور الجديد الذى ينشرونه فى الدنيا ، ويعلنونه فى الأرض ، وينادون به فى مسامع الليل والنهار ، لأنهم ألفوا أن تكون صيحات المصلحين مدعمة بالسيف ، أو مستندة إلى القوة ، أو مؤيدة بالعنف ، أو معتمدة على البطش ، وفى دعوة محمد منطق لا يجافى الفطرة ، ولا يخاصم الميول ، ولا يعاند الغرائز ، وما صح أنهم

---

١ — عقولهم
٢ — ممقوت
٣ — العنق

اعترضوا طريقه ، أو حاربوا دعوته، أو أعلنوا خصومته ، وهم يفندون قوله ، أو يكذبون رأيه ، أو ينقضون قضية مما جاء به من عند الله ، ولكن إصرارهم على العناد ، كان نوعا من لجاج [1] المهزوم الذى يعز عليه أن ينهزم ، فلا يجد إلا المكابرة الباطلة ، والجدل الهزيل ، والسفه المفضوح ، والطيش الكاذب . . . ونحن إذا قارنا هذا الزمن الذى ظلوا فيه يعكفون على الأصنام ، ويعيشون على الأوهام ، ويستجيبون للخرافة ، بهذا الزمن الذى أمضوه فى الجذب والشد ، أو الصراع واللجاجة والصد والإعراض ، والنكوص والإمتناع ، لم يرع انتباهنا موقفهم المعادى للدعوة ، ولم نجعل فى الاعتبار أنهم كانوا معارضين بمعنى الكلمة ولأمر ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يقابل منهم هذه « السابية » إلا بدعائه لهم بالهداية ، ورجائه لهم الرشد ، وقوله — دائما أبدا — « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » وصح فى السيرة النبوية أن جبريل عليه السلام على أثر أزمة من هذه الأزمات قال له إن الله قد سمع قولك لقومك « وسمع الذى ردوا به عليك ، وهذا هو أخى ملك الجبال ، إن شئت طبق عليهم الاخشبين — جبلان بمكة — فكان رده عليه . . لا ياجبريل فإنى أرجو أن يكون من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا . . . ولم يمض النبى إلى ربه إلا وقد رأى بعينه ذلك كله ، وتناسل من هؤلاء من كانت غيرته لله ولدينه أشد من غيرته على نفسه وعلى ماله . . . ولعل قائلا أن يقول هل كانت حال أولئك الأعراب [2] أو العرب أدعى إلى الإشفاق . وأشد إلى العلاج ، وأبعث على الرحمة،

---

١ — مكان البوادى

٢ — اشتعل واندلعت ناره

وأكثر فساداً ، من غيرهم من تلك الأمم التى استشرى فيها الضرر ، وتمكن منها المرض ، وطغى عليها الخطب ، حتى خصها الله جل جلاله بهذه العناية إنقاذاً لها مما تعانيه ، أم هو ـ فقط ـ هذا الموقع والاستراتيجى ، وصلاحية العـــرب للقيادة والسيادة ، جعل النور يبزغ فى أرضهم ويظهر من بينهم . . . والجواب الذى لامناص منه ، أن العرب أهل لهذا الفضل . وأجدر بتلك العناية ، وسبب ذلك ما قدمناه من أن فطرتهم الجبلية ، وصفاتهم الذاتية ، كانت تؤهلهم لأن يكونوا جنود حق ، وحماة فضيلة ، ودعاة إصلاح ، وهم إلى جانب هذا ـ كذلك ـ كانوا يعيشون فى أرض هبط عليها أنبياء ، ودوت فى جنباتها دعوات وارتفعت فى أجوائها صيحات . من إبراهيم وإسماعيل وموسى وعيسى وإسحق ويعقوب ويوسف ؛ وغيرهم ممن عاشوا فى تلك الأرض ، ودفنوا فى ذلك التراب . .

وقد ندهش الدهش كله أو بعضه إذا علمنا أن الرسول الكريم وهو الذى لم يرسله ربه لأهل الجزيرة وحـدهم كان شديد الحدب على العرب ، كبير الرجاء فيهم ، يتحدث عنهم بما يشبه العصبية إذ يقول ـــ مثلا ـــ لسلمان الفارسى « لا تبغضنى » فيقول له سلمان فى دهش وغرابة ، وكيف أبغضك يارسول الله ، وأنت أنقذتنى من الجهل ، وهديتنى إلى النور ، ووجهتنى للخير ، وبصرتنى بالرشد ، وعلمتنى الحق ، وشفيتنى من سقامى ؛ وأخذت بيدى نحو الصراط المستقيم ، فيقول له تبغض « ياسلمان » العرب فتبغضنى !! وصح فى الأحاديث أنه كان يقول « إذا ذلت العرب ذل الإسلام » وكان يقول « أنا عربى والقرآن عربى » ... ولو أردنا أن نستقصى هذه

الأقوال فى كلامه صلى الله عليه وسلم لطال بنا المدى . . . ولذلك فإننا نحوم بك حول هذا المعنى ، إذا ذلت العرب ذل الإسلام » . وقبل أن نحوم حول هذا المعنى نقف قليلا عند كلمة « الذل » الذى عساه أن يلحق إنساناً من الناس . أو يحل بفرد من الأفراد ، وهل يكون لهوان يلاقيه ، أو لمرض يعانيه ، أو لقيد يرسف فى أغلاله ، أو جهل يقاسى منه . وضعف يحسه فى نفسه ، لترى ما الذى حل بالعرب من هذه كلها فهى له ذليلة ، وبه عليلة ، وهل هو الفقر ؟؟

وما أظن أحدا ينازعنا الحديث فى أن العرب فقراء من المال ومن القوة ومن العلم ... ولا أحب أن يقول لى قائل إن ديننا يدعو إلى الزهد ، ويحث على القناعة ، وينادى بالتجرد من الدنيا « إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » فإن هذا كلام لا يردده إلا الأغرار[١] ، ولا يلتجىء إليه إلا من لا يفهم قليلا ولا كثيراً من حقيقة دينه الذى يقول « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » وخاصة بعد أن صار المال عصب الحياة ، وميزان التعادل ، ومنطق الأشياء ، وبلسم الجراح ، وعلة العلل ... ومن غريب الأمور أن هذا الفقر الذى حل بالعرب فجعلهم يذلون فقرهم صنعوه بأيديهم ، وجلبوه لأنفسهم ، فى الوقت الذى وهبهم الله من الثروات المعدنية فى داخل بلادهم الكثير .. والذى يلقى نظرة عابرة على جغرافية هذه الأرض وما فيها من منابع للخير لا يشك نوعاً من الشك فى أنهم

---

١ — جمع غر وهو الذى لم يجرب الأمور

تصدق عليهم الكلمة القرآنية « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم » !!

وأنا أخشى أن تقودنى هذه الغيرة على مصلحة العرب ، وواقع حالهم ، إلى صراحة جارحة ، ومجاهرة فاضحة ، وقسوة شديدة ، وخشونة غليظة ، وصرامة (١) تجر إلى غضب من يحب المجاملة فى الخطاب والهدوء فى الحديث ، والطى فى المنطق ، والالتواء فى علاج المشاكل ، وبحسبى أن ألفت النظر إلى شركات البترول الأجنبية التى تعيش فى تلك البلاد كما يعيش السرطان فى الأجسام المريضة ، وأن أنبه إلى أنها استطاعت أن تشيع الجوع والعرى فى الأفراد مكتفية بإرضاء رؤساء العشائر ، أو ملوك الشعوب ، وبذلك صار البون شاسعاً والفرق بعيداً ، بين هؤلاء وهؤلاء ... وكانت هذه كلها سياسة استعمارية نسج خيوطها الاستعمار الذى أقام عروش الملوك ، ومكن لرؤساء العشائر ، وهيأ كل الأمراء ليظل له نفوذه فى تلك الأرض ، ولتنطبق علينا الآية « ليذيق بعضكم بأس بعض » ونقرأ فى كتاب الله مما نقرأ « وأمرهم شورى بينهم » ثم نتغاضى — سفها وجهلا — عن الغرض الذى ترمى إليه ، لنفرض على أنفسنا الذل والعبودية ، والضعف والاستخذاء ، ويتهامس المتهامسون فى كل مكان أن فى جهة كذا جوعاً وعرياً ، وفقراً وذلا ، ولا نذكر أبداً ما كان يعلنه الرسول صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع

---

١ — الشدة وأصلها من الصرم وهو القطع

من أن المسلمين تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد[١] على من سواهم ، وكل هؤلاء المسلمين فى تلك الأصقاع لسان حالهم يقول ما كان يقول الخليفة العباسى حينما هانت الخلافة ، وضعف سلطان الحاكم ، وتفلت الزمام من يدى أمير المؤمنين .

أليس من العجائب أن مثلى يرى ما هان ، ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شىء فى يديه

وأقصد بكل هؤلاء المسلمين فى تلك الأصقاع الأفراد ، أما الملوك المتوجون عليهم ، فهم وأولئك الذين يقول عنهم سبحانه « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون » سواء .. وصدق جل جلاله « وكذلك يفعلون » .

فأنت لا ترى واحداً يشارك رعيته الشظف[٢] ، أو يشاطر شعبه الضيق ، أو يقاسم أمته السراء والضراء ، وإنما هو صاحب القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، وللناس من حوله المتربة والحاجة ، والجهل والمرض ، وكأنما يقلدون مع شعوبهم الكادحة فرعون وادى النيل إذ كان يقول « ما علمت لكم من إله غيرى » أو إذ كان يقول « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون » . . . على أن هذه الأصنام قد زالت ، وهذه التيجان قد تهاوت ، وتلك العروش قد تصدعت ، ومنذ سنوات كان أمير الشعراء شوقى يقول ..

---

١ — قوة موحدة كاليد الواحدة

٢ — شظف العيش خشونته وسوء حاله

زمان الفرد يافرعون ولى ودالت دولة المتجـــبرينا
وأصبحت الرعاة بكل أرض على حكم الرعيـــة نازلينا

والوقوف فى وجه الحاكم المستبد ليس جديداً علينا ، ولا جاء به شوقى بدعاً فى التاريخ ، بعد قول القرآن الكريم « وأمرهم شورى بينهم » أو قول الرسول صلى‌الله عليه وسلم « وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » أو قول بعض الخلفاء الراشدين « إن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فقومونى » (١) إذ رد عليه بعض الحضور بقوله .. والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا هذه .. ولكن الذى هو جديد وبدع فى آن واحد هو أن يخيم على المسلمين الجهل المطبق — والساكت على الباطل شيطان أخرس — فيسكتوا على تلك المنكرات ليتمكن منهم الضعف إلى هذا الحد ، وتظل بلادهم مسرحاً للمخازى ، ومرتعاً للاستعمار ، دون صدى يتردد بالإنكار ، أو صوت ينادى بالغضب ، أو لسان ينطق بكلمة الحق ...

ونعلم أن من قضايا هذا الدين الذى نؤمن به أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو الميزة الأصيلة التى بها جعلنا الله تبارك وتعالى « خير أمة أخرجت للناس » إلا أننا نتخبط فيه ، فتارة نفهم أنه للعامة فقط ، أما الخاصة فهم فوق المستوى لا يؤاخذهم الله بذنوبهم ، وتارة أخرى نلوذ (٢) بالجبن ، ونعتصم بالحيدة ، متمسكين بظاهر الآية « عليكم

---

١ — من الاستقامة بمعنى عدلوا ما بى من اعوجاج
٢ — نلجأ ونحتمى

أنفسكم لا يضركم من ضل ، مع أن القرآن يحدثنا عن اليهود بما فيه من الموعظة والاعتبار ما حقه أن يرشدنا إلى السبيل حين يقول «لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون» وقد صور الرسول هذا الترابط بين المسلمين تصويرا رائعا ، إذ جعلهم أشبه بقوم فى سفينة ، كان بعضهم فى الأسفل ، وبعضهم فى الأعلى ، وأن أهل الأسفل يشتد بهم الظمأ فلا يجدون وسيلة الماء إلا الصعود وإرخاء الدلو الذى يلقون به فى البحر ليجيء لهم بالماء ، وأنهم حينما يدفعهم العناء والتعب إلى التفكير فى ثقب السفينة ليخرج الماء من جوفها ليشربوا من أيسر الطرق يكون الحمق قد بلغ بهم غايته ، وأن أهل العلو إذا ضربوا على أيديهم نجوا ونجوا معهم ، وإذا تركوهم على هذا الطيش هلكوا وهلكوا معهم . . . ولا يتعالى عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الملوك المتوجون [1] ، ولا الرؤساء المسلطون . . وهذا هو عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يصيخ [2] إلى الحسن البصرى وهو يتحدث له عن الإمام العادل فى رسالته المشهورة فى كتب الأدب والتاريخ . . . وهذا هو قاضى الجماعة منذر بن سعيد يتفقد الخليفة الأندلسى فى صلاة الجمعة فلا يجده لأنه كان مشغولا ببناء قصر من قصوره ، فينوه عنه فى الخطبة مستشهدا بالآية «أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين»

---

١ — لابسو التيجان كناية عن الملك والسلطان

٢ — يصغي ويسمع

ولم يسع الخليفة إلا أن يحضر للصلاة ، ويشهد الجماعة ، ويشير عليه ابنه فى عزل منذر بن سعيد عن القضاء ، فيرده ويقول له : ويحك يا بنى أمثل ابن سعيد يعزل لإرضاء نفس ناكبة [1] عن الرشد ؟ . . . ومن يدرى فربما كان فى رجال الدين — الآن — من يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويؤولون النصوص لإرضاء هؤلاء الطواغيت ، وإفهامهم أنهم فوق مستوى التكاليف الشرعية ، وأن الذى يلتزمها ، ويقوم بواجبها هم العوام ، والطبقة الدنيا من الناس ، والقرآن نفسه يحدثنا عن هذا الصنف ، ويصفهم بأنهم يشترون بعهد الله ثمنا قليلا ، وأنهم يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى . . . ولقد كانت نكبة البلاد الإسلامية بالحكم « الملكى » أشبه بنكبتها بالاستعمار سواء بسواء ، أوكحذوك النعل بالنعل — كما يقولون — أما النظام الملكى فإننا ندرى كيف كان « فاروق » فى مصر يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ويعطى نفسه من الحقوق ما للآلهة فى الأرض . . وندرى — كذلك — كيف كان حديث الناس عن الملك عبد الله الذى كان على عرش الأردن وساعد اليهود فى أخذ فلسطين وندرى — أيضا — أحاديث الملوك الآخرين . . . وأما الاستعمار فهو سرطان يصيب الله به الأمم والجماعات ، ولا أصفه بهذا الوصف إلا بعد أن تحدث إلى رجل إفريقى — مسلم — من الذين يفدون إلى جامعاتنا للدراسة والتعليم ، وعرفت منه أنهم يخالطون الأجانب هنالك مخالطة تربطهم بحبالهم ، وتعلقهم بعجلتهم ، وتجعل مصيرهم مقترنا بمصيرهم ، وحينئذ لم أشك فى صدق ذلك القول ، بعد أن تذكرت أن

---

١ — مائلة فى اعراض وانصراف

من أهل « الجزائر » فى فرنسا من يزيد عددهم على خمسين ألفا من الأنفس ، وربما كان من أهل تونس ومراكش مثل هذا العدد أو أكثر أو أقل وهى ظاهرة تسترعى الاهتمام ، وتستدعى الانتباه ، وتحمل على التفكير الجاد فى وطنية هذا العدد من الخمسين ألفا أوتزيد .. وهل يعقل أحد أنهم مع هذا الامتزاج يحرصون على الاستقلال ، أو يطاردون الاستعمار ، أو يناوئون المحتل الغاصب ؟ . . إننا ـ الآن ـ نشكو من الرجعية ، ونعانى من العملاء ، ونخاف دائما أبدا من هؤلاء الذين يطعنوننا من الخلف ، ويحاربوننا فى الظلام ، أويعملون على تفريق صفوفنا ، واختلاف آرائنا ، ونرى أن تلك الوخزات [1] التى تنالنا ، والرميات التى تصيبنا ، لم تجىء إلا منهم ، ولم تكن إلا بأيديهم . . . والبلاد العربية هنا وهنا وفى كل مكان تشير إليه الإصبع مريضة بهذا الداء الوبيل ، موت العروبة الأصيلة فى نفوس العرب ، وفساد الدم العربى ، وفقدان النخوة العدنانية أوالقحطانية ، وبعد هذا وهذاوجود العملاء والأذناب والبراذع ، ولا يمكن بحال من الأحوال أن يستقيم الظل والعود أعوج . . .

والرئيس « جمال عبد الناصر » أيده الله بنصره ، وأمده بعونه ، يحاول أن يرقع الثوب المهلهل ، حينما يريد أن يجعل من هذه الفلول الهزيلة قوة ضاربة ، أو جيشا زاحفا ، ما دام هذا هو حالهم من الفرقة والتخاذل ، والمرض والضعف ، والميل والهوى ، والجهــــل والفقر ، والدعوة إلى الاشتراكية الإسلامية لا تجد آذانا مصغية فى تلك البلاد

---

١ — الغمز والشك بالابرة ونحوها من كل حاد

ولا بين هؤلاء الذين أفسد الاستعمار ضمائرهم . لسبب واحد هو أن هنالك حواجز بين الطبقة الحاكمة ، والطبقة المحكومة ، ومن المؤسف أن تكون هذه الحواجز متنافية مع تعاليم الدين الإسلامى ثم يزعم الحاكمون المسلطون أنهم يحكمون بما أنزل الله فى كتابه مع أن قضايا هذا الدين تجعل المسئولية مشتركة بين الراعى والرعية ، ولا تعتبر الحاكم إلا خادما لشعبه ، ولا ترى الثراء إلا وظيفة تحتم على صاحبها البذل والإنفاق ، والتعاون على البر والتقوى « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء » وفى الحديث القدسى « الأغنياء وكلائى والفقراء عيالى ، فإن بخل وكلائى على عيالى ، أذقتهم وبالى ولا أبالى» وهو مصداق لقول الله سبحانه «وأنفقوا مما جعلكم الله مستخلفين فيه » . . . ولا نريد بهذا الاسترسال أن نجعل من حديثنا إلى زيد وعمرو من أولئك الذين نشكو إلى الله ظلمهم موضوعا وعظيا ، أو خطبة منبرية ، إنما نريد ـ فقط ـ أن يخطر ببالنا عند الحديث عنهم الآية القرآنية « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » لأنها لباسهم الذى ينطلى عليهم فى كل زمان ومكان، ولا يشك عاقل فى أنهم فسقوا ، ولم يبق إلا التدمير وأظنه قد حصل ، أو هو حاصل ، ونسأل الله السلامة . . . وعلى هذا فنحن إذا نادينا بالاشتراكية الإسلامية إنما ندعو هؤلاء إلى أن يعودوا إلى حظيرة الإسلام من جديد لا أكثر ولا أقل « ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار » . . .

والنداء بالاشتراكية الإسلامية ، والدعوة للقومية العربية ، لم تجعلها «القاهرة» شعاراً سياسياً ، ولا مذهباً اجتماعياً عمرانياً ، كما كانت

تعلن الفاشية أو النازية أوالشيوعية أو الرأسمالية ، ولكنها صميم دعوة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم الذى جاء بالمساواة وإذابة الفوارق وقد كان عربياً يحمل للبشرية كتاباً عربياً ، ولا معنى للقومية العربية إلا العصبية لهذا البيان ، وذلك اللسان ، رغبة فى أن يلتف العرب والمسلمون حول هذه المائدة التى جعلها الله عيداً لأولهم وآخرهم . حتى لا يأخذوا نصاً من كتاب الله على غير وجهه ، أو يفهموا حديثاً من أحاديث الرسول بغير معناه ، وقد جاء فى حكمة مشروعية الحج قول المولى جل جلاله « ليشهدوا منافع لهم » وليست هى منافع تجارية أو مغانم اقتصادية ، بمقدار كونها دراسة مشاكل ، ومناقشة مسائل ، مما يرزحون[1] تحته من نير[2] الاستعمار ، وظلم الغاصب ، فماذا يكون حال الهندى والصينى والإيرانى والباكستانى والأفغانى والتركى إذا تلاقوا هنالك من غير لسان ينطق ، أو بيان يفصح ، وهم لم يشهدوا منافع لهم ... هل تكون الترجمة ترجماناً لهم ... أو بريداً بينهم ، ونحن نعلم أن الترجمة لا يمكن أن تكون صديقاً صدوقاً ، أو أميناً مخلصاً إذ هى تزيد وتنقص ، وتقدم وتؤخر ، وتغير وتبدل ، وللعلماء فيها بحوث وأحاديث انتهوا منها إلى أنها أشبه برسول المتنبى إلى محبوبته حين يصفه بقوله « .

كلما عاد من بعثت إليها   غار منى وخان فيما يقول

وتحتم بعد هذا وهذا أن تكون العربية هى لغة التخاطب لمن

---

١ — رزح تحت الشىء عانى منه شدة وألماً

٢ — والنير ما يوضع على رقبة الثور ونحوه أثناء حرث الأرض وشقها للزراعة

يطوفون بالكعبة ، ويتجهون إلى القبلة ، ويؤمنون بالله ، ويتبعون الرسول النبي الأمى ؛ لأن هذه اللغة هى التى تقرب المسافات ،وتزيل ما بيننا الفوارق ؛ وترفع الخلاف ، وتعين على فهم الكتاب والسنة .

ومن هنا يظهر أننا أمام دعوة دينية خالصة من شوائب الخلط والتدليس ، والرياءو الكذب ، والخداع والنفاق ، وكان على المسلمين أن يلتفتوا إليها ، وينادوا بها ، وحين أخص المسلمين بهذا لا يفوتنى أن ألفت نظرهم إلى أن هنالك فجوات (١) واسعة . وحدوداً طويله ، تباعد مابينهم فى فهم القرآن ، لأن مفاتح أغلاقه اللسان العربى ، والبيان العربى ، والفصاحة العربية وتذوق أسرارها ؛ ومعرفة أساليبها ، ولأن من قضايا الإيمان ، التصديق بأن الله سبحانه وتعالى تحدى به البشر ، وأعجز به الخلق ، وأفحم به العرب ، ولا يمكن لكائن من كان أن يفهم هذه القضية التى يجب عليه الإيمان بها إلا إذا تسلح لها بلسانها وبيانها .

ومن المسلم به أن اختلاف اللسان والبيان كان سبباً فى وقت من الأوقات فى تفريق الكلمة ، وضعف الشوكة ، وذهاب الريح ، بل هو لا يزال كذلك ، لأن مقومات الجماعات ، وأسباب ترابط الناس — فيما يرى علماء الاجتماع — الدين واللغة والوطن ، وبمقدار توفرها يكون التآخى والتآزر ، ولعمرى إذا كان الرباط هو الدين وحده ، والمسلمون يتضاربون فيه ، ويتباينون فى فهمه ، ولا يكادون يتفقون على مسائله فهل يكون الرباط بينهم إلا مفككاً ، والوشيجة بينهم إلا هزيلة ..؟!

فى اعتقادى أن المسلمين الذين يعرضون عن هذه الصيحة يعلنون عن جهل ،

---

(١) — جمع فجوة وهى الاتساع بين شيء وآخر

ولقد أخبرني بعض الأصدقاء الذين أوفدتهم إحدى الجامعات ـ هنا ـ ليقوموا بدراسة اللغة العربيـة في بعض بلاد المسلمين ؛ن لا ينطقون الضاد أنهم لـما عرضوا على المسـئولين فيها التوسع في دراسـة اللغة العربية قابلوا هذا العـرض بالريبة ، « وردوا عليه بالإنكار ، لأنهم خشوا أن يكون ذلك امتداداً جارفاً لنفوذ « القومية العربية » التي تنادي بها مصر ، رهو حـــديث إن صح كان عنواناً على التخلف ، ودليلا على الرجعية ، ورمزاً صحيحاً للجهل ، فإننا ندرس لغات الغرب ، وأدب الغرب ، ولم نر في ذلك غضاضة (١) على القومية أو الأخلاق أو الدين ، ونفهم أن المعرفة كمال مهما كانت ، والعلم نور على أي حال ، يطلبه الناس من المهد إلى اللحد ، وينشده عشاقه في كل لون من ألوانه ، أو جهة من جهاته « حتى ولو كان سحراً وشعوذة ، أو دماراً وهلاكاً ، والقرآن الكريم يعلق الآمال على العلماء ولو كانوا من غير أهله ، وقد مدح النصارى بقوله «ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا » لأنه يرجو منهم الخير دون سواهم . .

---

١ — غضاضة الأمر — هنا — عدم قابلية النفس له

من التاريخ

الأحداث التى توالت على المسلمين كلها — من القديم والجديد — تدل على أنهم كانوا يشتغلون بما لا يجدى تاركين وراءهم دولتهم تتمزق ، وبلادهم تتوزع ، ومجدهم ينهار ، وسلطانهم يذهب بددا [1] ، والنبى صلى الله عليه وسلم الذى ورثهم ذلك التاريخ . وحملهم تلك الأمانة ، لم يكد يفارق هذه الدنيا ، وينتقل إلى الرفيق الأعلى ، قائلا لهم إنه تارك فيهم أمرين لن يضلوا بعده ما تمسكوا بهما ـ كتاب الله وسنة رسوله ـ حتى ابتدأ اختلافهم ، وظهر نفورهم ، وبدا خصامهم ، وأخذوا يتنازعون الخلافة بعده ، بحجة أنها سلطان يعطى لصاحبه الجاه ، ويخضع له الدنيا ويجبى إليه ثمرات كل شىء ، وكان من أثر هذه النظرة المنحرفة أن استخدم الدين نفسه لهذا ، وحاولت الطوائف أن تجعل نصوصه مستجيبة للأغراض والأهواء ، وهنالك ظهر أشياع على رضى الله عنه الذين بالغوا فى حبه ، وتجاوزوا الحد المعقول فى تكريمه ، ووقف فى وجههم الخوارج الذين جعلوا الدين نفسه المعنى المقدس الذى يرتفع فوق الأشخاص والاعتبارات . . وكان الناس من قبل قد ظهر فيهم الملازمون لمجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين يأخذون عنه ، وينقلون قوله ويكثرون من رواية أحاديثه ، واتهم المتهمون أمثال هؤلاء المكثرين

---

١ — البدد الضياع والهلاك

من الرواية والنقل بأنهم أشبه بحاطب[1] الليل الذى يجمع الدقيق والجزل، وقد بالغ جماعة من أولئك الرواة بالتمسك بنص الحديث ، لا ينحرفون عنه ، ولا يؤولون فيه ، وسماهم المعاصرون لهم « أهل الحديث » . .
أما الذين يعولون على النظر ، ويعتمدون على الرأى ، ويقيسون الأشباه بالأشباه ، ويجتهدون فى استنباط الأحكام ، حين لا يسعفهم النص ، أو لا يطمئنون إلى الرواية ، فإنهم « أهل الرأى » . . . وترادفت هذه الأحداث المتوالية وكان فى المسلمين من يقدم العقل على النقل ، ولا يأخذ بالحكم إلا إذا كان معقول العلة ، لأنه رأى القرآن فى كل أوامره ونواهيه يدعو إلى النظر ، ويحث على التأمل ، وينادى بالمنطق ، ويرغب الناس فى الاعتبار ، واشتهر هؤلاء باسم « المعتزلة » وسواهم باسم « أهل السنة » - كذلك - كان فيهم جامدون أخذوا القضايا على علاتها نعتهم الناعتون باسم « الخلف » وغير جامدين نعتهم الناعتون باسم « السلف » وهكذا اجتهد المسلمون اجتهاداً غلبت عليه نزعة الجدل والنظر ، والفلسفة والمنطق ، وكأنهم جعلوا مصادر التشريع غاية لا وسيلة ، تدور رحى الحرب على ثبوتها ونفيها ، وفهم معناها ، ودلالتها المطابقية أو التضمنية بصرف النظر عن المغزى الذى تهدف إليه ، والروح التى تدب فى مفاصله والخلاف على الحق مشكور ، والاجتهاد فى فهم المسائل محبوب ، واحتكاك العقول محمود ، إلا أن المسلمين يجب أن يفهموا أن الغرض الأساسى لتلك الشريعة جمع الكلمة ، والتفاف الشمل ، ورأب الصدع ، وتوحيد الصفوف ، وتلاقى الميول والأهواء ، وأن كل معنى يقف فى

---

١ — الذى يجمع الحطب

سبيل واحدة من هذه يجب أن يزول . . . وإذا قلت يجب أن يزول فإنى أقولها واثقاً بها ، متمكنا منها ، عالما بأن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم كانت من أجل ذلك أولا وقبل كل شيء . . . والمؤسف المؤلم أن اختلاف وجهات النظر عند علماء المسلمين لايعدم أن يكون له دليل يؤيده ، أو شبهة تساعد عليه ، والذين يقولون - مثلا - فى قوله تعالى « بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » إن له يداً لا نعلمها ، ولا يمكن أن نتحقق معناها ، يتلافون مع من يقولون إنهما القدرة والإرادة فى أنه سبحانه « ليس كمثله شيء » وهكذا اشتهر عنهم فى ذلك هذا البيت .

وليس كل خلاف جاء معتبرا   إلا خلاف له حظ من النظر . .

غير أن الذى هو أشد ألما وأسفا أن تكون هذه الخلافات من عوامل هذا التفريق الكالح[1] ، والكراهية الشنيعة . . . والمسلم الذى هو أخو المسلم لايسلمه ولا يخذله ، يجعل من تلك الخلافات مادة خصبة للحرب وسفك الدم ، وتباعد القلوب ، ويصبح المسلمون من أجل ذلك معسكرات ، كأهل جهنم الذين وصفهم البيان الإلهى بقوله « حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون » وينبرى لذلك كله علماء كبار كابن تيمية صاحب كتاب « منهاج أهل السنة » الذى يرد فيه مزاعم كان يتصورها فى شيعة أهل زمانه الذين كانت لهم معتقدات ليست من الإسلام فى شيء ، ثم تشتغل بالرد عليه جماعة منهم - كذلك - فى مؤلفات متنوعة ، ويظل ذلك قائما إلى وقتنا هذا وإلى

---

١ — الكالح العابس أو بشع المنظر والدهر الكالح الشديد

ما بعد وقتنا هذا ، وينجم بعد ذلك نجم « ابن عبد الوهاب » بنجد من بلاد الجزيرة فيبالغ مبالغة عنيفة ، ويشتد شدة قاسية ، وينكر إنكاراً غريباً زيارة القبور ، والتبرك بآثار الأولياء ، والاستعانة بغير الله ، ويقيم بنفسه على نفسه — والمنحازين إليه — حرباً عوانا ، يقابلها الناس بالاشمئزاز والامتعاض ، ولاسيما الشيعة الذين يبيحون البكاء الحار ، والتمرغ فى تراب ضريح شهيد كربلاء « الحسين بن على » والشيعة فى حساب المسلمين ليسوا بالقليل وهم أهل إيران وبعض أهل الهند والباكستان والعراق وغيرها من البلاد الإسلامية ، وكما نرى هذه الظاهرة من شتات الرأى ، ونفور الميل ، وتباعد الهوى ، وكراهية النفوس بين الشيعة وسواهم نرى قريباً منها بين دراويش المهدى وبين دراويش الميرغنى فى السودان ، وكذلك بين دراويش السنوسى وغيرهم فى ليبيا . . وهكذا دواليك شأن المسلمين الجغرافيين الذين ينتسبون إلى الإسلام بالموطن والوراثة ، لا بالعقيدة والإيمان .

ولقد كان يثير اهتمامنا مايكون بين الهندوكيين والمسلمين فى الهند من الصراع والثورة من جراء ذبح المسلمين لثيران البقر ، ونقول حين تترامى إلينا هذه الأنباء إن هذه خرافات أحلام، وأضغاث[٢] أوهام وتعلق بخيالات النوكى[١] ، ومعتقدات الصبيان ، ولا يمكن لقوم سطعت عليهم شمس العلم ، وبزغ فيهم بصيص الفلسفة ، ونقلت عنهم حكمة « كليلة ودمنة » أن تبدر منهم هذه البوادر ، أو تحصل منهم

---

١ — أضغاث الأحلام التى لا يصح تأويلها لتشويشها
٢ — الحمق

هذه التفاهات . . . على أن حدوث مثل هذا كله من قوم إلى آخرين لايدينون بدينهم ، ولا يؤمنون بشريعتهم ؛ ربما كان له مايبرره من الطيش والهوى ، والسفه والحمق ، ولكن حدوثه بين أتباع محمد صلى الله عليه وسلم الذى كان يعلمهم أن الدين يسر لاعسر ، والذى كان يوصيهم بقوله « فقاربوا وسددوا » ، وكان ينصح لبعض أصحابه بذلك النصح الغالى « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى » لم يكن إلا لتخليهم عن رسالتهم، وعدم فهمهم لحقيقتهم وجهلهم بهذا الدين الذى أراد الله لهم به أن يكونوا جنود إصلاح فى جيش الإنسانية المعذبة ، والبشرية المكلومة (١) . . . والذى يتابع الهدى المحمدى فى سيرته صلى الله عليه وسلم يرى العجب العجاب فى هذا ففى الوقت الذى كان يطيل صلاته ، ويرشد أصحابه بالإطالة والقراءة بطوال السور ، يجىء إليه واحد ليشكو له إماماً يطيل بهم الصلاة وفيهم المرضى وأصحاب الأعذار ، فيقول هو لهذا الإمام أفتان أنت أفتان (٢) أنت ؟ ! ويقول بعد ذلك « من أم بالناس فليخفف » . . . وفى الوقت الذى كان ينهى عن السرعة فى الصلاة وعدم الاطمئنان فى الركوع والسجود يقول له رجل يارسول الله إن فلانا ينقر فى صلاته كنقر الديكة ولا يطمئن فى ركوعه وسجوده ، وهنالك يلوم الرسول ذلك المسرع على إسراعه فيقول له هذا المسرع ، يارسول الله إنى أخطفها من الشيطان قبل أن يخطفها منى ، فلا يسعه صلى الله عليه وسلم إلا أن يقبل عذره ، وأن

---

١ — المجروحة

٢ — الفتنة تطلق على بلبلة الأفكار وايقاع الفرقة بين الناس

يستريح لهذا الرد الذى يرد به ، وإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى . . . ولعمرى لو تأدبنا بهذا الأدب لما جرينا مع الغواية ، ولما أسأنا المعاملة ، ولما دب بيننا الشقاق ، فى حين أن القرآن الذى يقول « ولو شاء الله لجمعهم على الهدى » يعرّف بأن مثل هذه الخلافات لابد من وجودها ، وبخاصة إذا نظرنا إلى أن نصوصه قد تكون واضحة لا تحتمل تأويلا ، وقد تكون غير واضحة فتتضارب فيها الآراء ، وتحتك فيها الأذهان ، وتتباين فيها العقول « منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا » لكن هذا كله لا يصح أن يصل إلى حد الخصومة والحرب ، والحزازات والبغضاء ، بين قوم يقول لهم كتابهم المنزل عليهم من عند ربهم « يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان » . . وبودى لو يلتفت هؤلاء المختلفون على زيارة المقابر والتبرك بآثار الأولياء وكتابة المؤلفات فى أن عيسى عليه السلام رفع إلى السماء بجسمه وروحه أم بروحه فقط ، وأن الجن التى جاء ذكرها فى القرآن وخصها الله بسورة باسمها لها حقيقة أم لا . . بودى لو يلتفتون إلى أن عمر رضى الله عنه كان يحكم رأيه وعقله ، واجتهاده وفهمه ، ويغلب جانب بصيرته على جانب بصره ، فيراجع النبى صلى الله عليه وسلم فى الأمر الذى لم يذعن له قلبه ، وكان ابنه عبد الله يأخذ عن النبى من غير مراجعة ، ويقلده من غير بحث ، يخلع خفه كما يخلع ، ويجلس كما يجلس ، وكان يختلف إلى شجرة الرضوان التى بايع المسلمون النبى عندها المبايعة التى ذكرها الله بقوله « لقد رضى عن

المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، وكان يسند ظهره إليها محاكاة له صلى الله عليه وسلم ، وقد قطع عمر هذه الشجرة ليقطع على عبد الله وغيره هذا الصنيع ، وكلا الرجلين له فى نفوس المسلمين الكرامة ، وله عند الله المنزلة ، ولم يقل أحد من العلماء إن شدة عمر وتمرده على تقاليد ابنه أفضل عند الله من تقليد ابنه ومحاكاته ، ولكن لكل واحد منهما قدمه الراسخة ، وإيمانه القوى ، وفضله العظيم ، ومنزلته الرفيعة ، ولا تعدو أن تكون المسائل الخلافية على هذا الطراز[1] ، فلماذا نطيل فيها الجدل، ونحيط حـــديثها بالخصومة ، وعرضها بالتطاحن ، وننسى أن الدولة الإسلامية التى عمرت بالأندلس ثمانية قرون أقامت فيها ملكا، وشيدت حضارة ، وأنعشت عمرانا ، وأيقظت علوما ومعارف ، ونشرت دينا، لم يطوح بعرشها ،ويقوض بنيانها ، ويفت فى عضدها ، ويصيرها أثراً بعد عين ، إلا أمثال هذه السفاسف،إذ دبت الفتن بين ملوك الطوائف، فطمع فيهم عدوهم من أبناء الفرنجة ، وظلوا يستنجدون بمسلمي المغرب من « المرابطين » الذين أغضوا عنهم ، ثم جعلوا النجدة ، ـ أخيراً ـ فتحاً لهم ، يملكون به البلاد ، ويمكنون فيها لسلطانهم ، ويجعلون الزمام بأيديهم ، لا حبا فى الفتح ، ورغبة فى الإصلاح ، وطمعا فى المغانم ، ولكن لأن ملوك الطوائف وقد عاشوا فى قطعة من أوربا ، وامتزجت طباعهم بطباع أهل تلك البلاد ، وتأثروا بهم فى الأخلاق والعادات، وكان لهم بعد ذلك كله سلوك جديد ، وفهم للحياة انعكست عليه أضواء

---

١ — النسق والنظام والنمط

حضارة الإسلام والمسيحية ، باعد هذا كله بين عواطف المرابطين فى المغرب وبين عواطف ملوك الطوائف فى الأندلس ، وكان كبش الفداء هو تلك الدولة التى عاشت ثمانية قرون تقيم الأذان فى بلاد الكفر، وإن لم يكن أهلها مشايخ طرق، ودراويش يسيرون وراء هؤلاء المشايخ بجهل كما كان أولئك المرابطون .

الأزهر ودوره

وحديثنا عن العروبة والإسلام يبرز لنا الأزهر منارة سامية ، وشمسا مشرقة ، وضياء وهاجا ، كان له الفضل كل الفضل فى تلك الروابط الوثيقة التى قامت ، وستظل قائمة ، بين البلاد التى تدين بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ لا يجهل أحد من المنصفين ما كان له من أياد بيض على الثقافة والمعرفة ، واللسان والبيان ، لأن جوهر الصقلى الذى بناه فى أواخر القرن الرابع الهجرى فى عهد الفاطميين ليكون مدرسة للفقه الشيعى ، والدعاية التى كانت قائمة حينئذ ، لم يكن يقدر فى نفسه أنه سيصير كعبة ثانية تتجه إليها الأفئدة ، وتلتف حولها القلوب ، لأن العواصم الإسلامية الكبرى قد أسلمت قيادها له . بعد أن ضعف سلطان الخلافة ، وذهبت قوة الدولة ، واضمحل[1] نفوذ الحكام ، وأغارت على التراث الإسلامى العوادى ، وعصفت بالمقدسات العواصف ، وامتدت الأيدى العابثة إلى الكتب ، ونزلت ضربات البطش والطغيان على رؤوس العلماء ، ففروا بدينهم ، ونجوا بأنفسهم ، ولم يجدوا ملجأ يحميهم ، ولا حصناً يلوذون به ، إلا القاهرة يجعلون منها وطناً حبيباً ، وروضا وارفا ، وملاذاً آمناً ، وفى الأزهر حطوا رحالهم ، وعانقوا آمالهم ، وتفتحت نفوسهم ، وتيقظت أفكارهم ، وازدهرت عقولهم ،

---

١ — اضمحلال الشيء ضموره وهزاله وضعفه .

ونشطت قرائحهم . ثم ما لبث أن صار مثابة لكل مسلم ، ومباءة لكل طالب ، ومنارة لكل ضال ، وعلى الرغم من أن الوعى الإسلامى قد انتبه من غفوته ، وصحا من رقدته ، وابتدأت بعض العواصم الإسلامية تلتفت إلى العلم ، وتهتم بالتعليم ، وتبنى المدارس والمساجد لتكون مصدر إشعاع ، ومركز هداية ، لم يفقد هو تقديره ، ولم يعدم احترامه ولم يصرف ذلك كله الوجوه عنه ، واندفع الخيرون من وجوه البلاد من كل قطر يقفون عليه الأوقاف والحبوس ، تيسيرا على الوافدين ، وتمكيناً للمعوزين (١) ، وتسهيلا للراغبين ، فخف إليه أبناء الصين والهند والروس والتركستان وإيران والمغرب والأحباش وأندونسيا والملايو وسومطرا وتركيا واليونان والسودان وغينيا ونيجيريا والصومال والسنغال وغير ذلك وذلك من البلاد الإسلامية المتطلعة للنور ، والمتشوقة للهداية ، أو المتوثبة للتهذيب ، ثم هم ربما كان ظمأهم شديداً ونهمهم عنيفاً ، ورغبتهم قوية ، فلم يكتفوا بأبنائهم الذين بعثوا بهم إلينا بل طلبوا — كذلك — علماء مصريين من الأزهر يعملون عندهم فى الوعظ والإرشاد أو التدريس فى المعاهد والمدارس ، والأساتذة الذين أوفدهم الأزهر إلى البلاد العربية . والبلاد الأجنبية فى أوربا وأمريكا ، لا يقل عددهم عن ألف مبعوث يقومون بواجبهم ، ويتفانون فى أداء رسالتهم ويخلصون إلى حد بعيد فى عملهم . . . ولقد كانت مصر نفسها بفضل وجود الأزهر فيها البلد الملحوظ ، والأمل المرموق ، والخل الوفى ، والصديق الصدوق ، فلم تحل ببلد من تلك البلاد نكبة إلا مدت إليها

---

١ — من العوز بمعنى الفقر والحاجة

يدها ، وحنت عليها بصدرها ، وساعدتها بمالها ، وواستها بكل ما تملك من عواطف الود والإخاء، وكان أمير شعراء العروبة « شوقى » لا تفوته مناسبة طارئة ، ولا فرصة سانحة ، دون أن يجعل من شعره بلسما للجراح ، ووقودا فى حومة الكفاح ، ولم يمر فى القرن العشرين حدث من الأحداث ، أو محنة من المحن ، من غير أن يكون له فى شعره النصيب الأوفى ، وكان أبناء تلك البلاد يستقبلون ذلك الشعور بالرضا والارتياح وكان هو — أيضا — يحس بهذا الوقع العظيم فيعتبره من فضل الله عليه ، فيقول . .

رب جار تلفتت مصر توليه سؤال الكريم عن جيرانه
بعثتنى معزيا بمآقى (١) وطنى أو مهنئاً بلسانه
كان شعرى الغناء فى فرح الشرق وكان العزاء فى أحزانه
قد قضى الله أن يؤلفنا الجرح وأن نلتقى على أشجانه (٢)
كلما أن بالعراق جريح لمس الشرق جنبه فى عمانه
وعلينا كما عليكم حديد تتنزى (٣) الليوث فى قضبانه
نحن فى الفكر بالديار سواء كلنا مشفق (٤) على أوطانه

والحقيقة أن مصر بفضل تلك الثورة الفكرية التى احتضنها الأزهر كانت قبلة للأحرار من كل حدب وصوب (٥) . . وجمال الدين الأفغانى

---

١ — المآقى جمع موق والموق جانب العين من ناحية الأنف والمراد الدموع من اطلاق المحل وارادة الحال
٢ — والأشجان جمع شجن بمعنى الحزن
٣ — تتحرك من الألم والغيظ
٤ — خائف
٥ — جهة وناحية

فيلسوف الشرق والإسلام لم يجد بلداً ينشر بها علمه ، ويذيع بها وعيه ، وينادى بها بآرائه الجريئة ، وأفكاره المتحررة ، إلا القاهرة حيث يوجد طلاب العلم أمثال محمد عبده ، وسعد زغلول ، الذين كانوا مشاعل نور وهداية ، وكان للاستعمار فى البلاد المختلفة أسلوبه من العنف ، وسياسته من العسف ، وطريقته فى البطش ، وديدنه(١) فى الإرهاب ، ولم يستطع بحال من الأحوال أن يطلق يده بمثل ذلك كله فى مصر لأن الأزهر كان واقفاً له بالمرصاد يحاسبه على الهفوة ، ويؤاخذه على الكبيرة والصغيرة ، وقد سجل التاريخ لعلمائه مواقف مشهودة ، وغضبات مضرية مشكورة ، مع المماليك ومع نابليون ومع محمد على ومع الانجليز ، واستطاعوا أن يجعلوا من الأزهر حصنا يصوبون منه الرميات العنيفة لأعداء البلاد وكان منبره ميداناً يتبارى عليه الخطباء والشعراء إلى حد أن ظفر من أمير الشعراء بتلك القصيدة المشهورة التى كان مطلعها . .

قم فى فم الدنيا وحى الأزهرا ... وانثر على سمع الزمان الجوهرا
واجعل مكان الدر إن فصلته ... فى مدحه خرز (٢) السماء النيرا
واذكره بعد المسجدين معظماً ... لمساجد الله الثلاثة مكبرا (٣)
واخشع ملياً واقض حق أئمة ... طلعوا به زهرا وماجوا أبحرا
كانوا أجل من الملوك جلالة ... وأعز سلطانا وأعظم مفخرا
زمن المخاوف كان فيه جنابهم(٤) ... حرم الأمان وكان ظلهم الذرى

. : .

١ — الدأب والعادة
٢ — الخرز ما ينظم من عقود اللؤلؤ والمرجان ونحوها من الأحجار الكريمة
٣ — معظما
٤ — كهفهم وحماهم وجانبهم

يا معهداً أفنى القرون جداره وطوى الليالى ركنه والأعصرا
ومشى على يبس المشارق نوره وأضاء أبيض لجها والأحمرا
وأتى الزمان عليه يحمى سنة ويذود عن نسك ويمنع مشعرا

٠٠

ولدت قضيتها على محرابه وحبت به طفلا، وشبت معصر[1]
وتقدمت تزجى الصفوف كأنها وجاندرك،[2] فى يدها اللواء مظفرا
الصارخون إذا أسىء إلى الحمى والزائرون إذا أغير على الشرى
لا الجاهلون العاجزون ولا الآلى يمشون فى ذهب القيود تبخترا

وبهذا الحديث عن الأزهر، وبهذه المكانة التى كانت من الاشعاع والنور، وبتلك المنزلة التى تبوأتها مصر من القيادة، نستطيع أن نرد على هؤلاء الذين يشوهون دعوتنا للقومية العربية، بحكم أننا لم ننحدر من أصول عربية، وأن لغة أجدادنا وآبائنا لم تكن عربية وأننا دخلاء على العروبة، لم يجر فى عروقنا إلا الدم الفرعونى، لأن العربية لم تكن إلا بيانا ولسانا، وهوى وعاطفة . .

لسان الفتى نصف، ونصف فؤاده ولم يبق إلا مضغة اللحم والدم

وربما كنا هنا — فى مصر — على فرعونيتنا الأولى، ووثنيتنا القديمة، أحسن نطقا، وأفصح تعبيراً، وأعذب بيانا، وأكثر تذوقا لمعنى العروبة من غيرنا من هؤلاء وهؤلاء . .

---

١ — دون البلوغ
٢ — قائدة ثورة تحررية فى فرنسا

أين امرؤ القيس والعذارى   إذ مال من تحته الغبيط
استنبط العرب فى الموامى   بعده واستعرب النبيط

وبهذا يظهر أنها دعوى ملفقة ، وقضية غير مصدقة ، وافتيات [1] على الواقع ، فإن الأدب العربى ، والبيان العربى ، والنهضة الثقافية التى بلغنا شأوها ، ووصلنا إلى غايتها ، ترد على أولئك الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، بمحاولتهم هذا البهتان ، واختلاقهم ذلك القول ، وتشويههم هذا التاريخ بلا حياء ولا خجل . . .

١ — ادعاء باطل

محنة فلسطين

محنة فلسطين ، أو على الأصح محنة المسلمين بفلسطين ليست بنت اليوم ، ولا حديثة العهد ، ولكنها تضرب فى بطون التاريخ ، حيث كان بيت المقدس قبلة صلاتهم ، وموطن عبادتهم . منذ كان أنبياؤهم السابقون إلى أن كان موسى عليه السلام ، ولذلك فقد كان المسلمون فى أول فرضية الصلاة عليهم يستقبلون بيت المقدس ، إلا أن اليهود عيروهم بهذا ، وقالوا لهم تخالفون شريعتنا ، وتتبعون قبلتنا ، وقد حز ذلك فى نفوسهم ، وتألم له النبى صلى الله عليه وسلم ؛ وودلو يختار الله له ولقومه قبلة أخرى ، لتنقطع قالتهم ، وتنهار حجتهم ، وظل بعد ذلك يتطلع بنظره إلى السماء رجاء أن ينزل عليه جبريل بالخبر اليقين ، ولم يزل على هذا الشغف ، وتلك اللهفة ، حتى نزل عليه الوحى بقوله سبحانه . . . « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر(1) المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره » وهنالك ذهب همه ، وسكن قلقه ، واطمأن خاطره ، وهدأت نفسه ، وطاب فؤاده ، وأخذ اليهود يكيدون له وللمسلمين معه من وجوه أخرى ، وأساليب جديدة ، لم تكن لتنتهى بهم إلى الرضا والارتياح ، وهم الذين خلقهم الله للشرور الإنسانية « وجعل منهم القردة والخنازير وعبد

---

1 — ناحية وجهة

الطاغوت ، وفى البلاد العربية حصل لهم الجوع والفقر والمرض والهلاك في وادى التيه الذى ظلوا فيه أربعين سنة ، وفى طور سيناء من تلك البلاد كانت مناجاة موسى لربه ، وفتنة السامرى الذى جعل من حليهم عجلا جسداً له خوار « فقالو هذا إلهكم وإله موسى فنسى » وفى فلسطين بالذات قبلة عبادتهم « بيت المقدس » وفى كتبهم أنهم موعودون من الرب بأرض « المعاد » وهى مساحة شاسعة تشمل معظم بلاد الجزيرة وجزءاً من مصر — من الفرات إلى النيل — ويظهر من التاريخ القديم أنهم كانوا — أولا — بمصر على عهد موسى إلى أن حلت بهم لعنة الله بعصيانه فهاموا على وجوهم فى وادى التيه أربعين سنة ، وبعد هذا التاريخ ظلوا فى الصحراء الغربية ، واستوطنوا المدينة وما حولها ، وتمكنوا هنالك واشتغلوا بالزراعة والصناعة والتجارة ، وافتنوا فى كسب العيش من الحلال والحرام ، وكان من ألوان افتنانهم الربا الذى لم يفطن إليه الناس إلا بهم ، ولم يعرفوه إلا منهم ، ويدلنا قصص الأنبياء بعد موسى ، وتاريخ الدعوة إلى الله بعد انتهاء زمنه معهم ، أنهم الذين ناوؤا الرسل الذين أعقبوه ، وخلقوا المشاكل لكل من جاء بعده ، وحروبهم الباردة للرسول صلى الله عليه وسلم وللمسلمين معه أوضح من الشمس، وأشهر من نار على علم . . .

والمشتغلون بدراسة الأجناس والشعوب يقولون إن عددهم المتناثر فى أنحاء الكرة الارضية ينيف على الإثنى عشر مليونا من الأنفس ، فى الولايات المتحدة منهم أربع ملايين ونصف ، وأكثر البلاد بعد ذلك اشتمالا عليهم ، رضما لأشتاتهم بلاد أوروبا الشرقية . . . وهم على هذا التفريق فى الدنيا ، والتوزيع على ظهر الكرة الأرضية لم يدر

بخلدهم (١) استيطان فلسطين ، ولا أن يكون لهم وطن قومى بحال من الأحوال ، أو بتعبير أصح لم يكونوا جادين فى هذا المعنى ، مكتفين بالارتباط بمساقط رؤوسهم التى أتاحت لهم المقادير أن تسقط فيها ، وإن كانوا مع هذا يرتبطون بالعواطف، ويتواصلون بالشعور ،ويحدبه بعضهم على بعض مهما تناءت ديارهم ، وتباعدت أجسامهم، وتفاوتت أقدارهم ، وتغلى العصبية الهوجاء (٢) فى عروقهم ، وهو شأن كل جماعة من الناس تشعر من نفسها بالذلة والقلة ، ولعل مركب النقص فى نفوسهم هو الذى يدفعهم إلى الكمال ، فنرى منهم فى كل ناحية من نواحى الدنيا رجال الأعمال والمال ، والصناعة والتجارة ، والسياسة والفكر ،والعلم والأدب ، ولعل مركب النقص هذا الذى حملهم عليه الشعور بالذلة والقلة هو ما دفع بكبار المفكرين منهم أن يدور بخلدهم التكتل فى بقعة واحدة من الأرض بعنوان (وطن قومى) عسى أن تكون لهم دولة تعمل على تحقيق الآمال ، ونيل المطالب ، وقد ألف الكاتب النمسوى اليهودى تيودور هرزل كتابا سنة ١٨٩٦ ميلادية دعا فيه إلى ضرورة وجود هذا الوطن فأنعش بذلك آمال اليهود، ونبه أذهانهم ،وأيقظ تطلعهم ، وكان قبل ذلك سنة ١٨٨٢ م تكونت جمعية يهودية استعمارية ترمى إلى إسكان اليهود فى مستعمرات زراعية ، ثم تكونت منظمة أخرى باسم المنظمة الصهيونية ... وكانت بريطانيا أول دولة فكرت فى أن تخطب ود اليهود وجاء أن تتخذ منهم سلاحاً فى عدوانها ، وقوة لبسط نفوذها ، وجرثومة لانتشار وبائها فى الشرق أو الغرب ، فمنحتهم ذلك الوطن القومى فى

---

١ — فكرهم

٢ — فعلاء من الهوج بمعنى الحمق

أوغندا عام ١٩٠٣م فلم يرضوا إلا أن يكون ذلك الوطن فى أرض أحلامهم «فلسطين» لكن أرض أحلامهم حينئذ كانت تحت النفوذ التركى ، وكانت بريطانيا تجمع عدتها وعتادها للحرب العالمية الأولى فأعطى وزير خارجيتهم « بلفور » الوعد لليهود بذلك الوطن عام ١٩١٧م وانتصرت بريطانيا فى تلك الحرب ورفعت يد تركيا عن البلاد العربية ، وقسمتها إلى دويلات ، وأقامت فيها العروش ، ووضعت فيها تماثيل ملوك ، واحتفظت بفلسطين لتكون تحت وصايتها إلى أن تنتهى فى أمرها إلى غاية . . وكانت فلسطين فى عهد العثمانيين قد تسرب عدد من اليهود إليها حتى وصل سوادهم إلى الإثنى عشر ألفا . . . وفى سنة ١٩٤٢ م فتح الانجليز باب الهجرة على مصراعيه فهاجر اليهود إلى فلسطين ومكنوا لأنفسهم هنالك تمكينا يزيد من اطمئنانهم إلى الوصول للغاية . . وكان الانجليز قد وعدوا العرب ومصرفى مقابل مساندتهم لهم فى الحرب العالمية الثانية أن تتخلى بريطانيا عن فلسطين لأهلها، وكان اليوم المحدد لذلك هو منتصف شهر مايو عام ١٩٤٨ م فدخلت الجيوش العربية بقيادة الخائن الأكبر الملك عبد الله الذين أقاموه على عرش الأردن ، وكان الانجليز قد منوا عصابات اليهود بمثل ما منوا به العرب من التخلى لهم عن فلسطين . وحاربت الجيوش العربية اليهود وكادت تقضى عليها لولا صديقة الطرفين — انجلترا — التى كانت ترسم خطط التحرك والسكون لوجاها الملك عبد الله الذى كان يعطى نفسه حق التخلى لليهود عن بعض الأجزاء من ذلك الوطن العزيز على العرب كما يعطى نفسه حق الهدنة ، وبذلك تبين أن الغرب كله بما فيه انجلترا قد وضع هذه الدولة لتكون شوكة فى ظهر العرب ، وقاعدة من قواعد استحكاماته ، ولم يكد رئيس الجمهورية العربية

يعلن تأميم قناة السويس حتى همت انجلترا وفرنسا أن تعسكر في إسرائيل وتناوشنا باسم اليهود ، ولم تكن إسرائيل إلا ذلك الكلب الذى يغريه صاحبه بالناس ينبحهم ويمزق ثيابهم وقد استطاع ذلك الكلب بمساندة أصحابه أن يكون سيد الدار ، وصاحب الأمر والنهى فيها .. . أما أهلها فمشردون يمزق أحشاءهم الجوع والعرى . . . وجمال عبد الناصر الذى شاهد مسرحية الكلب وصاحبه ، واشترك فى حرب اليهود فى فلسطين حيث كانت الجيوش العربية بقيادة الملك الخائن، هو الذى نادى بالقومية العربية . ودعا الملوك ورؤساء الجمهوريات أن تتناسي الإحن والبغضاء، لتقف صفا واحدا لليهود الذين يجددون فى كل يوم عدوانا . ويفرضون فى كل يوم سلطانا ، ويعملون على التوسع فى نفوذهم ؛ والامتداد فى طغيانهم ، ويصرون على فجورهم ، وهو لا يبغى من وراء ذلك إلا أن يكون العرب على قلب [١] رجل واحد ، لا تتوزع أهواؤهم . ولا تتفتت جهودهم ، ولا تتشتت آراؤهم وأفكارهم - فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية — وعلى اعتبار أن مشا كلنا سواء ، وعللنا واحدة ، والمطامع تحيط بنا من كل جانب، وفى استطاعة كل بلد عربى أن يكون سيد نفسه، من غير أن يعوق ركب تقدمه دخيل ، أو يحول مجرى سيره أجنبى ، أو يفسد عليه وعيه التقدمى رجعى . أو يفرض كلمته عدو ، يمد يده لكل غريق، ويبذل معونته لكل صديق ؛ ويقف جهده لهم لا ليكون إمبراطوراً ، ولا خليفة ، ولكن ليشعر بتحرر أهله وقومه الذين يحس بالغبن الذى يصيبهم : والظلم الذى ينالهم ؛ والعدوان الذى يقع عليهم . ..

---

١ — استعمال يكنى به عن الاتحاد فى الاتجاه والميل والرأى والسياسة

نصحت ونحن مختلفون داراً ولكن كلنا في الهم شرق
ويجمعنا إذا اختلفت بلاد بيان غير مختلف ونطق

والعرب الذين يعنيهم أمر فلسطين ، وتقع إسرائيل موقع الشوكة منهم ، ويكون وجود اليهود بينهم خطراً داهماً يتهددهم . . . هؤلاء العرب مسلمون ، ونحن نخاطبهم بهذا الوضع ، وهذا العنوان يكفي أن يثير مشاعرهم ، ويلهب عواطفهم ، ويشيع الحمية في نفوسهم ، فلا تميل أهواؤهم إلى غاصب ، ولا تعطف قلوبهم على مستعمر ، ولا تتسع صدورهم لعدو يعمل على استذلالهم ، أو يفكر في اعتصار دمائهم ، وابتزاز أموالهم ، أو سلب حقوقهم والاستهانة بكرامتهم . لأن دينهم يأبى عليهم أن يذلوا لغير أهليهم ، ويخضعوا إلا لذويهم « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » . . . وليذكروا أن الجامعة العربية التي هم أعضاء فيها ، ومساهمون في ميزانيتها ، لم تكن إلا لوناً من ألوان القوميه العربية غاية ما هنالك أن عنوان القومية أشد ضخامة وأعظم جرساً(١) وأكثر دلالة على اجتماع الشمل ، ورأب الصدع ، وتأليف القلوب على أن الغيرة على فلسطين ، والدفاع عنها ، والثورة من أجلها ، إن لم يكن للسياسة والكياسة ، فهو للدين والعقيدة ، لأن في فلسطين أحد المساجد الثلاثة التي ذكرت في قول النبي صلى الله عليه وسلم « لا تشد الرحال إلا لثلاث » ، وهو الذي انتهت إليه رحلة تلك الحادثة المعروفة في تاريخ الرسالة ، والتي أشارت إليها الآية الكريمة . . « سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله

---

(١) الجرس الصوت

لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير . . وهو الذى صح فى الحديث الشريف أنه صلى الله عليه وسلم صلى فيه — إماماً — للأنبياء كلهم بما فيهم أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام . . وهو بعد هذا كله قبلة إبراهيم وإسماعيل والأنبياء وقبلة المسلمين قبل أن يأمرهم الله باستقبال الكعبة . . . وعلى هذا فإن فلسطين لا تستصرخ ضمير الذين يستهدفون لليهود من عرب الجزيرة وحدهم ، بل تستصرخ ضمير المسلمين الذين لا يكمل إيمانهم إلا بالغيرة على مقدساتهم ، والغضب لمعالمهم ، والثورة لأعراضهم ، والحفاظ على محارمهم ، وفى تلك الأرض عظام الأنبياء الذين وافتهم المنية هنالك كإبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف ، والتفريط فى حقوقهم تهاون فى الدين ، ونقص فى الإيمان ، وضعف فى العقيدة . . وإذا كانت الشريعة الإسلامية تجعل تغيير المنكر على مراحل أقلها ما يكون بالقلب من الكراهية لأهله ، وعدم التعاون معهم والاحترام لهم ، فإننا نربأ بالمسلم الذى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله أن يتعاون معهم على خير ، أو ينحاز إلى جانبهم فى رأى ، أو يكون جندياً فى ميدانهم فى أية حرب « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة » ونحب أن يتذكر — جيداً — المسلمون فى كل مكان ليتذكروا أن دينهم يقتضيهم أموراً هم عنها غافلون ... أما العرب المسلمون فهم محاسبون عند الله — يوم القيامة — على تلك النكبة حسابين اثنين ، حساباً باعتبار العروبة أولا وحساباً باعتبار الإسلام ثانياً ، وليس واحد بمعفيهم عن التبعة ، أو مخليهم من المسئولية « إلا أن تتقوا منهم تقـــاة ويحذركم الله نفسه » وما اظن أن هنالك ما يلجىء إلى التقية ، أو يحمل على المواربة ، وقد صار

العـرب أحراراً فى بلادهم ، ومن حق هذه الحرية عليهم أن ترفع رؤوسهم ،وأن تجعل ثقتهم فى الله الذى بيده ملـكوت السموات والأرض... وأرجو أن يذكر الملك فلان والملك فلان أن مالك الملك سبحانه وتعالى لا يرضى إلا عن حاكم يستمد سلطانه من قلوب رعيته ، وحب شعبه ، وصلاح حال من يلى شؤونهم ، إذ يسهر للنهوض بمستواهم ، ويكد لرفع شأنهم . ويجد لتوفير الخير لهم ، وإشاعة الأمن فيهم ، ووفرة القوت لديهم واستقرار السعادة فى أكواخهم .

الجامعة العربية

والجامعة العربية — الآن — هى النغم الحبيب الذى نغنى به ، والأنشودة الحلوة التى نرددها ، والآمال الغالية التى نرجو من ورائها الخير والسلام ، لتلك الأمة المنضوية تحت لوائها . والشعوب المختلفة الموقعة على ميثاقها ، وفيما بين وقت وآخر تهب العاصفة ، أو ينحدر التيار ، أو يكفهر الجو ، وتتلبد السحب ، فلا نجد لنا مفزعاً نفزع إليه ، ولا كنفاً نلوذ به ، سوى جريان اسمها على خاطرنا ، على أنها الوشيجة القوية ، والعروة الوثقى ، والآصرة المتينة ، والرباط الذى يضم الشتات ، ويجمع المتفرق . . . ولكنها من أول يوم دخلت فيه حوزة التاريخ ، واحتفل المحتفلون بمولدها ، كانت سماؤها غير صافية ، وجوها غير واضح ، وشمسها لم تكن دافئة الحرارة ، وأغلب الظن أن أعضاءها أنفسهم كانوا يؤمنون كل الإيمان أنها لم تعد أن تكون محاولة يائسة ، أو تجربة هزيلة ، أو خطوة لم ينكشف الغيب عن مداها ، لأنهم أقاموها والاستعمار جاثم على صدورهم ، والأجنبى يتحكم فى مصيرهم ، بل لا نتجاوز الواقع إذا قلنا إنها لم تكن صدى لرغبة العرب بمقدار ما كانت صدى لرغبة الانجليز الذين فرضوا الحماية على مصر وعلى غيرها من البلاد العربية والشرقية . . . ويقول الدكتور أحمد سويلم العمرى الأستاذ بكلية الحقوق بجامعة القاهرة « ونشأت الجامعة فى جو قاتم مكفهر تخيم عليه أحداث الحرب ، وتشكك الشعوب العربية فى حسن

نوايا الدول المتحالفة التي تحتل ديارها ، وتستنزف مواردها ، وتتخذ حذرها حيالها ، ونظرت بغير اطمئنان إلى تمثال الصلصال هذا الذي اشتركت في صبه انكلترا المستعمرة الغاصبة وفق أغراضها السياسية ، غير أن الوطنية العربية وقوة الانبعاث في العالم العربي التي جعلت من شتى [1] الدول العربية بحيوية شعوبها بنيانا متراصا نفخت في هذا التمثال الحياة السياسية بحماسها ووطنيتها ، وانفصلت الجامعة عن أغراض الدول المتحالفة ، ولم تعد مجرد حكومات تخشى نفوذ المستعمر ، وجاهدت في سبيل جلاء قوات الاحتلال عن سوريا ولبنان ، وفي سبيل استقلال ليبيا ، ووقفت مواقف حازمة في نزاع فلسطين ، وسطو العصابات الصهيونية ، واعتداءات إسرائيل ، وفي وجوب منع مرور السفن في مياه العرب الإقليمية لخدمة أغراض إسرائيل الحربية وهي في حرب مع العرب ولم تنته الهدنة بينها وبينها ، وجاهدت في سبيل تحقيق أماني شعوب مراكش وتونس والجزائر ، ووقفت موقفا حازما وصريحا دل على تضامن العرب في مختلف الأرزاء [2] والمحن وخاصة في العدوان الثلاثي الانكليزي الفرنسي الإسرائيلي عام ١٩٥٦ على قناة السويس والأراضي المصرية ، وهكذا برزت أهميتها للعرب في اتحادهم ولم تعد مجرد جامعة حكومات ذات مصالح اقتصادية ، أو أن أغراضها إرضاء الدول الأجنبية الغربية على حساب العرب ، بل هي قوة مادية ومعنوية يحسب حسابها تعبر عن أماني العرب وتصميمهم الأكيد على وحدتهم وتعاونهم على تنسيق جهودهم . ومنع أي تدخل أجنبي في ديارهم ، وإيجاد مكانهم

---

١ — متفرق ٢ — المصائب

الخليق بماضيهم المجيد تحت شمس الحرية » . . . ويظهر من هذا الذى نقلناه عن الدكتور « العمرى » أنه يشاركنا الحقيقة المرة فى الظروف التى نشأت فيها الجامعة غير أنه يحسن الظن بها إلى أبعد مانرى، وينسب لها من الفضل ما يجعلها فى مصاف المنظمات الدولية الكبرى ، وهو مع اعترافه بأنها تمثال من صلصال اشتركت فى صبه انكلترا يقول إنها جاهدت فى سبيل جلاء قوات الاحتلال عن سوريا ولبنان وفى سبيل استقلال ليبيا ، وتحقيق أمانى شعوب مراكش وتونس والجزائر ، ووقفت موقفاً فى العدوان الثلاثى على قناة السويس . . . وهو بهذا الظن الطيب بالجامعة العربية يذكرنا بالمثل القائل «مكره أخاك لا بطل» لأن استقلال هذه البلاد التى يذكرها لم يكن لجهود جامعة الدول العربية، ولكنها لظروف الأيام ، وقد قضت سنن الحياة بأن مصائب قوم عند قوم فوائد ، والمصائب التى توالت على الاستعمار فى عقب الحرب العالمية الثانية جعلته يتفق على جلاء قواته عن البلاد المحتلة ،ثم يفكر فى أسلوب جديد يبسط به نفوذه ، ويمكن به لسلطانه ، ويطمئن به على ضمان مصالحه هنا وهنالك ، وكان هذا الأسلوب هو المعاهدات التى تربط تلك البلاد بعجلة الاستعمار إلى الأبد .. وكلنا لا نجهل أنه كانت بين انجلترا والعراق معاهدة مزقتها ثورة الجيش ، وكانت بيننا وبين انجلترا معاهدة مزقتها ثورة الجيش ، وكانت ـ كذلك ـ بين فرنسا وبين سوريا معاهدة مزقتها ثورة الجيش أيضا . .

أما ذلك الاستقلال الذى نالته البلاد العربية وبلاد المغرب فلم يكن فيه للجامعة العربية ناقة ولا جمل . . . وأسبابه هكذا على الوجه الآتى من غير تزيد فى الحديث ولا مبالغة .. انتهت الحرب العالمية الأخيرة

وكانت الدول المحاربة غالبة ومغلوبة — قد أفرغت سهامها ، وبذلت جهدها ، ونفدت طاقتها ، وخرجت من الميدان وقد دوختها الضربات التي تلقتها ، ثم أصبحت تشعر تمام الشعور بحاجتها إلى بعض ما أنفقته في سبيل شياطين الحروب من مال ورجال ، وتأكدت أن بقاء جنود الاحتلال في تلك البلاد يكبدها تكاليف باهظة[1] من غير مقابل . . .

وهنالك تم الاتفاق بينهم على الجلاء ، غير أنهم أبوا أن يكون جلاء بمعنى الكلمة ، وحينئذ عقدوا المعاهدات المشروطة بأن تظل أصابعهم آخذة بزمام المدفع المصوب إلينا يهدد بقاءنا ، ويزلزل كياننا ، ويقرر مصيرنا ، ويزعزع الأمن والسلامة في سياستنا الداخلية والخارجية ...

وقد كانت معاهدة ١٩٣٦ بيننا وبين انجلترا تقضي بانسحاب عساكر الاحتلال من داخل القطر المصري والتجمع في قناة السويس ، وكان لهذا الانسحاب وقع طيب ، وأثر حسن ، وشعور حلو ، لاننا لم نعد نراهم بأعيننا ، أو نلتقي بهم فيما بين منازلنا وبيوتنا يعبثون ويعتدون ، ولم يخطر ببالنا أنهم حول القناة يضعون الألغام ، وينصبون الفخاخ ، ويصنعون الأسلاك الشائكة ، ويبيتون لنا الدمار[2] والهلاك ، ويرفعون المشانق ، ثم جاءت ثورتنا المباركة في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ واتفقت معهم على الجلاء الكامل ، وجلوا جلاءً كاملا ، ووقعوا مع رجال الثورة معاهدة ما كنا ندري ماهم صائرون إليه بعدها . وإذا كانت كل نقمة في طيها نعمة فقد كان العدوان الثلاثي هو النقمة التي انطوت على النعمة لأنها صيرت تلك المعاهدة غير ذات موضوع . . ولم تكن

---

١ — مرهقة ثقيلة   ٢ — الهلاك

الجامعة بصانعة شيئاً لأصحاب العدوان الثلاثى قد ردهم على أدبارهم خاسرين . . . ولكن الذى قضى على العدوان الثلاثى هو صمود الشعب وبسالته ودفاعه وتفانيه فى التمسك بحقه فى تأميم القناة .. وساعد على ذلك عواطف نبيلة كانت تكنها لنا الشعوب العربية فى السعودية ولبنان والعراق وسوريا والأردن وليبيا وتونس ومراكش والجزائر والبلاد الإسلامية الأخرى كباكستان وأفغانستان فإنهم دمروا معاقل العدو وحصونه وأظهروا الكراهية له والسخط عليه ، وجاء بعد ذلك إنذار روسيا لتلك الدول المعتدية فوقفت واجمة ساهمة ، واعتراها الذهول والفزع ، ولم تجد بداً من الانسحاب الذليل ، والرحيل الحقير ...

ولو أننا تأملنا قليلا فى الأسلوب الذى تعيش به انجلترا مع الشعوب والامم لتتخذ منها مطايا [1] إلى أغراضها . ووسائل إلى غايتها ؛ لآمنا أنها دأبت على أن تجعل الناس عبيداً لها من دون الله . . . فهى كانت تعلم علم اليقين أن الخلافة الإسلامية فى آل عثمان فى تركيا تجمع قلوب المسلمين إلى حد ما ، وتحمل الشعوب العربية على عدم الرضا بعسفها فيها ، واستبدادها بها ، وظلت تصور تركيا — والخلافة فى يدها — بصورة الصديق الجاهل ؛ إلى أن تحرك العرب أنفسهم ونادى المصلحون منهم أمثال الكواكبي بضرورة جمع الكلمة ، ورأب الصدع ، وضم الصفوف وتكوين جامعة عربية ، فلما انتصرت الثورة الكمالية فى تركيا وقضت على الخلافة ، وقطعت ما بينها وبين المسلمين من وشائج ، أرادت انجلترا أن تستغل هذه الظروف كلها ، فلم تشأ أن تقيم خليفة لأنها نغمة دينية

---

١ — جمع مطية وهى ما يركب من الدواب

وهى لا تخاف على عيشها الذى تعبث به شيئاً كما تخاف الإسلام الذى يقول كتابه « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » فعمدت إلى مايشبه « الكومنولث » وما يشبه « حلف الأطلنطى » من كل ما يربط الدول بذيلها ، وفى هذه الآونة سمعنا بحلف «حيدر آباد» الذى دخلت فيه تركيا وإيران والعراق .

وكانت الجامعة العربية صورة من هذه الصور، وقامت حرب فلسطين والملك عبد الله ملك الأردن التى هى إحدى دول الجامعة يقود الجيوش العربية وكان يعوق نصرها ، ويعطل سيرها ؛ وعلى الرغم من أن مفتاح الموقف كان بيد الجيوش العربية حملت العرب حملا على الهدنة المرة الأولى ، والمرة الثانية . والجامعة العربية تقف موقفاً سلبياً فى كل مايصنع بالجيوش العربية من مذلة وهوان . .. وانجلترا التى أقامت هذه الجامعة لتضحك على العرب هى التى سلمت فلسطين لليهود وطلبت إلينا أن نحاربهم ، وسلمت إلينا السلاح الفاسد الذى نضربهم به ليرتد إلى نحورنا ، وفرضت علينا أن نهادنهم [1] واستقبلت «ضبع [2] الفالوجا» استقبال الأبطال ، وأقامت له حفلا راقصاً فى سفارتها ، ثم هى — مع هذا — انجلترا التى أوعزت إلينا بعد ذلك أن ندخل حلف بغداد كما دخلته العراق . . . وقد كانت العراق منذ اللحظة الأولى لعضويتها فى الجامعة تقدم رجلا وتؤخر أخرى . . وكم هددت بالانسحاب منها ، وكم ماطلت فى دفع حصتها من الميزانية ، وكذلك كانت تفعل تونس .

---

١ — أصل الهدنة الاتفاق على عدم الحرب مدة من الزمن

٢ — كان قائد للمعركة التى كانت ضد اليهود فى هذا المكان من فلسطين وكان يسمي (السيد طه)

والمفكرون كثيراً ما يفكرون فى تدعيم الجامعة وإعادة النظر فى قوانينها وإعادة تشكيلها . .. وهذه كلها أدلة واضحة على أن الجامعة هدف للنقد وعرضة للطعن ، ومثار للحديث الباكى ، واللحن الحزين . ولا سيما بعد أن تبين أن دولها غير متحدة السياسة ، ولا أسلوب الحكم ، ولا نظم التعليم ، ولا عواطف الحب،وأن الرؤساء الذين يحكمونهم بالحديد والنار لا يهمهم إلا أمر أنفسهم هم . . . ومن القضايا البديهية أن فاقد الشيء لا يعطيه . . وقد أصبحت تلك الجامعة العربية عاجزة جد العجز عن أن تدفع عدوان بعض أفرادها عن البعض الآخر ، فهل هى قادرة على دفع العدوان الأجنبى ؟ ! أظن أن الجامعة العربية بعد أن وصلت إلى هذا تحملنا على أن نفكر فيها من جديد لنبتدىء الحديث فى تكوينها وفى قانونها وفى تكوين جيش قوى يكون بمثابة السلطة التنفيذية لها . . . أما مادامت هكذا فإن شأنها — فيما نعلم — لا يتجاوز أن يكون كشأن المجمع اللغوى ومجلس الفنون والآداب وغير ذلك وذلك من الجماعات التى لا أثر لها فى سياسة داخلية أو خارجية أكثر من كونها حديثاً ينتهى بانتهاء مقاطعه الصوتية . . وعلى هذا فإن الجامعة إن كانت جادة فى جمع كلمة العرب ، ودفع الأذى عنهم ، وانتعاش أحوالهم السياسية والاقتصادية،عليها أن تقدم للعالم العربى كشف حساب فى كل عام تذكر فيه ما صنعت من خير ، وما بذلت من جهد ، وما ردت من عدوان ، وما رسمت من خطط،وما ترجوه من آمال وأحلام،كما تصنع برلمانات الدول الديمقراطية الناهضة عند افتتاح دورتها البرلمانية الجديدة ، ولا يصح بحال من الأحوال أن تنفرد دولة من دول الجامعة بتنسيق سياسة خارجية مع دولة غير عربية إلا برأى من الجامعة. وبهذا تنصب

الجامعة من نفسها وصياً رشيداً على الدول التى تقع فى داخل إطارها ، وفى حدود نطاقها . . . ويجب أن يفهم هؤلاء العرب الذين تضمهم الجامعة أن انطلاقة التحرر ، ووثبة الوعى ، وصرخة الأمل ، ويقظة النهوض ، لابد أن تستأنف سيرها من ضمـــائر الأفراد ، وأحاسيس الشعوب ، ليكون التيار قويا ، والانحدار سليما ؛ فلا تنتكس النهضة ؛ ولا تتقهقر الخطا ، ولا تتمكن الرجعية ،وليكون حرص الفرد على تلك المكاسب أشبه بحرصه على روحه التى بين جنبيه . . . وقد أدرك هذا المعنى الرئيس جمال عبد الناصر بتأميم الممتلكات الأجنبية ؛ وتفتيت الإقطاعيات الزراعية ،وإذابته للفوارق التى كانت بين الأغنياء والفقراء ليتحول الأفراد كلهم إلى كادحين[1] عاملين ،وليشعر كل إنسان بأنه يحمى مكاسبه ، ويذود عن حقوقه،ويضع بيده اللبنة فى صرح استقلاله وحريته ، ولا يزال فى كل مناسبة ؛ وفى كل موقف يطلع الشعب على خطط الدولة فى التنمية ، ومشروعاتها فى العمران ، ومركزها بين دول العالم الغربى والشرقى ، وبذلك صار المصرى يشعر بأنه هو الحا كم والمحكوم فى آن واحد : وأن جمال عبد الناصر أخوه فى الامانى والآلام والأحاسيس والعواطف ، والكفاح والجهاد . . . وبودنا أن يكون مثل هذا الصنيع فى اليمن والسعودية وحضرموت وعدن وقطر وكل بلد متخلف عن ركب الاشتراكية التى تنبع من صميم التعاليم الإسلامية الصحيحة لتكون الوثبة عن إيمان صادق ،وفهم سليم ، وعقيدة راسخة

١ — الكدح العناء والتعب فى تحصيل الأشياء والكادح اسم فاعل

والتاريخ الذى عودنا البقاء الأصلح ، وعرفنا أن تصحيح الأوضاع تنتهى إليه الجولة الأخيرة ، هو الذى نهمس به فى أذن هؤلاء الذين لا يفكرون فى مصير رعاياهم ، ولا يتألمون لذلك الجوع الذى يصرخ فى أمعاء شعوبهم ، لأن لقمة العيش كانت دائماً أبداً من أسباب الغضب والألم ، والتمرد والعصيان . . .

أمراض العروبة والإسلام

ومن دراستنا للسلوك الإنساني عند العرب أو عند المسلمين — كذلك — نلمح نقصاً ملحوظاً ، وخللا بادياً ، وسجايا من حقها ألا تكون ، ولا نعني بهذا كله أن نجرد العرب والمسلمين من الفضائل التي تؤهلهم لحمل رسالة العروبة والإسلام ، إنما نعني أن بقاء الاستعمار بينهم ، ووجوده فيهم ، كان من أثره هذا النقص ، وذلك الخلـــل ، فالعروبة التي كانت تجري في دماء العرب ، وتمتزج بكيانهم امتزاجاً صحيحاً ، أو كانت بالتعبير الدقيق أنشودتهم في الحل والترحال ، والإقامة والظعن ، يذكرون معها شمائلهم المحمودة ، وخلالهم النادرة ، وأخلاقهم الكريمة ، أصبحت تلك العروبة في بعض البلاد رجعيـة ، وأصبح الحديث فيها حمقاً ، وأصبح الذي يمضغ كلامه على الطريقة الأجنبية ، ويتعثر بيانه على الأسلوب الأفرنجي ، ويطعم خطابه بمجموعة من الألفاظ الدخيلة ، أو الكلمات المعربة ، والذي يأكل على النظام الانجليزي أو الفرنسي أو يتزوج منهم ، أو يتزيا بزيهم هو التقدمي الذي استفاد من المدنية . وغنم من الحضارة ، وانتفع بالعلم الحديث ، وهكذا ظللنا نجري وراءهم ، ونتتبع سلوكهم ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلناه ، فنزل ذلك بقيمتنا ، وهون من شأننا ، وأرخص من قدرنا ، وصيرنا ذيولا لكلابهم . . . ولست أدعو بهذا إلى أن يظل العربي على جاهليته الأولى وطيشه القديم ؛ فيرى أن الدم غير العربي بارد ، والطبع غير

الطبع العربي مرذول ، والنفوس الأجنبية وضيعة ، والإباء والشمم ، والعزة والكبرياء ، تنتهي إلى أبناء يعرب وقحطان ، بعد أن حاربه الإسلام نخوة الجاهلية ، وقضى على التكاثر بالأحساب والأنساب ، واعترف بأنه لافضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، فأجرى مع الحجاج ابن يوسف الثقفي في رأيه العنيف،وسياسته الصارمة ، وسلوكه الخشن ، إذ قال لبعض عماله إذا جاءك خطابي هذا فانف من مجلسك كل نبطي[1] واطرد من الناس من كان غير عربي ، فلما رد عليه أنه لم يبق منهم إلا من تمس إليه ضرورة حرفة أو عمل ، اتهمه بميوله اليسارية ، وكتب إليه — من جديد — يقول إذا وصل إليك خطابي هذا ، فاستحضر طبيباً حاذقاً[2]، ومره أن يجس عروقك فإن وجد فيك عرقاً غير عربي نزعه ولا أدعو بهذا إلى مثل ما فعل المعتصم في الدولة العباسية حينما جعل جيشه وخدمه ورجال حاشيته من الموالي الأتراك ، ثم كان على أيديهم زوال الخلافة ... ولكنني أدعو إلى التأسي بمثل قول النبي صلى الله عليه وسلم « ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ، ولا الآخرة للدنيا ، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه » فخير الأمور الوسط ، فلا العنف محمود ، ولا التهاون إلى حد الاستكانة والضعف محمود ... وأقول هذا القول لمناسبة ذلك الانبياع الشنيع الذي فشا في النفوس العربية ، حين تزوج بعضهم بنساء لم يجر في عروقهن الدم العربي ، فكان ذلك سبباً في إحاطته بالظنون ، ورميه بعدم الإخلاص ، واتهامه بالتهاون ، والحكم عليه بأنه غير وطني ، ولا أفسر ذلك إلا بأنه خور في العزيمة وفتور في الهمة

---

١ — النبط غير العرب مثل العجم

٢ — الحاذق الماهر

وموت للضمير ، وتفريط فى الكرامة ، وعدوان على الوطن ... والخور فى العزيمة هو الذى صير فلسطين فى أيدى أعدائها الصهيونيين . . وكلنا نعلم أن السكان الأصليين كانوا يبيعون لهم أملاكهم فرحين بما يأخذون من ثمن غال ، ثم ينزحون إلى البلاد العربية الأخرى ، وبذلك مكنوا الشر ، وساعدوا على الاغتصاب ، وعاونوا على الاحتلال ، وهؤلاء التجار الكبار الذين يملؤن عواصم البلاد العربية وغير العربية لم تكن قصة نزوحهم إلا تفريطاً فى الوطن ، وخوراً فى العزيمة ، وتمكيناً للعدوان ، ومأساة دامية صنعوها لأنفسهم بأنفسهم مختارين طائعين ... وبعد هذا وهذا نتساءل عن اللغة العربية ، والأواصر العربيـة ، التى تصنع القومية العربية ، وتنمى روابطها ، وتركز أعلامها وصواها ، فلا نجد ذلك إلا حديث خرافة ...

لقد كانت للعرب فى جاهليتها أسواق تتلاقى فيها وفودها ، وتثار فيها قضاياها ومشاكلها ، وتدرس فيها حاجاتها ومسائلها وتتهذب فيها لغتها ، ويزدهر أدبها ، وتنمو روابطها ، وتنتعش تجارتها ، وتنعطف قلوبها وأفئدتها ، فأين ذلك كله للنفوس المتباعدة ، وللضمائر الغافية ، والأهواء المتنافرة ، والمصـــالح المضيعة ، والجهود المبعثرة ، والقوى الكليلة ، والآراء المختلفة .. ؟ !

وإذا كنـا ننحى باللائمة على العرب بعنوان كونهم عرباً يغلى فى عروقهم الدم العربى ، فإننا ننحى باللائمة ـ كذلك ـ على المسلمين الذين وحد الإسلام أهواءهم ، وجمع آمالهم وآلامهم وربط أواصرهم وجعلهم بنعمة الله إخواناً ، إذ شغلتهم أحداثهم الخاصة ، وخلافاتهم المذهبية ، عن قضايا الإسلام ومشاكله ، وصاروا يجهلون أو يتجاهلون

أن مقدساتهم التى يجب الحفاظ عليها ، والجهاد من أجلهـا ، فى البلاد العربية التى نزل فيها الوحى ، ونبت فيها الرسول ، ودوت فى جنباتها آيات الـكتاب المبين هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان مهددة . .
وإذا صح ولا قدر الله أن صارت تلك البلاد فى أيد غير أيديهم ، وسلطان غير سلطانهم ، فسوف لا تـكون لهم قبلة ، ولا تقام لهم شعائر ، ولا يحج لهم بيت ، ولا تبقى لهم معالم ، ولا يرفع لهم صوت ، ولا يسمع لهم أذان . . وهذا هو الهدف الذى يرمى إليه الـكفر منذ إعلانه للحروب الصليبية التى أشاعت الخراب والدمار ، والذل والعار والمرض والفقر ، ودامت عمراً طويلا من الزمن تفنى العتاد والأرواح والمال والرجال ، حتى إذا ماقضى عليها صلاح الدين الأيوبى ، كان ذلك القضاء مثيراً للأحقاد ، مؤججاً لنيران العداوة . وباعثاً لرجال الـكنيسة على أن يتعصبوا ـ من جديد ـ ضد العرب والإسلام والمسلمين ، ولذلك ظلت مناوشاتهم قائمة ، وإغراؤهم بنا يسير على قدم وساق ، وكان آخر هذا الإغراء « محنة فلسطين » لا لتـكون هى التى ينتهى إليها الأمل ؛ ثم يحمد لديها السرى ، ولـكن لتـكون مخلب القط ؛ ويكون وراء بيته المقدس الـكعبة وقبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهنالك لانجد من العزاء والسلوى إلا أن نردد مطلع معلقة امرىء القيس

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل

ترى بعر الآرام فى عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفل
كأنى غداة البين يوم تحملوا لدى سمرات الحى ناقف(١) حنظل
وقوفاً بها صحبى على مطيهم يقولون لاتهلك أسى وتجمل
وإن شفائى عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول

لقد كانت الحرب — أولا — بين العرب وغير العرب ، إذ كان ما للعرب من مجد ، وما هم فيه من عز ، وما هم عليه من شمم ، وما كانوا يحسون به من كبرياء خلعه عليهم هذا البيت المحجوج الذى يتمسح الناس بأركانه ، ويطوفون ببنيانه عاملا فى وجود هذا النزاع ، وخلق تلك الكراهية ، وحدوث هذه الخصومة ، وقصة حقد الأحباش على العرب المصورة فى صورة بنائهم للكنيسة الضخمة التى بذلوا فى تشييدها وطلائها بالذهب الخالص ، ورغبتهم أن يحج الناس إليها تاركين للكعبة ، معرضين عن مكة ، غير معظمين لبيت الله الحرام تدلنا دلالة واضحة على عراقة هذا الصراع وقدمه ، فإنهم وقد أحسوا أنهم أنفقوا أموالهم لتكون عليهم حسرة ، وأن شيئاً مما أرادوه بالكعبة لم يتحقق حولوا الحرب إلى لون آخر ، وساق النجاشى بقيادة أبرهة جيشاً من الفيلة يتقدمهم فيل ضخم كان ينطح أقوى بناء فينهار ، ودفعه ليهدم الكعبة ، إلا أنه أبى كل الإباء أن يقرب البيت أو يناله بسوء ، وهنالك

---

١ — ناقف الحنظل الذى يدقه فى الهاون أو نحوه فيتطاير غباره ورائحته الى أنفه وعينه فيعطس ويدمع .

وقف قواد الجيش كلهم ذاهلين واجمين ، وزاد من ذهولهم ووجومهم أن طيوراً صغيرة كانت ترميهم بحصا دقيق يخرون به صرعى ، « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسـل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول » . . . ولما سطع نور النبوة ، وارتفعت على المنارات أصوات المؤذنين « الله أكبر الله أكبر » تحول الصراع إلى الإسلام والمسلمين ، وظل النبى صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، راجياً أن تزول عن العيون الحجب ، وترتفع عن القلوب الأغطية ، وأن يدوى نداؤه فى سمع البسيطة كلها ، حتى لا تتخبط فى الجهل ، ولا تتردى(١) فى الهوة ، ولا تنحدر إلى الهاوية ، أو تنغمس فى الرذيلة ، أو تضل القصد إلى سواء السبيل ، فلم يرض ذلك قريشاً التى أرغمته على الهجرة ، وحملته على ترك الوطن ، وساقته سوقاً عنيفاً ، إلى احتمال الشدائد ، وملاقاة العناء ، فذهب إلى المدينة عسى أن يطيب له العيش ، ويستقر به السرى ، ويصفو له الجو ، وتسعد له الحال ، وهنالك أخذ اليهود يتوددون له تودد الذئب ، ويلينون له لين الأفعى ، ويتكشفون له فى كل يوم عن متاعب لا يطيقها ، وعنت (٢) لا يحتمله ، وهوان لا يرضاه على الرغم من معاملته الطيبة ، وأخلاقه الكريمة ، وسياسته الحازمة ، وإغداقه عليهم البر والمعروف ، وفى هذه الحال اضطر إلى أخذهم بالشدة وإخضاعهم بالقوة ومعاملتهم ، بالقسـوة ، وتشتيتهم فى الأماكن ،

---

١ — المتردى الذى يعثر برجله فيقع على وجهه ثم لا يستطيع القيام بعد ذلك فيحصل له الردى وهو الهلاك

٢ — العنت المشقة

وطردهم من الحصون ، وإذلالهم فى الأرض ، وتجريدهم من السلاح ، بعد أن تبين له أنهم يحالفون قريشاً على الكيد له ، والتضييق عليه ، والوقوف فى وجه دعوته . ورجع من صلح الحديبية ليجهز عليهم جميعاً بعد أن أجهز من قبل على بنى قينقاع وبنى النضير ، وبهذه الروح القوية ، وبتلك السياسة الصارمة ، وبذلك البطش الجبار ، عامل «هتلر» اليهود فى الحرب العالمية الثانية ، وآمن بأنه لا يمكن أن يحارب عدواً ، أو ينتصر على خصم ، وهم فى داخل بلاده . يشيعون الفتنة ، ويخذلون الناس ، أو يطعنونه من الخلف ، وكانت نظرته بعيدة ، ورأيه صائباً ، وفلسفته عميقة ، وسيكتب التاريخ أنهم جراثيم شر ، وأحابيل ختل ، وعناوين سوء . وأوكار فساد ، وأن العالم الذى يموج بهم ، والدنيا التى تغلى بحقدهم ، والبلاد التى هم فيها ، سوف تظل مسرحاً للأذى ، ومرتعاً للفساد ، وأنهم سيكونون دائماً أبداً عوامل المرض لهذه البشرية المظلومة المعذبة ...

وأعود بعد ذلك كله إلى الحديث عن الأربعمائة مليون مسلم الذين فرقت بينهم الأماكن ، وباعدت جسومهم المساكن ، وأنستهم رسالتهم المطامع الدنيئة ، والشهوات الحقيرة ، وغفلوا عن إرشاد دينهم الذى يأمرهم بالتواصى بالحق والصبر ، ويضع بأيديهم زمام العالم ليقودوه إلى الأمان والسلم ، والفلاح والخير ، والنور والهداية ، والعلم والمعرفة ، والعمران والتقدم ، فأقول لهم ماذا فعلتم والزمام فى غير أيديكم ، والسيادة لغير دينكم ، والتقدم والعمران عند سواكم ، ولكم فى هذا المجتمع الصوت الخافت !!

معنى الإسلام

وربما اقتضانا هذا الحديث الصاخب ، وتلك الثورة العارمة ،وهذه النغمة المنيفة الحادة التى نكتب بها عن « العروبة والإسلام » وندل بها على مواطن الضعف ، ومزالق الخلل ، ونواحى النقص هنا وهنالك عند أولئك الذين نعنيهم بهذا الصوت العالى أو الخافت . . ربما اقتضانا هذا أن نتحدث لهم عن «معنى الإسلام» حديث خالى الذهن ، ليعرفوا أنهم يعيشون غرباء عنه ، بعيدين منه ، ينتسبون إليه انتسابا مكذوبا ، ويحسبون عليه حسابا مزوراً ، ويعتبرون فى أهله اعتباراً غير صحيح . . والإسلام أو الإيمان أن تشهد ألا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إلى ذلك سبيلا ، والمسلم فيما يقول النبى صلى الله عليه وسلم من سلم المسلمون من لسانه[1] ويده ، والأمة الإسلامية هم أهل الاستجابة لدعوة خاتم الأنبياء والمرسلين . . . وكل هذا كلام أنت لا تجهل حقيقته ، ولا يلتبس عليك أمره ، ولا تخفى عليك قضاياه ومسائله ، إلا أن الذى يخفى عليك كل الخفاء أو بعضه أن هذا الدين وقد جاء به خاتم الأنبياء والرسل ،لم يجيء به ليكون صوتا كبقية الأصوات التى ذهبت أو صيحة كتلك الصيحات التى دوت ، ينتهى غرضها ، ويخفت نداؤها وتقف رحى دورانها ، ولا يصبح العمل بها بعد ذلك إلا صدى مردداً

---

١ — كلمة جامعة لكف الأذى الذى يكون غالبا من هاتين الجارحتين

وحديثاً مكروراً ، إنما جاء به ليكون للبشرية جمعاء ، وللإنسانية كلها ، والأبيض والأسود ، والأحمر والأصفر ، ثم هو لم يجىء به ليعادى الأديان ، ويطارد الإنسان ، ويشيع الشنآن ، ويمكن للزور والبهتان ، بل كان يدعو إليه بالمنطق ، ويناجى به الفطرة ، ويقاوم به النزوات ، ويحارب به الطغيان ، ويكافح به الرذيلة ، ويلامس به الوجدانات والعواطف ، ويهذب به الغرائز ، ويرنى به الطموح[1] ، ويعلم به الخير وقد أعلن من أول يوم أنه منهاج الأنبياء السابقين ، والرسل المتقدمين ، ودعوة المصلحين الأولين «إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داود زبورا ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليما ، رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما ، لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً » . . . فوجب إذن أن تكون قيادة العالم ، وهداية الناس ، وزعامة التاريخ ، قد انتقلت إلى هؤلاء الذين استضعفوا فى الأرض ، ليمثلوا دور الإصلاح الشامل الكامل لهذه الإنسانية التى ظلت قرونا طويلة ترزح من جراء مانالها من عسف وما أصابها من بغى ، وما أحاط بها من فساد ، وما كان يخيم عليها من ظلام جعلها تتخبط تخبط الأعمى ، وتتقاتل تقاتل الثيران ، على أننا حين نحسن الظن بهؤلاء إلى هذا الحد ونضع الزمام بأيديهم . إنما نضعه فى أيد متوضئة ، ونسلمه إلى نفوس طاهرة ، وقلوب مؤمنة ، وجماعة تدرك تمام الإدراك أنها تقوم على التراث الذى خلفه لها منقذ الإنسانية محمد صلى

الله عليه وسلم ، فلا تجد لها مناصاً من أن تكون من جنوده ، وخيله وسلاحه ، ودعاته وهداته ، وعدته وعتاده . .

هل كان حول محمد من قومه … إلا صبي واحد ونساء
فدعا فلبى فى القبائل عصبة … مستضعفون قلائل أنضاء(١)
ردوا ببأس العزم عنه من الأذى … مالا ترد الصخرة الصماء
والحق والإيمان إن صبا على … برد ففيه كتيبة خرساء
نسفوا بناء الشرك فهو خرائب … واستأصلوا(٢) الأصنام فهى هباء
يمشون تغضى الأرض منهم هيبة … وبهم حيال نعيمها إغضاء
حتى إذا فتحت لهم أطرافها … لم يطغهم ترف ولا نعماء

وحين يتخلى الإنسان عن رسالته ، أو يقصر فى واجبه ، أو يتهاون فى القيام بما يوكل إليه من عمل ، فهو الميت الحى ، أو الحى الميت ، لايستحق أن يعيش ، ولا يجدر به أن يكون على ظهر الأرض . . . على أن هذا الإسلام الذى نريد أن نرفع رايته ، ونحكمه بين الناس فيما شجر بينهم ، لانتعصب له عصبية هوجاء ، ولا ندافع عنه دفاع المجانين ، ولا نلفت الأنظار إليه من غير حق ، بل نقول لاهل الأرض كلهم من ترك وعجم ، وشرق وغرب ، وسود وبيض وروس وأمريكان « تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم » . . وفى هذا الدين حل معضلاتكم فى قضايا نزع السلاح ، والحرب الساخنة أو الباردة ، وغزو الفضاء ، وبناء الاستحكامات والقواعد ، وصنع القنابل الصاروخية ، ومساعدة

---

١ — جمع نضو وهو الهزيل الضعيف
٢ — استأصل الداء قطعه من أصوله

الأمم المتخلفة ، وبذل المعونات المشروطة ، والدعوة إلى الشيوعية أو الرأسمالية . والصراع على منابع البترول ، ومناجم الحديد ، لأنه يجعل ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ، وهو دين يضمن لكل فرد حقه فى الحرية والسلام والأمن والطمأنينة ، ويعيش الناس فى جواره سعداء إلى أبعد حدود السعادة ، وليس بعد قول رسوله الكريم « حب لأخيك ما تحب لنفسك » فإن فيها مبادىء السلام والهدوء ، والخير والبر ، والنهوض والعمران ، وكل مايريد الفرد أن يبلغه من الطموح والمجد ؛ والعزة والكرامة ، والرقى والتقدم يوفره الإنسان لغيره كما يوفره لنفسه ويتيحه للجماعة كما يتيحه للأفراد . ويطلبه للأباعد كما يطلبه للأقارب .

ومن المبادىء العامة التى يرشد إليها المسلم أن يعالج صلته بأخيه علاجا لا يعرضها للفتور . ولا يسلمها للجفوة ولا يغيرها بالقطيعة . ولا يخلخلها(١) بالأذى . ولا يهددها بالعداوة . ولا يكدرها بالظلم . فإن كان أخوه هذا جاراً له فى المسكن كان عليه ألا يسىء معاملته أو يكشف سوأته . أو يقلق راحته ، أو يلحق به ضرراً فى نفسه أو فى ماله ، ويقول النبى صلى الله عليه وسلم « مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » ويقرن القرآن الوصية به إلى جانب الأمر بعبادة الله والإحسان إلى الوالدين والاقربين واليتامى والمساكين إذ يقول « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب » ولا يكتفى فى الجوار بالملاصقة حتى يجعل هذا الجوار إلى أربعين داراً من كل جانب . . وإن كان غير جار

---

١ — الخلخلة فى الأشياء اهتزازها لخلل بها

وهو من القرابة والرحم تأكدت الوصية وزادت العناية . وتضاعف الاهتمام « وألو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » ويقول الحديث النبوى عن رب العزة جل جلاله « يقول الله تبارك وتعالى — يوم القيامة — أنا الرحمان وهذه الرحم اشتققت لها اسما من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته » . . . . وإن كان ذلك المسلم غير رشيد بسبب سفه أو جنون أو صغر أقام عليه الوصاية التى ترعى له حقه ، وتطالب له بما له ، وتنمى له ثروته ، وتسهر على تربيته ، وعلى الإنفاق عليه من غير بخل ولا سرف ، أوشح وتقتير ، ويعتبر القائمين على رعاية تلك الأموال هم أصحابها ، الذين يعنيهم أمرها ، ويهمهم شأنها « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما ، وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا » ويضيف الأموال إلى هؤلاء الأوصياء لا لتكون يدهم يد المستبد المتلف الذى لا يسأله أحد ، ولا يحاسبه إنسان، ولكن لتكون يدهم يد الحريص ، ورعايتهم رعاية الرشيد ، وتصرفهم تصرف الحازم ، وصونهم صون الأمين « فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم » وهنالك ترد الأموال إلى أصحابها ، ماداموا راشدين ، ولا يكون التأخير إلا مماطلة ، ولا يكون التوانى إلا عنتا ، وبخاصة مع هؤلاء الأطفال الذين حرموا نعمة المربى ورحمة العائل ، ورعاية الوالد « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا » . . .

والإسلام قبل ذلك كله لا يقذف بالمسلم فى هذا المجتمع — خبط عشواء — يزيد فى سواده ، ويكثر من عدد أفراده ، كأنه يعتبر الكم لا الكيف ، ولكنه إنما يقذف به وهو مطمئن كل الاطمئنان أنه بلغ

القمة من التهذيب ! ووصل إلى الغاية من التربية ، وتسلح بسلاح لا بأس به من الكفاية والاستعداد ، لا بتلك الزواجر المخيفة ، والنواهي الرادعة والوعيد المرعب . والنار ذات الوقود في يوم القيامة . ولكنه يعده أولا إعداداً مبكراً بما يغرس في نفسه من الفضائل، ويهيئه التهيأ الصحيح لرسالة الخير والسلام .

فالتكاليف كالصوم والزكاة والحج والصلاة وترك الخمر والميسر ؛ وعدم الزنا ؛ والنهي عن قتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق ، مع ما فيها من المشقة على المسلم ، تربية للضمير ، وتطهير للقلب ، وسمو بالروح ، وتنمية للرجولة ، وإعداد للمواطن الصالح الذي يتكون منه ومن أمثاله الشعب المتوثب ،والأمة المتيقظة ، والبيئة الكريمة والمجتمع السليم . والموقف الذي يقفه المرء بين يدي ربه خمس مرات في اليوم والليلة في ضراعة الذليل ،وخضوع الضعيف،وانكسار المحتاج واستسلام المهزوم مرددا قول الله جل جلاله«اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم » لا يمكن للمسلم معه أن ينحرف . أو يلتوي عن السنن أو يميل عن القصد . بل ينتهي عن الفحشاء والمنكر ، ويستحضر في فؤاده وهو يقف هذا الموقف أنه كالذرة في الهباء . والريشة في الفضاء وهنالك لا يظلم ولا يطغى ولا يقسو ولا يتكبر ولا تستبد به الأنانية[1] أو يلعب به الهوى . أو يستولي عليه الطيش : أو تأخذه العزة بالإثم ولهذا يقول صلى الله عليه وسلم في الوضوء الذي يسبقها ، والطهارة التي تتقدمها مامضمونه « أرأيتم لو أن نهراً على باب أحدكم فهو يغتسل

---

١ — الأثرة وحب الأنسان لنفسه فقط

منه كل يوم خمس مرات . . هل يبقى عليه شيء من الغبار والوسخ ، وليس الغبار والوسخ هو هذا التراب الذى يعلق بالجسم. أو العرق الذى ينضح به الجلد ، ولكنه هذا الطبع الكريه، والخلق المرذول ، والسلوك السيء ، والتصرف الأهوج ، والمعاشرة البغيضة ، والمعاملة الممقوتة . ومثل ذلك الصوم الذى يعلم الصبر ، وينمى الجلد ، ويربى الضمير ويعلن للإنسان أن هذا الطعام الذى يتكالب عليه الناس ، ويتصارع عليه البشر ويتقاتل من أجله الخلق ويتعادى بسببه الأخوة ، يستطيع المرء أن يستغنى عنه إذا اعتصم بروحانيته، والتجأ إلى سمو نفسه ، وهاجر إلى الله بقلبه ، وحارب دواعى الشهوة عنده . . . . وهكذا حديث التكاليف لايخلو عن مقاومة لنزوة الباطل ، وجموح النفس وانحراف الهوى ، وضلالة الرأى ، وحيرة الفكر واضطراب العقل ، ولجاجة الطيش لأنها منارة رشد ، ومعالم صواب ومشاعل هداية : تتعهد المكلف بالكمال والتثقيف ، والسلوك والأدب ، والتربية والتهذيب وهو إذا أخذ بها حق الأخذ، وامتثلها حق الامتثال، خرج من بوتقتها وقد صهرت نفسه ، وصقلت حسه . .

وهذا الإسلام الذى عرفنا من أوامره ونواهيه ، وتكاليفه وواجباته ، أنه لايبغى إلا أن يقيم المجتمع المتماسك ، والبيئة السليمة ، والهدوء الشامل ، والأمان العام ، والصفو المحبب والسعادة التامة ، والحدب الدائم ، نراه يسلك لذلك كله أقوم[1] الطرق ، وأمثل السبل وأحسن الوسائل . . . إذ يبتدى بالفرد فيأخذه بالنصح . ويتعهده

---

١ — أمثل وأعدل

بالإصلاح ، ويواليه بالتقويم ، ويرعاه بالموعظة الحسنة ، بمثل قوله « إدفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » وقوله « ولا تبغ الفساد فى الأرض » وقوله « ولا تكن من الغافلين » وقوله « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » وقوله « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » وغير ذلك وذلك مما يهذب شعوره ، ويوقظ ضميره ، ويجعله بحق لبنة صالحة فى هذا المحيط الصاخب الذى لاغنى له عن الحياة فيه . . . ثم يسمو بهذا الفرد بعد تلك المرحلة ، ويهتم به اهتماما آخر ، فى هذا المحيط الجديد الذى ينتقل إليه ، فينصح له بالزواج « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج » . . . وباعتبار أن الزواج معنى دينى عمرانى ، واجتماعى إنسانى ، أكثر منه شهوة تطلب ، أومتعة ترجى ، يقول الرسول الكريم « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » ويقـــول كذلك « إياكم وخضراء الدمن(١) ، قالوا وماخضراء الدمن يارسول الله ؛ قال المرأة الحسناء فى المنبت السوء » . . . وإذا ما صار الزوج أباً لأولاد كان عليه أن يعدل بينهم فى الرضا والغضب ؛ والعسر واليسر ، والبذل والإنفاق ، والهشاشة والحب ، والعناية والاهتمام ، وأن يعامل زوجتـه المعاملة الكريمة ، ليرى هؤلاء الأولاد أن من والديهماخير قدوة ، وأحسن مثال . . . وحين ينتهى به إلى هذا الحد ، ويرتبط بمن حوله هذا الارتباط ، يؤدبه بأدب آخر ، رجاء ألا تلفظه البيئة ، أو تنقطع آصرته عن الجماعة ، فيقيم له الحدود الرادعة إذا زنى أو سرق أو قتل أو شرب الخمر . . وهى حدود تبدو فى ظاهرها عنيفة

---

١ — واحدها دمنة وهي آثار الديار بعـــد نزوح أهلها وهي عادة مكان الروث والبعر والغائط والنبات الذى ينشأ فيها ينمو ويزدهر

غليظة قاسية فى معاملتها لابن آدم الذى كرمه ربه ، وحمله فى البر والبحر ، ورزقه من الطيبات ، وفضله على كثير من سائر مخلوقاته .. إلا أن الذى يدقق النظر فى هذا الإنسان الذى يتعدى حدود الله ، ويجرؤ على اقتحام هذه الحواجز ، وينتهك الحرمات هذا الانتهاك ؛ يرى أنه أشبه بالعضو الذى أصابه السرطان ولم يكن هنالك بد من قطعه حتى لا يفتك بالجسم كله . . وإذا قيس هذا بما تفعله الدول المتمدينة مع مدمنى[1] الإجرام ، ومعتادى الرذيلة ، ومرضى الأخلاق ، حيث تحرم عليهم التناسل ، وتعزلهم عن المجتمع عزلا تاما ، آمنا أن الإسلام من الرأفة والرحمة بمكان بعيد . . .

والإسلام الذى يتعهد المسلم هذا التعهد ؛ ويربيه هذه التربية ، وينير له طريقه فى الحياة بتلك المشاعل ، ويوجهه إلى الخير هذا التوجيه ، ويصل ما بينه وبين البيئة بذلك الرباط ، لا يرضى لأهله أن يأخذوه قضية مسلمة ، أو يخضعوا له خضوعا أعمى ، أو ينزلوا على إرادته نزول الصبى على إرادة والده من غير نظر إلى الحقيقة ، أو فهم للمغزى ، أو اقتناع بالدعوى ، أو إذعان للدليل . . . وسياسة الرسول صلى الله عليه وسلم فى التبليغ ، وخطته فى نشر دينه ، وجهاده لإعلاء كلمة الله ، تدل كلها على أنه لم يسلك العنف فى حمل الناس على اتباع ما جاء به ، واعتناق ما كان يدعو إليه . وهذه آية واحدة من الكتاب الحكيم ، والذكر المبين ، تنادى ـ وحدها ـ بأن العقيدة لم تتسرب إلى النفوس عن طريق القسر ، أو تتمكن فى القلوب بسبب التسلط ، أو تتركز فى الأفئدة

---

١ — الادمان على الشيء تعوده وعدم امكان التخلى عنه

بقوة التغلب ، وتلك الآية هى قوله ـ تباركت آلاؤه ـ « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » وهى تدل دلالة لا غموض فيها على أن وظيفة الداعى لم تتجاوز البيان باللسان والبرهان « ما على الرسول إلا البلاغ» ولهذا يقول الله فى كتابه « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » ويقول إنكاراً لهذا الأسلوب ، ومقتا لتلك الطريقة « أنلزمكموها وأنتم لها كارهون » لأن الكره لا يكون يقينا ، والقهر لا يكون دينا . . . . والسبب الأصيل فى هذا أنه يرى أن مركز القيادة الفعالة هو القلب ، تتدفق منه القوة وتصدر عنه الإرادة ، وكل قوة لاتجىء منه هزيلة، وكل إرادة لاتصدر عنه فاشلة . وكل عمل لا يكون بوحى يوحى به خائب ، ونرى هذا المبدأ واضحا فى الآية الشريفة « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن » إذ يقيم السلوك والتصرف ، والخير والشر ، والحركة والسكون ، والقول والفعل ، والوعد والوعيد ، على دعامة [1] واحدة ، هى اطمئنان القلب ، وميل النفس ، واستجابة الفؤاد ، ويقول حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم « إن فى الجسد مضغة [2] إذا صلحت صلح الجسد كله . . ألا وهى القلب » تنويها بهذا المبدأ ، وإعلانا لذلك الدستور ، وينعى القرآن على أولئك الذين تصدر عنهم الأعمال من غير يقين ، وتجىء منهم التصرفات من غير اطمئنان ، إذ يقول « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » . . .

---

١ — الدعامة ما يعتمد عليه البناء

٢ — قطعة الدم التى تتحول الى لحم يمضغ

ولأن لاستقرار المعانى فى النفوس هذا الاعتبار فى تقدير الشريعة الإسلامية كانت الرسالة فى أول أمرها بمكة لاتقوم إلا على التأمل والتفكير ، ولاتدعو إلا لتطهير القلب من الخرافات ، والنأى به عن الخزعبلات (١) ، والسمو به عن أن يكون قنيصة لوهم باطل ، أو رأى زائف ، أو اعتقاد فاسد ، أو سراب خادع ، وظل محمد صلى الله عليه وسلم ، يجادل بالحجة ، ويجابه بالمنطق ، ويدعو بالتى هى أحسن، معتمداً على النظر الصائب، والفطرة السليمة ، آخذاً بزمام العقول إلى ملكوت السموات والأرض ، فى مثل قوله جل جلاله « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شيء موزون وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين ، وإن من شيء إلاعندنا خزائنه ومانتزله إلا بقدرمعلوم، وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءفأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ، وإنا لنحن نحي ونميت ونحن الوارثون ، ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين ، وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم » وفى مثل قوله أيضاً « وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولاحبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » وما يشبه ذلك كله من آيات كونية ، ودلائل فطرية ، وشواهد بديهية ، وآثار إلهية ، كلها تملأ النفس بالإيمان ، والقلب باليقين ، وهكذا إلى أن بلغت العقول سن الرشد ، وتجاوزت تلك المنزلة من الإدراك ، فكان التشريع للأحكام ، والتكليف بالواجب ، وهو تكليف غير مرهق للنفس ، أو

---

١ — الخرافات والأكاذيب

نآب عن الذوق ، أو متجاوز للطـاقة ، أو خارج عن حدود العقل .
يقترن دائماً أبداً بحكمة التشريع ، إلا أن هذه الحكمة قد يصرح بها
تصريحاً لا مواربة فيه ، ولا إجمال معه ، ولا غبار عليه ، كقوله فى
الخمر « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر
والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » . وكقوله
فى الزكاة « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » . . وكقوله فى
التنفير من الزنا والابتعاد عنه « إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا » . .
وكقوله فى الترغيب فى الجهاد « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله
أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله
ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم » . . . وكقوله فى تعنيف
الأوصياء « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم
ناراً وسيصلون سعيراً » . . ويصـــور حالة آكلى الربا يوم القيامة
فيقول « إن الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه
الشيطان من المس » ويقول « وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال
الناس فلا يربو عند الله » ويقول فى عدم تفضيل أحد على أحد بشىء
من الميراث « آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً » . . .
وهكذا ينير الطريق . ويكشف الغامض ، ويزيل الغشاوة ، ويزيح
الحجب ، ويوضح الحق ، ويرفع الإبهام ، فلا يدع فى قلب المسلم شكاً ،
ولا يترك فى فؤاده ذبذبة ، ولا يجعل فى نفســـه اضطراباً ، أو يحدث
فى يقينه تردداً ، وقد يترك بيان الحكمة لتضارب الفهوم ، واصطراع
الأفكار ، وتباين الآراء ، كما فى فريضة الصوم التى يقول فيها « وأن
تصوموا خير لكم » تاركاً هذه الخيرية للمسلم يقدرها كما يرى ، ويكيفها

بالكيف الذى يبدو له ، وتلك الناحية المغلقة التى لا يكون فيها تفصيل، ولا تذكر معها علة ، فيها امتحان للمؤمن ، وابتلاء للنفس ، واختبار للعقيدة ، وإغراء إلى أبعد الحدود بالإخلاص الذى هو غاية ما تكون العبادة ، وأقصى ما يكون الإيمان . . . والمسلم بعنوان كونه عبداً لله لا يسأل عن أمر ، ولا يبحث عن تكليف ، وحسبه شرفاً أن الله يناديه ويطلب منه . .

وهان على الخطب فى جنب حبها　　وقول الأعادى إنه لخليع
أصم إذا نوديت باسمى وإننى　　إذا قيل لى يا عبدها لسميع

الإسلام قوى

والإسلام فى علاجه للمشاكل ، ومداواته للجراح ، وقضائه على الشرور ، ووقوفه فى وجه الفساد ،يستعمل الهوادة والرفق ، والأناة واللين ، والحلم والهدوء ، فتراه – مثلا – يتحدث عن المرأة باعتبارها زوجة حديث الحنان والعطف ، والإنسانية والذوق ، والأدب والاحترام ، حتى لا تكون الصلة بها عرضة للقطيعة ، وهدفاً للانفصال أو بوأ للإساءة والأذى ، والإيلام والإرهاق ، فيقول « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما » وهو بهذا يهيء الجو للحب ، ويمهد الطريق للترابط ، ويذلل ما عساه أن يكون فى سبيل الزوجين من أشواك ... وإن لم يجد ذلك كله وأراد الرجل أن يرفع السوط أو يمسك العصا ، أو يستعمل القسوة ، قلب له صفحة الماضى ، وأثار فى نفسه ذكريات التاريخ ، إذ يقول « يا أيها الذين آمنو لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ، ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ، وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً ،وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ، وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً » ووراء

أفضى بعضكم إلى بعض ، وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ، المياه الصافية ، والهواء البليل ، والجنة التى تجرى من تحتها الأنهار ...

ويعاتب أهل المدينة عتاباً رقيقاً فى تخلفهم عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ، وهم الذين هاجر إليهم واحتمى بهم ، واطمأن إلى جوارهم ، وأنس لقربهم ، وزادت ثقتـــه فيهم ، والمروءة العربية تقضى بنصرة المولى ، وعزة الحليف . وتقوية جانب القريب ، والوفاء بالعهد ، والتفانى فى بذل المعونة للجار ، وهم مع هذا آمنوا عن طواعية ، وأسلموا بالرغبة ، واعتقدوا باليمين ، والأمل فيهم أن يكونوا سيوفاً من سيوف رسول الله يدافعون عنه ، ويرفعون رايته ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه(١)، ذلك بأنه لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ؛ ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا(٢) يعملون ، وهو خطاب العاتب الآمل ، والحبيب الراغب ، يستل به السخيمة ؛ ويبذر به بذور الود ، ويدعو به القلب الجامح إلى الرضا والارتياح ، والصفاء والحب ، واستئناف علاقة طيبة ، ورباط وثيق ، وتعاون صادق ؛ وصراحة لا تعرف الالتـــواء والغموض ...

---

١ — أى لا يفضلوا أنفسهم عليه ، أو لا يميلوا عنه ، أو ينفضوا من حوله

٢ — الحقد والكراهية والغضب

ويحث على الإنفاق والبذل ؛ ودفع كابوس الحاجة عن البائس ، ومد يد العون للمعوز ، وتفريج الكربة النازلة بساحة الإنسان ؛ فيسمى ذلك قرضاً ؛ ويجعل المدفوع له المال هو الله الذى خلق السماوات والأرض ، وهو — كما ترى — ترغيب يستميل الشامس ويسلس جماح الأبى ؛ ويمسك بقياد المستعصى الشارد « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون » . . . ولسنا نريد أن نستقصى الشواهد على ذلك ؛ ولا المواطن التى يلين فيها هذا اللين ، ولا المواضع التى يختار فيها ذاك الأسلوب ؛ وإنما أردنا بهذا أن نسوق لك دليلا من أدلة قوته الراسخة وثقته فى نفسه بالحق والصدق ، والخلود والبقاء ، والتمكن والاستقرار لأن العنف سلاح العجزة ؛ والشدة وسيلة الحمق ، والبطش والإرهاب حيلة الذين يفقدون الحجة والمنطق .. ولعل هذه الثقة إنما جاءت من ناحية كونه يساير الفطرة والغريزة ؛ ويستجيب للميول والطباع ، حتى لا يكاد الإنسان يجد فيه شيئاً نابياً ؛ ولا أمراً غريباً ؛ ولا حكماً يجافى الطبع ، أو يتنافى مع السلوك . . . فأنت إذ تنظر إلى اعتباره جريمة الزنا منكراً من التصرف ؛ وفاحشة فى العلاقات الإنسانية ؛ لا تشك فى سلامة الاعتبار ، وصحة هذا التقدير ، وصواب هذا الحكم ، لأن للأعراض عند الناس منذ الجاهلية حرمة وغيرة ، وثورة وغضباً ، وحفاظاً وصوناً ، ودفاعاً وحرصاً ، وحمية وإباء ، وبذلا وفدية يريقون فى سبيلها الدماء ، ويخوضون الحرب ، ويركبون الصعب ، ويهتكون حجاب الشمس ، وإبقاء على النفوس من الضياع . وعلى الأمن من أن

يذهب ، وعلى السلامة من أن تطيح بها الطوائح ، وعلى البشرية من أن يختل نظامها ، وعلى الوجوه من أن تراق دماؤها ، كان هذا الاعتبار الحكيم ...

وتنظر — كذلك — إلى قطع يد السارق أو رجله « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالا من الله » فيهولك هذا الصنيع . ويزعجك ذلك العنف ، وتفزعك تلك الوحشية ، وتقول — بينك وبين نفسك — أهذا هو الإنسان الذى سخر الله له البر والبحر ، والهواء والفضاء والنار والبخار ، وجعل لهما فى الأرض جميعاً يناله التشويه ، ويصيبه العطب ، ويقضى عليه القانون ، ويعتريه ذلك العجز باسم الشريعة ، وبعنوان التهذيب ، أو بحجة الإصلاح ، والله يعلم أنه صار عالة على المجتمع ، ونقطة سوداء فى وجه المدنية ، ولكن الإسلام الذى يأخذ من المسلم زكاة ماله ليكون المأخوذ تطهيراً له من الأوساخ ، وبركة موفورة فى الباقى ، وتقوية للوشائج بين الغنى الدافع والفقير الآخذ . يفعل هذا بالمعتدى الأثيم ردعاً لغيره ، وموعظة لسواه وتطهيراً للمجتمع ، وعملا على السكينة والسلام ، ومحاربة للبطالة واكتساب المال من غير وجوهه المشروعة « والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » ...

وتنظر — بعد هذا وهذا — إلى قضائه فى النفس بالنفس والعين بالعين ، والأنف بالأنف والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، وإلى « أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » فتجد فلسفة العمران فى أعمق

جذورها ، وسياسة الملك فى أدق فصولها ،وعبقرية الحكم فى أوضح أصولها ، ويخطر بالذهن أن بعض الخلفاء قتل جماعة فى واحد لأنهم ساهموا فى إراقة دمه ، وإزهاق روحه ، والله لو أن أهل صنعاء اشتركوا جميعاً فى قتله لقتلتهم كلهم فيه ، ولم أستثن أحداً ... وذلك لأنهم كانوا يؤمنون أن الحزم غنم كله ، وأن الصرامة كياسة وسياسة ، وأن الشدة فى أخذ المعتدين صلاح للرعية « ولكم فى القصاص حياة » وهو رأى لو أخذ به الآن عصرنا الحاضر ، ومعسكر الحرب الباردة ، لساد النظام ، واستقر الأمن ، واطمأن الناس ، وكان على الأرض السلام والمحبة .

وبهذا الذى قدمناه لك تزداد يقيناً بأن هذا الدين الذى نحدثك حديثه صالح لكل زمان ومكان ، لأنه يساوق الفطر ، ويساير الغرائز ولا يتعارض مع المصالح ، ولا يختلف مع الطبائع . ولا يرسم خطة ؛ ولا يدعو إلى عمل ، أو يحث على أمر أو ينادى بمبــدأ . أو يكلف بفريضة ، أو يرشد إلى غاية ؛ من غير أن يكون وراءها خير مجلوب ؛ ونفع مكسوب وسعادة مرجوة أو شر يستدفعه ؛ وأذى يطارده وفساد يمنعه ؛ وهكذا يستقيم حال الناس ويصلح أمرهم ويعتدل شأنهم بتحصيل المنافع ودرء المفاسد ، فإن لم تكن دســاتيرهم الموضوعة . وقوانينهم المشروعة ؛ وكتبهم المنزلة . على هذا الطراز فهى غير صالحة للزمان ولا للمكان ... ولا ينتهى تفكير الفلاسفة . ولا رأى ذوى الرأى . إلى خطة مثلى فى السياسة . أو نظرية عظمى فى العمران . أو سلوك قويم فى الأخلاق . إلا وهو وميض من شعاع هذا الدين . أو قبس من نور تلك الشريعة . أو لمحة من لمحات ما أنزل الله على رسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ...

وللاسلام فى تشريعه خطوط واضحة ، وملامح بارزة . يستطيع الإنسان أن يدرك منها الفرق بين حكمة اللطيف الخبير ، وقصور الآدميين وعجزهم ، وعـلم علام الغيوب ، وجهل البشر وعدم إحاطتهم ، لأنه سبحانه يلاحظ فى تشريعه وراء كونه تهذيبا وتربية ، وتقويما وإصلاحا ، أنه تخطيط ناجح لوجود المجتمع السليم . والبيئة الصالحة ، والأمة الناهضة ، أو الجيل الصاعد ـ على حد التعبير الجديد ـ أما القوانين الموضوعة فإنها لا تهدف إلا لحمل النـاس بالعنف والتسلط ، والرهبة والقسر ، على أن يخلقوا الجو الصالح ، والسلام الدائم ، من غير أن يكون ذلك كله منبعثا عن وجدان المكلف ونفسه . وضميره وحسه ورغبته وإقباله، لذلك تتعرض هذه القوانين للاهتزاز ، وتتهدد بالعواصف وتتزعزع بالتيارات . ويعتريها المحو والإزالة ، والسخط والغضب . والنقد أو التجريح ، والطعن واللمز ، والازدراء والاحتقار « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً » . .

وفى الوقت الذى تعنى قوانين السماء بالثواب والعقاب ، والترغيب والترهيب ، تعنى قوانين الناس بالعقـاب لا الثواب ، وبالترهيب لا الترغيب . وقد دل علم النفس على أن لاجتماع الأمرين أهميتـه ، ولا قران الحالين قيمته . فإن التربية السليمة هى التى تلاحظهما على السواء . وتستخدمهما ـ معا ـ فى معالجة الأدواء . لذلك ينظر الشعوب إلى القوانين على أنها عدو كالح ، أو بغيض كاشح ، يتحينون الفرصة للتمرد عليه . وعدم النزول على إرادته .

والقوانين الإلهية تتعهد المرء بالرعاية فى نومه وصحوه ، وصحته ومرضه . وغناه وفقره وظعنه وإقامته وفى أسرته وبيئته ، وطفولته

وهرمه ، أما القوانين التى يضعها ابن آدم فإنه لا يلاحـــظ فى وضعها إلا علاقة الإنسان بالإنسان فى ذلك المجتمع الذى يضمه بحكم المصادفة الطارئة .والفرصة المتاحة ـ وقوة الإسلام وراء هذا مستمدة من القرآن الذى حاربه خصومه بكل سلاح . ونازلوه فى كل ميدان . وحاولوا طمسه[1] بكل أسلوب . ورموه بكل نقيصة . ونسبوا إليه كل تهمة وعارضوه بكل بيان . وقاوموه بكل منطق . وغمزوه بكل سنان ، ووقفوا له فى كل طريق . فلم يطعن ذلك فى قوته ولم يضعف من حجته ولم يطفئ من شعلته .ولم يبطل من دعوته ولم يسقط من هيبته . ولم يذهب من عزته . ولم يحوله عن القصد .ولم يثنه عن الغاية . بل مضى يسخر من الزمن . ولا يعبأ بالأيام والليالى .ولا يلتفت أبداً إلى الوراء، ولا يحسب حساب مؤامرة تدبر له . أو عراقيل[2] تقف فى سبيله . أو عواصف تهب فى وجهه . . . والتاريخ يدلنا على أنه ظل شامخا كالجبل . هادراً كالموج . صارخا كالأسد . عاصفا كالريح ، منيراً كالشمس . وقد اشتغل بدراسته الناس . واهتم بتقليب صفحاته العلماء . وعنى بالحديث عنه والتفكير فيه : الأسود والأبيض . والأصفر والأحمر . وبهذا صار كتاب الزمن . ودستور الحياة . وطبيب البشرية . ومفتاح الخير للعالمين أجمعين . . .

---

١ — محوه وازالة معالمه

٢ — عقبات تمنع من المضى فى سبيله

الإسلام لا يحب الظلم

فى مقدمة ابن خلدون فصل بعنوان «الظلم مؤذن بخراب العمران» وفى القرآن الكريم «وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم» وفيه - أيضا - «إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون» وفيه «ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى» والآيات التى تذكر فيها كلمات الصدق والحق كلها تنفير من الظلم وهى إلى جانب ذلك أمر بالعدل، وترغيب فى الإنصاف، وتوجيه رشيد إلى أن تقوم المساواة والمحبة والصدق والحق والعدالة بين الناس مقام القانون . . وفى الحديث النبوى على صاحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم «الظلم ظلمات يوم القيامة» . . . وروى أن كسرى اتخذ لابنه مؤدبا يعلمه ويهذبه فلما بلغ الولد الغاية فى الفضل والأدب استحضره المؤدب ذات يوم وضربه ضربا وجيعاً من غير جرم ولا سبب فحقد ذلك الولد على المعلم، وتغيرت نفسه منه، وتمنى لو يتيح الله له الفرصة التى تمكنه من أخذ ثأره من هذا المعلم الظالم القاسى . . ولما دارت الأيام ومات أبوه وتولى الملك بعده وكان معلمه هذا لا يزال على قيد الحياة استحضره وعنفه تعنيفا مريرا على ضربه إياه من غير ذنب، وإيذائه له من غير جريرة، وتنغيصه عليه من غير سبب، وسأله بلهجة المتهدد المتوعد،

عما حمله على تجاوز حده معه ، فقال له المعلم علمت ـ أيها الملك ـ أنك تنال الملك بعد أبيك ، وكان أخوف ما أخافه عليك الظلم ، فأردت أن أذيقك طعمه لتنفر منه ولتبتعد عنه ، حتى يطيب عيشك ، ويسعد حالك ، ويتمكن سلطانك ، وتتعلق بك رعيتك ، وهنالك شكره الملك وأجازه ، واستحسن منه ذلك الحـــزم النادر ، والكياسة العظمى ، والتربية الصحيحة . .

وفى الحق أن الذى يتأمل تعاليم الاسلام ـ فى جملتها ـ سواء منها ما كان متعلقا بالفرد مستقلا عن غيره ، أو مرتبطا بسواه ، وما كان متعلقا بالجماعة كبيئة أو أمة يرى أن هذا النظام الذى تسلكه ، والدستور الذى ترسمه ، والتخطيط الذى تضعه فى التهذيب والأخـلاق ، والتربية والتعليم ، والنهوض والعمـــران ، والأمن والاستقرار ، ينتهى إلى أن للناس جميعا معالم إذا ساروا على هديها ووقفوا عند إرشـــادها ، واستضاؤا بنورها ، واستعانوا بما تقدمه لهم من توجيه ، وما تأمرهم به من تكليف ، وما تعودهم عليه من سلوك ، لا تجعل على ظهر البسيطة مثقال حبة خردل من ظلم ، ولا ذرة من فوضى ، ولا طيفا لعدوان ، ولا ظلا لاغتصاب حقوق ، أو انتهاك حرمات ، ولذلك يقول سبحانه « إن الله لا يظلم الناس شيئا ولـكن الناس أنفسهم يظلمون » ولعلك تعجب كيف إن الانسان يظلم نفسه ، فإننا نعلم أنه يظلم غيره لا نفسه ويعتدى على أخيه وذويه ، وعشيرته وأهله ، وبخاصة حينما يحس من سواه بالضعف ، ويشعر ممن معه بالخنوع[1] ، ويأمن من بيئته بالاستكانة

١ـــ الذلة والاستكانة والخضوع

ويطمئن إلى أن من حوله يقابلون تطاوله بالتسليم ، ويلاقون عدوانه بالرضا، ويأخذون تصرفه بالإغضاء والتغاضى ، ولكن القرآن الكريم جرى فى كثير من الآيات على أن يضيف ظلم الظالم إليه ، ويبرزه بصورة ما يعود وباله عليه ، ذلك لأنه يعتبر أن روح المؤمن التى بين جنبيه أمانة لديه ، وقيامه عليها ، وصيانته لها ، وحفظه إياها ، وعنايته بها واجتهاده فى صلاح أمرها ، وعدم تعرضها للهلاك ؛ أداء الأمانة ، أو التزام للصدق ، والتجاء إلى الحق ، ورعاية للعدل « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ».. وحال المكلف الرشيد -حينئذ- حال الذى نصح له الطبيب بعدم تناول الطعام الوبيل[1]، أو الغذاء الثقيل ؛ أو الشراب المهلك ؛ فإن مخالفته للنصح ؛ وأخذه من الأشياء مايضره ؛ ظلم لنفسه ، وعدوان على روحه ووقوف على حافة الهاوية ، والمتنبى يقول . .

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

وهو من شيم النفوس لأن ابن آدم فى طبعه العلو والتسلط ، والقهر والغلبة والتمكن والسيطرة ، وظلمه لغيره ، واعتداؤه على حقوق سواه ، إرضاء لهذا النزوع الكاذب ، والميل الطائش ، والهوى الضال والرغبة الجامحة ، ونحن من ناحيتنا لا نفسر تلك الشيمة إلا على أنها من مركب النقص، والمسلم الذى تكمل نفسه بالفضل، وتتهذب غرائزه بالتربية ، وتتسامى روحه بالامتثال ، ويتقوم طبعه بالأدب ، ويطهر قلبه بالدين ، ويعتدل سلوكه بالتقوى ، لا يرى فى الرذيلة إلا أنها شبح

---

١ ــ الثقيل على المعدة

مخيف . أو عدو لدود أو منظر كالح ، أو أذى محقق ، أو شر مستطير ، يتجنبها لسلامة نفسه ، وطهارة حسه ، ويعاف الدنو منها عيافة المزدرى المحتقر . . . وكذلك لا يكون الانحراف عن السنن ، والالتواء عن القصد إلا نتيجة لخلل فى الأخلاق .أو مرض فى الطباع ، أو اعوجاج فى الميول والسلوك ، والرجل الذى تصيبه جراثيم الأمراض . وتحتال عليه عوامل الشر فى ناحية من نواحى نزوعه الإنسانى . هو ذلك الذى ينحرف أو يقترف ، ويكذب أو ينافق ، ويهتك أو يفتك ، ويسرق عرضا أو يسرق مالا . ويغتصب حقا أو يجحد دينا . ويخون جاراً أو يعتدى على كرامة صديق . . . ولذلك يقولون .

لا يكذب المرء إلا من مهانته أو معدن السوء أو من قلة الأدب

والظلم الذى يحدث من الناس إلى الناس تتجاوز آثامه الغاية .وتصل مضاره إلى النهاية ، حينما يكون عدوانه واقعاً على الجماعة ، أو متناولا لشعب من الشعوب ، ولهذا كان من المستعمرين أشد شناعة ، وأكثر فظاعة ، وأبشع هولا ، وآلم وقعاً ، لأنه عدوان على أفراد ، واغتصاب لحقوق مئات وآلاف من الآدميين . حرمهم الظالمون من نعمة الحرية والحياة . . والإسلام فى الوقت الذى يحارب الظلم والظالمين ، ويشدد النكير على الباغين من أولئك المستبدين المتسلطين ، ينفث فى النفوس بمبادئه وآدابه ، وهديه وتقويمه ، وتشريعه ودستوره ، العزة والإباء ، والسخط على الحيف ، والنفور من العبودية ، والحرب الدائبة لأى انحراف يبدو من كبير أو صغير ، وقريب أو بعيد . . . وإذا كان لقوم من الناس أن يناموا على حسك السعدان ، أو يغمضوا عيونهم على القذى ، أو يبيتوا على الهوان ، فلا يصح أن يكون هذا من جماعة

آمنت بالرسول ، وأخذت بالشريعة ، ونهجت نهج القرآن ، وقرأت من آياته « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » . . . ومن العزة التى أرادها لهم والكرامة التى جملهم بها ألا يردوا موارد الريبة ، أو يغشوا مواطن الشبهة ، أو يعيشوا بنفوسهم فى دنيا المذلة والهوان ؛ ولهذا حارب الاسترقاق ، وقضى على النخاسة ، ولم يرض أن يكون الآدمى سلعة تجارية ، ولا صفقة تباع وتشترى ، ودعا محمد صلى الله عليه وسلم إلى فك الرقبة : وعتق النسمة ، وحرية العبيد فى الوقت الذى كان الرومان والفرس يجعلون لهم أسواقا ، ويكبتون لهم أنفاسهم ، ويضيقون الخناق عليهم ، ويعاملونهم أسوأ معاملة ، ويستخدمونهم أحقر استخدام ، متناسين أن الناس كلهم لآدم وآدم من تراب . . .

ومن عزة الإسلام للمسلمين، وسموه بنفوسهم ، وارتفاعه بأقدارهم وحيلولته بينهم وبين هوان الشأن ، وتفاهة الحال ونزول المستوى ، حثه لهم على الكسب ودفعه لهم إلى السعى ، حتى لا تذلهم الحاجة ؛ أو ترخص قيمتهم المتربة [1] ، أو تبتذل آدميتهم بالسؤال ، وهذا هو نداء محمد العظيم ، وأدبه الكريم وإرشاده الحكيم ، وحديثه القويم « اليد العليا خير من اليد السفلى » وهو وإن كان يقصد — أولا — إلى أن يكون المؤمن فى مكانة السيد ، ومنزلة المترفع . وموضع الباذل لا المبذول له ، أو فى الأفق الذى منه يعطى لا أن يأخذ ، يوحى بعنوان « العليا » إلى كل خلة من خلال الخير ، وكل خصلة من خصال السؤدد وكل معنى من معانى الرفعة ، لأن هذا الدين لا يرضى لتلك الأمة

---

١ — المترب الفقير الذى التصقت يده بالتراب

إلا أن تكون بما أدبها به، وغرسه فيها، وعلمها إياه خير أمة أخرجت للناس ». . واعله بقوله غليا وسفلى يصور حالين متقابلين، ووصفين متضادين، ومنهما يتبين للمسلم الذى يعلم أن شريعته تأبى عليه الدنية، ولا تحب له الهوان، ولا تقره على الضيم، أنها تعلمه كيف يكون من أهل العزة والإباء، والكرامة والشمم، والترفع عن الدنايا، والهرب من وجوه الإسفاف والانحدار، والخسة والضعة، والنزول إلى المستويات الحقيرة، لا فى الغنى والفقر، والإعطاء والأخذ، ولكن فى كل ماهو علو وتمكين، وسمو ونبل، وطموح ومجد، وسبق ونجح ونهوض وتقدم، ولذلك فإنه مع جعله الزكاة من دعائمه الخمس، وأركانه التى يقوم عليها، ودعوته المسلمين إلى التصدق والبذل، والانفاق والبر، والمعونة والإحسان، يرى أن تلك الأموال المدفوعة والصدقات المأخوذة، أوساخ لايرضى بها أصحاب النفوس العالية، والهمم الكبيرة، والآمال البعيدة ، ويقول الحديث الشريف « لأن يأخذ أحدكم حبله فيذهب إلى الجبل فيحتطب فيبيع خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » . . . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يرى الرجل ذا منظر وهيئة، فيسأل أله حرفة تغنيه عن سؤال الناس، فإن تبين له أنه لا حرفة له، ازدراه الزراية كلها، واحتقره احتقاراً هائلا، ونصحه بالعمل قائلا « لايقعدن أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول اللهم ارزقنى وقد علم أن السماء لاتمطر ذهبا ولا فضة » . . . وفى ترغيب الإسلام فى العمل، ومحاربته للبطالة، دليل واضح على أنه لايرضى لأهله إلا الوضع الكريم، والمستوى العالى، حتى فى احتراف الحرفة، واختيار الصنعة، لايحب إلا أن يختار الرجل أشرف الأعمال

وقد استنبط العلماء من قوله صلى الله عليه وسلم «كسب الحجام خبيث» أنه لابد للمسلم أن يكون عمله نبيلا ، وأن تكون حرفته كريمة ، وأن تكون صناعته غير مزرية بنفسه ، أو نازلة بقدره ، أو مسقطة لهيبته لأن ذلك يتنافى مع اختيـــاره للخلافة ، وتفضيله بالعقل ، وتميزه بالتكليف .. . وفى تاريخ الرسل مايدل على أنهم كانوا أسبق الناس إلى العمل ، وأكثر الخلق ميلا ، إلى السعى فى الارض، والانتفاع بما أودعه الله فى الكون من أسرار أوما جعله فيه من خصائص ، إلى جانب ما كان لهم من صناعات كالحياكة والحدادة والنجارة والزراعة . . وقد أخبر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أنه كان يرعى الغنم ، وأنه مامن نبي أرسله الله قبله إلا رعى الغنم . . ولأمر ما كانت التكاليف الشرعية عملا وحركة أكثر منها سكونا وسكوتا لتدل من طرف خفى على أن هذا الدين لايعنى بالسلبية ، ولا يعترف بالخمول ، ولا يؤمن بالنوم العميق ، ولا يحب لأهله أن يعيشوا على حساب المصادفة ، أو على هامش الدنيا ، وتحت رحمة المقادير . .

الإسلام دين القوة

إذا صح أن نقول إن الكمال فى الأشياء ، والوصول إلى الغاية منها ، قوة فيها ، فإن الإسلام بهذا المعنى دين القوة ، لأنه لا يرضى بالمظاهر الخادعة ، ولا الأشكال الخلابة ، ولا الصور الناقصة ، ولا المعانى المزورة ، ولا التماثيل الكاذبة ، ولا الظلال التى تخفى وراءها حقائق مموهة . . وذلك على اعتبار أنه يرى المسلم خلاصة السلالات الإنسانية وأسلم الطوائف الآدمية ، ومثالا أعلى لهذا المخلوق الذى جعله الله خليفة فى الأرض ، وقد علمه بما جاء به من تشريع ، وما رسمه له من حدود ، وما هداه إليه من تفكير ، وما وجهه إليه من نصح ، ألا يكون هزيلا فى هدف ، أو مريضا فى عزم ، أو ضعيفا فى طلب ، أو مقصراً فى غاية أو متأخراً فى ركب ، أو قانعا فى خير ، أو عاجزا فى جهد ، أو متوانيا فى سعى ، أو متخلفا عن لحاق ، أو نائماً عن مجد ، أو متهاونا فى كسب بل لابد أن يكون جانبه أقوى ، وقدرته أبعد ، ومكانته أرفع ، ونصيبه أوفر ، وحظه أحسن ، وطريقه أوضح ، وأن يكون فى كل حالاته كما يقول أبو فراس .

وإنا أناس لا توسط بيننا   لنا الصدر دون العالمين أو القبر

فنى العلم لا يكون إدراكه للأشياء مشوشا [1] ، ولا فهمه للمسائل

---

١ — التشويش بمعنى الخلط وعدم الترتيب من الكلمات المولدة

ناقصا ، ولا إذعانه مزعزعا ، ولا إحاطته مضطربة ، ولا وعيه تقليداً ، ولا تذوقه قلقا ، ولا طلبه له منتهيا . . . وفى سلامة الجسم ، وصحة البدن ، لا يرضى إلا أن يكون أهله أصحاب عضلات مفتولة ، وسيوف مسلولة « يأيها آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون . . . فإما تثقفنهم فى الحـــــرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون . . . . يأيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون . . . قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة . . يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب . . . إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص ، وهكذا الذى يمعن النظر فى قضاياه فى الخير ، ووصاياه فى الأخلاق ، وخطوطه الطويلة العريضة فى التهذيب والسلوك ، والآداب الفردية أو الاجتماعيـة ، يلمح القوة بادية فى الأمر بها ، وفى الثواب عليها ، حتى ليحق له أن يقول « الإسلام دين القوة » ، وقد صح فى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يمدح المؤمن القوى . . لكن ليس معنى مدحه للقوة ، أو إشادته بها ، وتنويهه بفضلها ، وإعلائه لشأنها ، أنه يستخدمها للتدمير ، ويسخرها للعدوان ، ويوجهها للشر ، ويرصدها لإقلاق راحة الآمنين الوادعين ، وهو الذى يدعو للسلام ، ويرغب فى الأمن ، ويحبب فى الألفة ، وينادى بالمحبة ، ويحث أتباعه بقوله « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » بل هى قوة لا يسخرها للعدوان ، ولا يستخدمها للسطو ، ولا يرصدها للتنكيل بالناس ، ولكنه يجعلها لحراسة الحق ، وصيانة الحدود ، ورعاية

الحرمات ، والوقوف إلى جانب الفضيلة تحمى حوزتها ، وتذود عن ساحتها ، وترد بأس العدو الكاشح ، أو الشرير الآثم . . . ولم يصح أنه أمر بالقتال شفاء لحقد ، ولا إرواء لظمأ ، ولا رغبة فى سيادة ، ولا طمعاً فى ملك ، ولا تطلعا لمناطق نفوذ ، ولا جشعاً لاستعمار أماكن ، بل كان ينادى بمبادىء فطرية ، ومذاهب سليمة ، وسلوك سديد ، وأخلاق لا ينكرها العقلاء ، وعنوانه فى تلك المواقف التى وقفها من المشركين ، والمنازلات التى حدثت « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إنه لا يحب المعتدين » . .

وقد كانت قريش بمكة لا تهدأ عن منازاته ومناوأته ، ثم لا تكتفى بذلك من غير أن ترميه بالكذب والاختلاق ، والسحر والشعوذة ، وأن الوحى الذى ينزل عليه أساطير الأولين ، وانتهى جلادها معه إلى تلك الخطة التى دبروها لقتله ، وتفريق دمه ، فلما ترك لهم مكة ، لم يقنعوا بهذا المقدار فراحوا يغرون به الشر ويثيرون عليه الكفار ، واستولوا على أموال المهاجرين ومنازلهم ، وزروعهم وثمارهم ، وجعلوا الذين لم يستطيعوا الهجرة أشبه بالأسرى تحت أيديهم ، يعذبونهم ويضيقون عليهم الخناق . . أما أهل المدينة فقد كان فيهم من لم يبادر إلى الإسلام فتركهم على ما هم عليه من الشرك والوثنية ، واليهودية أو النصرانية ، وأرخى لهم حبال المودة ، وأحسن معاملتهم ، وأكرم جوارهم ، ولم يفرق بينهم وبين المسلمين فى العطف والمودة ، والألفة والمحبة ، والتقدير والاحترام ، إلا أنهم قابلوا الخير بالشر ، والمودة

الخالصة بالبغض ، والمهادنة بالمناوشة (١) ، والإحسان بالأساءة ، والصلة بالجفوة ، وتمردوا عليه ، واستخفوا به ، وطمعوا فيه،ونصبوا له شباك الوقيعة والإيذاء ، والإيلام والكيد . . ولا يقول عاقل إن هذه المواقف يجدى معها الصفح والإغضاء ، والتسامح والعفو ، أو الحلم والسكوت ، أو الموادعة والترك ، والرسالة التى يحملها الرسول وإن كانت تنادى بالسلام لا ترضى بالاستسلام ، وهى — كذلك — لا تحصل مهمتها ، ولا يتحقق غرضها ، وهؤلاء يسيئون إليها هذه الإساءة ، أو يقفون فى وجهها هذا الوقوف . أو يصدون الناس عنها ذلك الصد ... و من أجل ذلك فالذى فعله الإسلام كان دفاعاً لا هجوماً ورداً للشر لا ابتداء بالعدوان ...

وإلى جانب هذه المواقف الشاذة من خصوم الدعوة لم ينس محمد صلى الله عليه وسلم أن هنالك صوتاً مدوياً يناديه من الملأ الأعلى «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » وأن كبار المصلحين والقواد لابد أن يضعوا إلى جوار اللين شيئاً من الشدة . وإلى جوار الرحمة بعضاً من القسوة ، وقريش التى تطارده وتصد عنه ، وتغرى به السفهاء من الصبيان أوالرجال ، تجمعها به آصرة ، وتربطها به وشيجة، وتنحدر وإياه من نبعة واحدة فيقول وهو فى أشد الأحوال تمكنا وغلبة والله لاتسألنى خطة فيها صله للرحم ، ورضى للقرابة ، وحقن للدماء ، إلا أجبتها إليها ، وأعنتها عليها ...

وقد حدث التاريخ أنه بعد ست سنوات من الهجرة والشوق قد

---

١ — اثارة الشر وجلب الأذى والالجاء الى الخصومة

ازداد به وبأصحابه إلى البيت الحرام رأى فى منامه أنه دخله فى جموع المسلمين الذين أرغمتهم الحوادث على تركه ، وألجأتهم الظروف المريرة للجلاء عنه ولم يستطع من شدة الفرح إلا أن يفضى إليهم بما رأى ، وأن يملأ نفوسهم غبطة بهذا السرور الذى يترقبه من ربه ، ولم يكد ذلك الخبر يتطاير إلى مكة حتى هز هنالك صناديد الكفر ، ودعائم الوثنية ، وصاروا يفكرون فى أمره ، ويتدارسون موقفه ، ثم أقسموا بآلهتهم المعبودة أن يحولوا بين محمد وبين دخول مكة ، والطواف بالبيت ، مهما كلفهم ذلك من الثمن ، وحملهم من التضحيات ، ولذلك عسكروا بذى « طوى » على مقربة من الداخل إلى البلد الحرام ، ليصدوا كل واغل ، ويمنعوا كل مغير ، ويقاتلوا من يريد أن يدخل عليهم ديارهم ومنازلهم .. وكان الرسول صلوات الله عليه يغادر المدينة فى ألف وأربعمائة من المسلمين قاصدين العمرة [١] والطواف بالبيت ، فلما كان بذى الحليفة قلد الهدى وأشعر وأحرم ، حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبى — من خزاعة حليفة النبي وأصحابه — وأخبره باستعداد القوم ، واستماتتهم فى الدفاع عن البيت فحول وجهه إلى طريق آخر تفاديا من الالتقاء بهم ، أو الاشتباك معهم . وإلى أن كان بالحديبية — بعد تسعة أميال من مكة — بركت ناقته « القصواء » فقال القائلون خلأت [٢] ناقة رسول الله . فقال الرسول والله ما خلأت ولكن حبسها حابس الفيل ، والذى نفسى بيده لا تدعونى قريش إلى خطة فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها .. وكان بديل بن ورقاء الخزاعى

---

١ — أعمال الحج من غير وقوف بعرفة
٢ — خلأت الناقة اذا وقفت عن المسير وامتنعت عن المضى فيه

— أيضاً — قد جاء إلى هذا المكان يسأله عن سبب مجيئه ، فأفهمه أنه لم يجيء محارباً ، وإنما جاء معتمراً ، فأخبر بديل قريشاً بذلك إلا أنها لم تطمئن لإخباره ولا لوفادته ، وهنالك أرسلت سيد الأحابيش الحليس بن علقمة ، فكان خبره هو خبر بديل من غير زيادة ولا نقص ، ومع هذا قالوا لايدخل علينا مكة محمد وأصحابه ، ويتحدث الناس أن الذين هزمونا ببدر دخلوا علينا فى عقر دارنا ، وفى هذه الآونة هدد سيد الأحابيش بإعلانه هو والأحابيش الخصومة لهم ، والنمرد عليهم ، حتى لايكون شريكا لقوم يصدون عن المسجدالحرام ، فخافت قريش من تهديده ووعيده ، وأرسلت نعيم بن مسعود الذى عاد ليقول لهم لقد رأيت كسرى وقيصر والنجاشى فما رأيت مثل الذى رأيته من محمد وأصحابه .. يهابونه إلى أبعد حد ، ويحترمونه إلى أقصى غاية ، ويدافعون عنه بأموالهم وأنفسهم ، فانظروا ماذا أنتم فاعلون معه ، وفى هذه اللحظة كان كفار مكة قد أرسلوا خمسين رجلا ليتسللوا إلى معسكر المسلمين على شكل العصابات المستميتة ، أو الفدائيين الذين لايبالون بالشدائد ، ولايخافون اقتحام الأهوال ، وكانت خطتهم المرسومة أن يشيعوا الذعر والفزع ، والخوف والهلع . فأوقع معسكر المسلمين بهم الضربات القاسية ، وساقهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم ليصنع بهم مايرى أن يصنعه ، وكان من النبى أنه خلى سبيلهم . وعفا عنهم حقناً للدماء ، ومنعاً للحرب وعاد هؤلاء النفر إلى مكة وأخبروا أهلهم وذويهم بذلك الصفح الكريم ، والعفوالعظيم . وصادف وصولهم إلى مكة وصول رسول محمد — خراش الخزاعى — الذى أرسله ليطمئن قريشاً أن المسلمين سيوفهم فى أغمادها ، وأنهم لم يقصدواسوى

الطواف بالبيت ، وكان عكرمة بن أبى جهل حاضر الحديث فوثب عليه يريد قتله لولا قومه من خزاعة والأحابيش الذين لم يعجبهم هذا الغدر ولا ذلك الحمق ، وجاء فى أثره عثمان بن عفان رضى الله عنه يؤيد دعواه ؛ وكانت قريش تحبه وتحترمه ، وعلى الرغم من ذلك أخـذت عليه منافذ الطرق ، وحالت بينه وبين الرجوع إلى معسكر المسلمين ، وتطاير الخبر إلى النبى أن عثمان قد قتل فصمم على دفع الشر بالشر ، ومقابلة الإساءة بمثلها ، وأصر المســـلمون على أن يبذلوا دماءهم وأموالهم ، وبايعوه على الموت فى سبيل الله ، وكان ذلك تحت شجرة الرضوان .

وسرى خبر هذا الغضب ، وذلك التكتل وتلك البيعة ، ووصل حديث هذا الاستعداد إلى قريش فخلت سبيل عثمان بن عفان وصاحبه الخزاعى . وخافت عاقبة هذا الطيش ، فأرسلت سهل بن عمرو رجاء أن يفاوض النبى على الصلح ، ليكف عن العمرة والطواف بالبيت هذا العام ، وله هو وأصحابه عليهم أن يعتمروا ويطوفوا فى العام الذى بعده فرضى النبى وأملى سهيل ديباجة المعاهدة وأبى أن يبتدىء الكلام باسم الله الرحمن الرحيم ، وأن ينص فى المعاهدة على أن محمداً رسول الله ، واشترط أن من فر من المسلمين بالمدينة إلى أهله وقومه بمكة لا ترده قريش . وأن من فر من أهل مكة رده المسلمون إلى قريش . . . وعلى الرغم من ذلك التعسف الذى تعسفته قريش من جانبها كانت هى الناقضة للعهد ، الناكثة للأيمان بعد توكيدها . ثم ركعت بعد هذا كله تحت سنابك خيل المسلمين يوم فتح مكة تطلب الصفح والعفو . وكان من أدبه صلى الله عليه وسلم أن قال لهم « إذهبوا فأنتم الطلقاء » . .

ويقول أهل الرأى ممن استهواهم هذا الصنيع الطيب من نبي الرحمة لقد دلت سياسته الحازمة ، وحلمه الواسع ، وعقله الكبير ، واحتماله البالغ ، وحقنه لدم القرابة ، وبره بأهله ، وصفحه عن قومه ، وعفوه عن هؤلاء الذين ابتدؤه بالأذى على بعد نظر ، وكمال تدبير ، وحسن تصرف ، ولباقة سلوك ، وكياسة رأى ، وكفاية جبـــارة للقيادة والسيادة .. فإن رجوعه عن العمرة التى قصد إليها بعد الرؤيا ، وكفه عن الاشتباك بقريش ، وقبوله الصلح الجائر والمعاهدة الظالمة وسكوته على إيلام الكفار له على الرغم من حماسة الألف وأربعمائة مقاتل الذين بايعوه على الطاعةوالسمع ، والدفاع عنه ، والوقوف إلى جانبه ، وبذله أموالهم وأولادهم له . كان من أثرهأن أصبحت الجزيرة كلهاولا هم لهـا إلا الحـديث عن الحلم الذى لا نظير له ، والعفو الذى لا يدور بوهم متخيل ، ولا يطوف بذهن شاعر ، والاحتمال الذى لا يكون إلا من رجل لا يسعه فضاء هذا الكون الواسع ، ودفع هذا الإعجاب النادر كثيراً من عقلاء العرب أن يدخلوا فى دين الله أفواجاً ، وأن يتسابقوا إلى عقد معاهدات دفاعية مع المسلمين ، ولذلك دخل الرسول مكة — للفتح — بعد هذا بعامين فكان معه من المسلمين عشرة آلاف لا ألف ونصف ...

ومثل هذه المواقف الخالدة فى دعوة محمد صلى الله عليه وسلم جديرة أن تخرس ألسنة المبطلين ، وتكبح جماح المكابرين . وترد كيد الكائدين وتنادى بأن الإسلام لم يحمل السيف إلا بعد أن حمل المصحف ، ولم تكن حربه إلا دفاعاً عن الحق . وثورة على الباطل ، والقضاء على الظلم وتمكيناً لسلطان العدل بين الناس .

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا ... لقتل نفس ولا جاؤا لسفك دم

جهل وتضليل أحلام وسفسطة[1] ... فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم

لما أتى لك عفواً كل ذى حسب ... تكفل السيف بالجهال والعمم

والشر إن تلقه بالخير ضقت به ... ذرعاً[2] وإن تلقه بالشر ينحسم

علمتهم كل شىء يجهلون به ... حتى القتال وما فيه من الذمم

---

١ — الجدل مكابرة

٢ — طاقة واحتمال

موقف الإسلام من الأديان

والإسلام الذى ألف هذا التجنى ، وتعـــود أن يعيش فى هذه المعامع[1] الصاخبة والحروب الطاحنة ، والعداوات المستمرة والكيد الدائب ، منذ أول يوم نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم آياته ، ودوت فى هذه الدنيا كلماته ، تخدمه الحوادث ،وتفيده الظروف ، لأن وقوفها فى طريقه من غير أن تحوله ، وعدوانها عليه من غير أن تهزمه دليل على أنه ملىء بعناصر الحياة جدير بالخلود ، قمين بهذا الوصف .

« ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفا » وستمضى الأيام والليالى ، والشهور والأجيال تلو الأجيال . وينتهى المنتهون إلى تلك الآية « إن الدين عند الله الإسلام »

وإذا صح لجاهل أن يتحول عنه ، أو جاز لغبى أن يسلك سبيلا غير سبيله . فما كان من المعقول أبداً أن يتنكب[2] طريقـــه أصحاب الرسالات الأخرى من أولئك الذين هم أهل كتاب ، وقد ناداهم بهذا النداء رغبة منه فى إيقاظ شعورهم وتنبيه أذهانهم ، وتفتح قلوبهم ، وتوجيه نفوسهم واستمالة أفئدتهم « يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبـــل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها

---

١ — المعامع الحروب واحدتها معمعة على وزن صومعة

٢ — يتجنب وينحرف

أو نلعنهم كما لعنـا أصحاب السبت[1] وكان أمر الله مفعولا ، .. وفى الحق أن ذلك ليس من المعقول لأن الهداية إذا حلت فى قلب أو سطع نورها فى نفس ، لا تسأل عن حامل المشعل ، ولا يعنيها أن تعرف هذا الذى ينير لهـا الطريق ، ولا يهمها أن يكون هو عيسى أو موسى ، وإبراهيم أو إسماعيل ولا تحاول تلك المحاولة إلا حين تجعل من هدايتها عصبية للذى جرت الهداية على يديه ، أو تجارة بذلك النور الذى قبسته ، ووضعت أقدامها على ضيائه ، وهؤلاء الذين وقفوا لهذا الدين من رجال الأديان السابقة لم يقفوا له إلا حين خرجت بهم العصبيـة عن حدود الاعتدال ، وأصبحوا يتخذون من التدين تجارة تجر عليهم المغانم ، وتسوق إليهم الأموال ، وتجعلهم من أهل الجـاه والسلطان ، ورجال الدين فى العصور القديمة انحرفت بهم السبل ، والتوى بهم المقصد . وحولوا الأديان إلى وسائل للرزق ، ومغانم للدنيا . وأثبت التاريخ أنهم كانوا يدعون التحكم فى رحمة الله ، إذ كانوا يبيعون أشبار الجنة . ويساومون بعض الاغرار على صكوك الغفران ... ومثل هذه المراحل فى أعمار الأديان أشبه بمرحلة الخرف من عمر الإنسان ، حين تصيبه الشيخوخة ، ويلح عليه الهرم ، وتستبد به نزوات الكبر وهى الأوقات التى جاء فيها الإسلام ينادى اليهود والنصارى بقوله « تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم » فأعرضوا فى كبرياء ، وانصرفوا فى طيش وتغاضوا فى جهل ، مع أن دعوته كانت امتداداً لدعوة الأنبياء والمرسلين من قبـل ، فإن كانوا جادين فى دعواهم اتباع هؤلاء الانبياء والرسل ،

---

[1] — هم اليهود وكانوا ينهون عن الصيد فى يوم السبت فيضعون الشباك فى الماء ليمتلىء بالحيتان ثم يأخذونها يوم الأحد زاعمين أنهم بهذا امتثلوا الأمر بعدم الصيد فى يوم السبت .

كان عليهم أن يؤمنوا بذلك الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وبخاصة وهو لم يأمرهم أن يكفروا بالشرائع السابقة ، والرسالات المتقدمة بل كان يجعل الإيمان بها إيمانا بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم . . .

والكلمة التى يعنينا أن نتحدث فيها قبل الإفاضة فى هذا الموضوع هى أن نطرح للبحث هذا السؤال « هل لابد للإنسانية من دين » أو بعبارة أخرى هل التدين ضرورة اجتماعية . . فإن كثيرا من أرباب الفلسفات الحديثة ربما دار بخلدهم أن العقول الإنسانية بعد أن ترقت فى تقديرها الأشياء ، وفهمها للحقائق، ثم تصبح من الافتقار إلى الزواجر والروادع بحيث ترى نفسها مضطرة اضطرارا قاهرا إلى دستور تنزل على إرادته ، أو قانون تخضع لسلطانه ، وتدين بما يفرضه عليها .. وهو كلام لا محصل له من المنطق ، ولا نصيب له من الحق ، لأن البشرية لم تكن حاجتها ماسة إلى الدين فى وقت من الأوقات أشد من حاجتها إليه حين تطغى بالعلم ، وتنخدع بالمعرفة ، وتتمرد على الفطرة بما تظن أنها استفادته من التجارب ، أو اكتسبته من النظر والبحث ، أو حصلته من العلم والمعرفة . . . . والصراع القائم فى الأرض ، والطيش الدائر فى الدنيا ، أو التسابق بين الشرق والغرب ، والتهديد — الآن — بفناء العالم ، لم يكن له من سبب سوى العلم الذى ملأ النفس بالغرور ، وقطع ما بينها وبين الله إذ صارت لا تؤمن بشىء وراء تفاعل الأشياء ، وتداخل الأجزاء ، واختلاط الأجسام ، وتوالد المواد ، بحكم طبائعها الثابتة ، وخصائصها الموجودة غير ملتفتة إلى ما وراء ذلك كله من قوة محركة ، وإرادة مسخرة ، وحكمة مدبرة ، وسلطان مصرف « ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدى القوم الكافرين »

أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون»

وليس ذلك منهم جديدا على التاريخ، فإن آباءهم الأولين، وأسلافهم السابقين ، وأجدادهم المتقدمين ، رددوا ما يشبه دعواهم . وتمسكوا بمثل مايتمسكون به ، حين زعموا هذا الزعم ، إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » فتحللوا من القيود ، وانطلقوا من الروابط ، وفروا من وجه العدالة ، وهربوا من طائلة القانون ، ولم يعترفوا بآداب السلوك ، وظنوا أن العيش شبع ورى ، وشهوة ومتعة ، من غير حدود ولا سدود « إن الدار الآخرة لهى الحيوان » . . . على أننا نتجاوز المدى إذا قلنا إن التدين ضرورة اجتماعية ، فإنه ـ أيضا ـ ضرورة إنسانية ، ولعل الفرق بين الضرورة الاجتماعية والضرورة الإنسانية يرينا مدى الحاجة إليه ، فالضرورة الاجتماعية ماتحتاجه حياة المجتمع من أمور هى لازمة لزوما لا ينفك لقوام تلك الحياة حتى لا يصيبها خلل ، ولا يحل بها هزال ، ولا يمزق مابينها إعصار [١] من الانتكاس أو المرض . . . أما الضرورة الإنسانية فمعناها الحاجة التى تفتقر إليها الإنسانية ليتحقق للإنسان معناها النبيل ، وهدفها السليم ، وغرضها الصحيح ، وغايتها القويمة . . وعلى هذا فإن التدين ضرورة اجتماعية — أولا — ثم ضرورة إنسانية بكل ماتتحمله الإنسانية من معنى — ثانياً — لأن ضرورة العمران والأمن ،والنهوض والتقدم ، تمس إليه ليتقف فى وجه الظلم ، ويكبح نزوات الطيش ، ويحد من شهوات الفرد ، وطغيان البيئة ، وفوضى الشعوب والأمم . . وكذلك حاجة

---

١ — ريح شديدة تقتلع الأشجار

الإنسانية تلح فى طلبه ، وتنادى بوجوده ، وتهتف بوصايته على الناس وقيامه على الجماعة ، ورعايته للأفراد ، ليأنس الإنسان بالإنسان ، ويسعد الفرد فى جوار الجماعة ، ويأمن الضعيف شر القوى ، ويطمئن الصغير إلى الكبير ، ويطمع الفقير فى رحمة الغنى ، وهكذا ينظر الآدمى إلى أخيه فى الآدمية . . وهذا هو الذى يسميه الناس بالإنسانية ويرجعون إليه مايجرى على ألسنتهم من قولهم « معنى إنسانى » لما يقصدونه دائماً فى الأمور من جوانب البر ، ومعـــانى العطف ، ونواحى الرحمة ، وخصال الخير والمعروف ، على أمل أنه يأخذ بأيدينا إلى النور ، ويفتح عيوننا على الضياء ، ويمشى بنـــا إلى ساحة الفضل والمكارم ، فلا يتخيل هذا الإنسان أذى ، ولا يخطر بباله كيد ، أو يهجس فى نفسه هاجس سوء . . .

وإذا كنا قد وصلنا فى حديثنا إلى هذا الحد ، واطمأنت نفوسنا إلى أن التدين ضرورة اجتماعية وإنسانية فى آن واحد ، وأن الجنس البشرى لم يعش فى هذه الدنيا على أسلوب الوحش الكاسر[١] ، بل كان له تفكير ونزوع ، ووجدان وعاطفة ، وطموح وميل ، وبحث فى الأشياء ، وتعليل للحوادث ، زدنا طمأنينة إلى أن ارتباط الدين بالإنسان ارتباط غير مفارق ، ولزومه له لزوم لاينفك ، يهذب طباعه ، وينظم سلوكه ، ويكبح جماحه ، ويقف حائلا بينه وبين الإسفاف الحيوانى ، وعلى البشرية جمعاء أن تفكر فى الدين الصحيح ، والشريعة السليمة ، والدستور القويم ، وإذا كان القرآن منذ أربعة عشر قرنا قد نادى اليهود والنصارى

---

١ — المفترس

بقوله « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا » فإننا نكررها من جديد ، وندعوهم إلى التفكير ، وطرح تلك العصبية ، ونذكرهم أن الإسلام دعوة الأنبياء والمرسلين من قبل ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يعترف بهذا المبدأ ، وقد جاء فى البخارى وغيره من كتب السنة قوله « مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوما يعملون له عملا إلى الليل على أجر معلوم فعملوا له إلى نصف النهار فقالوا لاحاجة لنا إلى أجرك الذى شرطت لنا وماعملناه باطل . . فقال لهم لا تفعلوا أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملا فأبوا وتركوا واستأجر آخرين بعدهم فقال أكملوا بقية يومكم هذا ولكم الذى شرطت لهم من الأجر ، فعملوا حتى إذا كان حين صلاة العصر قالوا لك ماعملنا باطل ولك الأجر الذى جعلت لنا فيه . . فقال لهم أكملوا بقية عملكم فإنما بقى من النهار شيء يسير فأبوا . . . فاستأجر قوما أن يعملوا له بقية يومهم ، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس فاستكملوا أجر الفريقين كليهما . . فذلك مثلهم ومثل ماقبلوا من هذا النور[1] » . . .

وفى هذا القول ما يكشف لنا النقاب عن عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لأهل الأرض — جميعاً — فى كل زمان ومكان ، فلا تمس الحاجة بعده إلى رسول ، ولا تفتقر البشرية بعده إلى وحى ، ولا تتطلب الإنسانية كتاباً يجيء من السماء ، وإن الباحثين فى أصول الأديان

---

١ — شبهت تعاليم الدين بالنور لأنها تضيء العالم ، وتكشف الحقائق ، وتهدى الى سواء السبيل

وأطوارها ، ونموها وازدهارها ، وغفوتها ويقظتها ، لاينكرون أنه كثيراً من الأحبار والرهبان الذين وصفهم القرآن بأنهم كانوا يأ كلون أموال الناس بالباطل ، قد لعبوا لعباً مكشوفاً فى مسخ معالم هذا الذى جاء به موسى وعيسى طلباً للعيش ، ورغبة فى الجاه ، وجرياً وراء السلطان الزائف ، والعنجهية الكاذبة ؛ ولذلك ماجت الدنيا بالفساد ، وامتلأت بالظلم،وصار الناس فيها يترقبون المنقذ ، ويبحثون عن الخلاص ، ويفكرون فى المصير ، ويؤملون أن يبعث الله إليهم الرحمة من عنده لتنير لهم الطريق إلى غاية أسمى ، وهدف أنبل ، ومستقبل أفضل ، وسلوك يحسون به طعم الكرامة الآدمية ، فكان ذلك المنقذ محمداً صلى الله عليه وسلم الذى أرسله ربه رحمة للعالمين . ـ

ومن حقنا بعد أن انتهينا إلى هنا أن نقول لك إن هذا الدين لا يرغمك أيها العاقل ـ على أن تدين به ، ولا أن تؤمن برسوله ، أو تلتزم تكاليفه بعد أن ترك لك حرية الاختيار ، وفتح لك آفاق المعرفة ، وترك لك أمر النظر ، ومد لك فى حبال التأمل والتروى ، والمقارنة والترجيح ، ولكنه يرغمك ـ وقد خلق الله لك عينين ، ولسانا وشفتين ،وهداك النجدين ، وركب فيك الحواس الظاهرة والباطنة ، وجعل لك الرأس المفكر ، والقلب المدبر ـ أن تستخدم تلك القوى ، وأن تنتفع بتلك المواهب ، وألا تعطل نعمة من هذه النعم التى أنعم بها عليك ، وأن تنظر إلى الحجة الواضحة ، والطريق المستقيم ، مهتديا بما وهبه لك من نور ، وما نصبه لك من دلائل ، وما أوضحه لك من معالم « ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين

والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » . .

ومن حق اليهود أو النصارى أن يبشروا بشريعتهم ، وأن يدعوا الناس إلى الإيمان بالتوراة والإنجيل ، لكنه ليس من حقهم أن يدعوا أن التاريخ قد حفظ التوراة والإنجيل من العبث ، وصانهما من التلف على أنه لو كان لليهودية صوت يجلجل بتوراة موسى كليم الله وللنصرانية نداء يرتفع بإنجيل عيسى عليه السلام . لما كانت هذه الأصوات وتلك النداءات . صرفا للناس عن القرآن ، وصدا للبشرية عن المحجة[1] السليمة التي جاء بها محمد بن عبد الله ، لأن الخير خير على كل حال . وفى كل زمان ومكان « ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لا كلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم[2] » . . ولقد عاصرنا دعاة باسم موسى ؛ ودعاة باسم عيسى ؛ فلم نشهد للإسلام مصرعاً كان على أيديهم ، ولا مرضاً أصابه من أجل دعوتهم ، والسبب فى هذا أن غاية الرسل كلهم الفضيلة ، وهدفهم الخير ، وقصدهم الحق ، ورسالتهم ألا تكون فتنة فى الأرض ، أو فساد كبير . . . ولهذا فإنى أدعو إلى الحديث فى الأديان ، والدفاع عنها ، والتبشير بمبادئها ، والتمسك بآدابها ، ولا أرى غضاضة على الإسلام من أن يقول اليهودى أنا يهودى ، أو يقول النصرانى أنا نصرانى ، وأن يفتح كل منهما

---

١ — الطريق

٢ — كناية عن سعة الرزق لأن المطر اذا تعهد النبات بالري ترعرع وأثمر وكثر خيره ونتاجه

الآفاق الواسعة لنشر كتابه ، وإذاعة شريعته ، لأن فى هذا تذكيراً بالمال ، وتخويفاً من العاقبة ، وإيمانا بالله الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور . .

وقد عاشت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فى جوار اليهودية والنصرانية قرونا طويلة ، شامخة الرأس ، عالية الصوت ، خفاقة الراية تؤدى واجبها للناس ، وتعلن هدايتها فى الأرض ؛ فما أزرى[1] بها ذلك ، ولا نقص من قدرها ، ولا حط من قيمتها ، ولا أسكت لها نأمة[2] . . . وهى فى هذه اللحظات الحاسمة من تاريخها تعيش فى جوار الشيوعية والرأسمالية والوجودية ومذاهب العرى الفاحش، والانطلاق الأهوج الذى يحكم على الأديان بأنها أغلال فى أعناق الإنسانية وشعورها بالخوف يتزايد ، وإحساسها بالقلق يتضاعف ، ولا تدرى بعد هذا الصراع العنيف لمن تكون الجولة الأخيرة ، وكل دعوة بكتاب منزل ، أو شريعة سماوية ، تنفع فى مقاومة هذا الزيغ ؛ والقضاء على ذلك الإلحاد ... ولهذا فإننى أرفع صوتى بهذا الرأى وأنا مؤمن كل الإيمان بأنى لا أحيد عن شرعة الإنصاف ، ولا أنحرف عن سنن القصد إذا قلت لليهود والنصارى ارفعوا أصواتكم بما فى شريعتكم من هدى ومافى دينكم من سلوك ، فإن البشرية ظمأى إلى الخير . . .

---

١ — عاب وحقر

٢ — صوت

موقف الإسلام من الهدامين

الهدامون للإسلام ، والمناوئون له ، والعاملون على خفض صوته ، وإطفاء جذوته ، لا يحصيهم العدد من هنا وهنا لك ، ولهم فى هذا الهدم الذى يريدونه ، والمناوأة التى يقصدون إليها ، أساليب متنوعة بحسب حظهم من الثقافة والمعرفة . ونصيبهم من حذق الحرب ، والدراية بألوان الخصومة والكيد ، فأولئك الذين ادعوا النبوة كمسيلمة أو زوجته سجاح ، ربما خيل لهم أن هذا هدم وكيد . وعداوة وخصومة ، ونيل منه ، وطمس لمعالمه ، وتشويه لحقيقته ، والذين عارضوا القرآن بكلام على شاكلته ، وألفاظ لها جرس ألفاظه ، وبلاغة تتطلع إلى بلاغته قد يدور بخلدهم أنهم هزوا جداره ، وزلزلوا بنيانه ، ووصلوا من الكيد له إلى مدى[1] . . . والذين طعنوا على تشريعه ، وعابوا على نهجه فى الإصلاح ، تأخذهم النشوة[2] فى بعض الأحيان ظناً منهم أنهم لمزوا أو عابوا ، والإسلام فى كل هذه الأحوال ساخر بهم ، زار عليهم ، محتقر لهم ، يمر بحربهم الطاحنة من غير أن يشعر بها أو يلتفت إليها . . . وقد أدركنا فى القرن العشرين أدباء تناولوه ، وفلاسفة كانت فلسفتهم كلها عيباً فيه ، وطعناً عليه ، ولمزاً له ، إلا أن طيشهم عاد عليهم بالوبال ، وسفههم رجع إليهم بالخزى ، وظل الإسلام

---

١ — غاية ونهاية

٢ — طرب السكران وفرحه

هو الإسلام ينادى بمبادئه ، ويعلن للناس هديه،وينشر للخافقين رسالته ، ويأخذ العالم كله بدستوره فى الدين والدنيا ، وكأنما كان هؤلاء الطاعنون يبشرون به ، ويكشفون عن نواحى الخير فيه ، وجوانب القوة منه ، فصار حديثه على الألسنة ، وهديه يغزو القلوب ، ويتغلغل فى الأفئدة ويتمكن فى النفوس ، واشتغل المثقفون بدراسته ، وتفهم مسائله ، ليروا إلى أى حد ينطلى على العقول ما يقول القائلون ، وبهذا أصبحوا يعرفون عنه ، أكثر مما يجهلون منه ، وبعد أن كان لايستطيع دفع الشبه ورد المطاعن ، إلا جماعة كانت قد وقفت سعيها على فقه حلاله وحرامه ، وأوامره ونواهيه ، ووعده ووعيده ، صار المهندس والطبيب والصانع والزارع والعامل وما شاكل ذلك من أرباب الحرفة والعمل أو الذى درس دراسة لا تمت له ولا تتصل به ، يستطيع أن يقول فيه ، ويدافع عنه ، ويجلى قضاياه بأسلوبه العلمى ، أو ذوقه الهندسى ، وعقله الميكانيكى ... وأصبح الذين يريدون أن يظهروا على حساب الإسلام بنقدهم له ، أو طعنهم عليه ، أو تناولهم لمبادئه بالعيب واللمز ، لاتلبث نواياهم أن تنكشف ، لأن العوام وأنصاف المتعلمين، يعرفون أنهم يحاولون التسلق ،ويريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره . . . ومن العجيب الغريب أن هذا الفريق قد عاد للإشادة بالاسلام ، والتنويه به ، والكتابة عنه ، وقد تأكد الناس من عودتهم بتلك المؤلفات التى ألفوها أنهم ما كانوا يقصدون سوى الشهرة ، والترويج لما يكتبون بعد ، وإن كان بعض المتزمتين من المسلمين لا يزالون يؤمنون أنهم فى هذا أشبه بأبى إسحق الصابى الذى كان مع مجوسيته يحفظ القرآن ، وكان العارفون بحقيقته يقولون إن هذا

الحفظ لا يتجاوز طرف لسانه ، وسن قلبه ، وأنا لا أسمى هؤلاء ومن يكون على شاكلتهم إلا أنهم تجار حذقوا فنون « العرض والطلب » فى البيع والشراء ، وأن كتبهم التى ألفوها — أخيراً — فى إظهار محاسن الدين الإسلامى ، أو فى شخصيات الرسول صلى الله عليه وسلم لا تعدو أن تكون مثل قرآن أبى إسحق الصابى ، أو كالأيمان الكاذبة التى يحلف بها التجار ترويجاً لما يعرضونه من السلع ، وأن هذه حال لا تمتاز شيئاً عن أحوال أولئك الذين وصفهم الله سبحانه وتعالى فى كتابه بقوله « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ، الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون »

وإذا كان الشاعر يقول « لولا المشقات ساد الناس كلهم » فإن الفرار من المشقات هو الذى يحمل كثيراً من ضعاف الهمم أن يحاولوا النيل من الإسلام ، وقد علمنا أن من هؤلاء من يقول إن التكاليف لا يلتزم بها إلا العوام أما الخواص الذين وصلوا إلى المعرفة بالله وبالحقائق الكونية ، والمعانى الإنسانية فإنهم غير مطالبين بواجب ، أو مكلفين بفريضة ، وهم بهذا الخرف يذكروننا بهذا الذى أراد أن يتخلف عن الخروج مع جيش المسلمين لقتال عدوهم ، فجاء إلى الرسول يقول له ، إننا ذاهبون لقتال بنى الأصفر وأنا أخشى أن أفتتن بنسائهم عن واجب الوقوف للعدو ، وصد غارات الخصوم ، وقد جئت لأطلب منك الإذن بالتخلف ، حتى لا أقع فيما أخافه من الفتنة ، فنزلت فيه الآية « ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين » . .

وحديثنا عن هذا النوع من الهدم ، وهذا النفر من الهدامين، يقتضينا أن نتحدث عن جماعـــة من المسلمين يشتغلون بالخلافات المذهبية ، ويعطونها من عنايتهم واهتمامهم أكثر مما يلزم ، وهم لو بذلوا نصف هذا الجهد الذى يبذلونه فى التعريف بالإسلام ، وجلاء مشاكله ، وكشف غامضه ، وبسط قضاياه ، لكان ذلك أجـــدى وأنفع ، وهذه عقيدة « القضاء والقدر » لا تزال كما هى منذ تكلم فيها أهل السنة والمعتزلة ، لم يزد العلماء عليها حرفا ، أو يضيفوا إليها كشفا ، وقد تتابع الشبان والشيوخ والرجال والنساء ، ثم لم نسمع ممن يتحدثون عنها بيانا شافيا ، وكأن جماعة المتحدثين — كذلك — قضاء وقدر . وربمـا أضيف إلى شبهة القضاء والقدر شبهة رؤية الله سبحانه وتعالى — يوم القيامة — من غير كيفية أو انحصار التى أنكرها علماء المعتزلة ، ولم يعقلوا معنى كونها من غير كيفية وانحصار، وكان منهم الزمخشرى الذى هجا أهل السنة بقوله

وجمـاعة سموا هواهم سنة   لجماعـــة حمر لعمرى مؤكفه
قد شبهوه بخلقـه فتخوفوا   شنع الورى فتستروا بالبلـكفة (١)

وكذلك يضاف إلى هذين الأمرين عقيدة « الكسب والاكتساب » أو تعلق قدرة الحادث بالمقدور ، وترتب الثواب والعقاب عليها . . . ويحصل تلك الشبهة التى تقوم بأذهان بعض الناس فيها أنه إذا كان كل عمل يعمله العبد قد قدره عليه أزلا مولاه وقضى بفعله ، وهو لا محالة

---

١ — يقصد بالبلكفة الكلمة المشتقة من قولهم « من غير كيفية ولا انحصار » والتشبيه بالخلق جاء من الجهة والتحيز اللازمين للرؤية ، لأن خلقه الحادث هو الذى يتحيز المكان والجهة ، وينحصر بهما . .

فاعله ، تنفيذاً لقضاء الله وقدره ، فكيف يكون عليه ثواب وعقاب ..
وهنا يقول أهل السنة إن الثواب والعقاب على عزم القلب على الفعل ،
ومباشرة قدرة الحادث للمقدور . . أما غيرهم فإنه يقول لا عبرة بهذا
الهم ومباشرة القدرة ، ما دام الفعل لابد من حصوله ، والعبد فى ذلك
موقفه موقف المسخر لا المخير ، كأنما هو ريشة معلقة فى الفضاء ، وينتهى
أولئك المعارضون من مذهبهم هذا إلى أن العبد « مجبور على الفعل »
ويسمى الناس هذا المذهب بالجبر ، وأصحابه بالجبرية ، ومذهب أهل
السنة الذى يقول بالاختيار ، يخلص فى تحليله الأخير ، إلى أن العبد
وإن كان مختاراً ظاهراً ، فإنه مجبور باطنا ، ولذلك يعلق بعض الظرفاء
على هذا بقوله . .

ما حيلة العبد والأقدار جارية   بين اختيار وجبر أيها الرائى
ألقاه فى اليم مكتوفا وقال له   إياك إياك أن تبتل بالماء

وقد أجابه واحد من أهل السنة بقوله . .

إن حفه اللطف لم يمسسه من بلل   ولم يبال بتكتيف وإلقاء
وإن يكن قدر المولى بغرقته   فهو الغريق ولو ألقى بصحراء

وهو جدل — كما ترى — لا يبل غليلا ، ولا يشفى عليلا ، ولا
يكون للناظر رأيا يطمئن إليه ، أو عقيدة يؤمن بها ، اللهم إلا أن يسلم
من غير بحث ، أو يقلد من غير دليل ، ولا يصح أن يكون الإيمان قلقا
ولا أن تكون العقيدة مزعزعة ، ولا أن تكون حال المسلم على حرف
— هكذا — فى حين أن علماء الدين يجادلون فى اللحية المسبلة ، والعذبة
المرسلة ، وما شاكل ذلك وذلك من المسائل التى لا طائل تحتها ....

وفى الوقت الذى نرى فيه ذلك الهدم ، نرى جماعة « الوجوديين »
الذين يقولون بضرورة حياة الإنسان لوجوده فقط ، فلا يهتم بغيب ،

ولا يفكر فى موت ، ولا يحسب حساب مستقبل ، ولا يتهيب عقابا ، ولا يرجو ثواباً ، ولا يترك لذة ، ولا يتقيد بحدود ، ولا تقف فى طريقه سدود ، ولا موازين لشىء من الفضيلة والرذيلة عنده وراء شهوته الملحة[1] ،وهواه الصارخ ، ورغبته الجامحة، وسعادته الحاضرة، وأنانيته [2] العارمة ، التى تقول أنا وبعدى الطوفان ، أوحريق «روما» وهم هدامون من طراز آخر . يخيل للناظر فى أمرهم ، أو المتتبع لأحوالهم ، أنهم يئسوا من الإصلاح ، ونفضوا أيديهم من المصلحين ، ولم يلتجئوا إلى مثل هذا الهدم ، إلا بعد أن فقدوا النور الذى يضىء لهم الطريق ، وحرموا المرشد الذى يأخذ بأيديهم إلى الغاية ، وعجزت القوانين القائمة — بينهم — أن ترسم لهم المعالم رسماً واضحاً . .. والذى يقال فى هذا المذهب يقال — بالضبط — فى الرأسمالية والشيوعية . .

والمنصفون من الباحثين يقولون إن الرأسمالية حينما أسرفت فى عدوانها ، وتجاوزت الحد فى طغيانها ، وأساءت إلى الجماعة الإنسانية باستخدام المال استخداماً ظالماً ، وجعلت من سلطانه فى يدها، ونفوذها لديها ، سبيلا إلى استرقاق الأحرار ، واستذلال الأعزاء ، وضياع المثل ، وانتكاس المعايير ، وإهدار الكرامات ، وموت الشعور، وغمط حقوق الأفراد ، وإنكار التزاماتهم نحو البيئة ، حينئذ كانت الرأسمالية سبباً فى أن يثور الشعوب ، وتتمرد الأمم ، ويغضب الحاقدون ، وتتأجج النار فى نفوس المكلومين . ممن حرموا الجزاء على كفايتهم ، والثواب على عملهم : والأجر على كدهم الكادح ، وجهدهم الفادح ،

---

١ — من الالحاح وهو مداومة الطلب وكثرته

٢ — الأنانية سبق تفسيرها بالأثرة وحب النفس والعارمة هنا الشديدة

ودأبهم المضنى ، وعرقهم الحار ... والثورة الفرنسية التى أعلنت حقوق الإنسان — كما يزعمون — لم تنفجر إلا عن ظلم ، ولم تنبعث إلا عن كبت . ولم تتأجج نيرانها إلا بعد ليل قاتم السواد ، حالك المداد ، إذ كانت العنصرية متحكمة ، والرأسمالية متسلطة ، والإقطاع متغلغــلا ، والاستذلال واضحاً ، والعيش الناعم حق الأشراف ورجال الدين الذين كانوا يفتون بكفايتهم للحيــاة ، وجدارتهم بالغنى ، وملكيتهم للثروة ، واستحقاقهم للسيادة ، وعــلوهم فى الأرض ، وإقرارهم على العسف بالرعية ، واستخدامهم للشعب ، ومن عدا هؤلاء وهؤلاء يموتون جوعا ، أو يذوبون عناء ، أو يتمزقون غيظاً ، أو يكونون حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر فى صدورهم ، من غير اعتراض معترض ، أو استصراخ جائع ، أو شكاية متألم ، أو أنين موجوع ، أو بكاء مفجوع ، فلما حطم الشعب القيود ، وتخطى السدود ، وقضى على الإقطاع ، وأذاب الفوارق بين الطبقات ، وتجاوز الحد فى ذلك انحرف فى انتقامه لنفسه ، وتصحيحه لأوضاعه ، وهنالك كانت رواسب الرأسمالية — القديمة — أشياء كثيرة من التحلل والإباحية ، وما شئت من ضلالات وخزعبلات ...

وكذلك كان الشأن فى الشرق والغرب من كل بلاد الدنيا التى كانت ترزح تحت نير الظلم والاستبداد ، والتحكم والسيطرة ، والعنصرية والإقطاع . فإنها أخذت تنتفض عن غير وعى ، وتثور من غــير عقل ؛ وتصحح أوضاعها من غير هدف ، وتضع أقدامها على غير نور ، وتتلفت ها هنا أو هنالك فلا تجد لها معالم من دين ، ولا معايير من أخلاق ، ولا روادع من دستور ، ولا مثل عليا من التاريخ ، والجماعات فى مثل هذا الوقت أحوج ما تــكون إلى الدين الذى يعصمها ، والهــدى الذى يرشــدها ،

والشريعة التى تبصرها بالغاية ، أو ترسم لها المعالم ، وتنير الطريق ؛ ولذلك فإن روسيا بعد أن قضت على عهد « القيصرية » وتخلصت من طغيان الإقطاع ، ومحت الفوارق بين الطبقات ، انحدرت هذا الانحدار إلى « الشيوعية » بحكم كونها فقدت المثل ، وكفرت بالأديان ، ونظرت إلى الحياة على أنها « لقمة الخبز » أو شهوة البطن والفرج لا أكثر ولا أقل ...

ونحن إذا سألنا الرأسماليين والشيوعيين عن هدفهم الذى يرمون إليه . وعن غايتهم التى يعملون من أجلها ، كان الجواب انتعاش الحياة ، والارتفاع بمستوى الإنسان ارتفاعاً يناسب كونه إنساناً يحس ويشعر ومن حقه أن يتمتع بالدنيا التى خلق فيها ، وذللت له أرضها وسماؤها ، ومياهها وهواؤها ، وهو كلام لابد أن نتقبله ، أو نتقبل معظمه على الأقل إن لم نقبله كله . . لأن الإسلام لا يمارى فى أن الإنسان الذى خلق الله له هذا الكون وسخر له قواه وإمكانياته وخصائصه ، وأرضه وسماءه ، وماءه وهواءه ، إنما مكنه ذلك التمكين ليسود ويسعد ، ويعيش فى نعمة وعافية ، وسلامة وسلام ، ورغد وأمن ، وآيات الكتاب الكريم ناطقة بذلك كله ، دالة عليه . . إلا أن الإسلام هو الدستور الوحيد الذى يرتفع بمستوى الإنسانية إلى قمة شاهقة ، ويعترف للفرد بحقه على الجماعة ، وللجماعة بحقها لدى الفرد ، ويضمن للإنسان العيش الناعم ، والحياة السعيدة ، ويمنع عدوان الطبقات . وسيطرة الإقطاع ، واستغلال رأس المال ، وعداء المحكوم للحاكم ، واغتصاب الحقوق من أربابها . .

أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى فالكل فى حق الحياة سواء
فلو أنه إنساناً تخير ملة ما اختار إلا دينك الفقراء

ويرجع ذلك إلى أمور . . .

الأول : أن الإسلام يعترف بأن للكون رباً مدبراً ، وإلهاً خالقاً ، وسلطاناً مصرفاً « بيده ملكوت السموات والأرض » وهو القاهر فوق عباده ، يملأ به المسلم نفسه ، ويعمر به قلبه ، ويراقبه فى السر والعلن ، ويعلم أنه يحاسبه على النقير والقطمير ، والصغير والكبير ، لذلك يكون سلوكه مستقيما ، وعمله سليماً ، وسرائره نقية ، وضمائره صافية ، وخيره مرجواً ، وعدوانه حراماً ، وتسلطه ممنوعاً ، وأنسه محققاً ، ورحمته قريبة ، وبره عاماً ، وجواره محبوباً ، وسلمه شاملا ، وأدبه جماً ، وخلقه عظيماً ... أما الشيوعية فإنها لا تعترف بالإله ، ولا تؤمن بالخالق ، ولا تدين بسلطان وراء سلطان الآلة التى تصنعها ، أو القوة التى تحركها ، والأيدى التى تعمل فى المصانع والمزارع ، وتساعد على زيادة الإنتاج ، وزيادة الدخل القومى ، ورفع مستوى المعيشة ، وبالجملة لا تحترم غير الإنسان الذى حولته إلى عبد رقيق ماتت فيه معانى الإنسانية ، وجفت فى قلبه حقيقة الآدمية ، وصار آلة صماء تعمل للدولة ، وتفنى فى سبيل هدف مجهول ، وغرض غير معقول ، وأصبح همه أن يعمل ليومه لا لغده ، ولنفسه لا لحسه ، ولزاده لا لمعاده ، ومن هنا لم تكن للفضيلة اعتبار عنده ، ولا للمثل العليا تقدير لديه ، وانتقلت المجتمعات إلى قطعان ذئاب ، تعيش فى وسط غاب ..

الثانى: أن الإسلام يرى أن سعادة البشرية ، واستقرار السلام ، ونمو العلاقات ، وحسن الجوار ، وتمكن المحبة بين الأفراد ، واطمئنان الإنسان إلى أخيه الإنسان ، وخلو الحياة من عوامل التنغيص[1] ، واتساع صدر الآدمى لأخيه فى الآدمية ، ورضاه عنه فى جميع أحواله ، تتوقف على وجود الدين الذى يوجههم إلى الخير ، ويرشدهم إلى الهداية ، ويدفعهم إلى العدل ، ويعملهم على الإنصاف ؛ ويرغبهم فى البر ، ويحببهم فى المعروف ، ويتسامى بهم إلى النبل ، ويترفع بهم عن السفساف ، ويعرفهم المصير ، ويبصرهم بالغاية ، ويعلمهم معنى الحياة التى يموج بهم بحرها المتلاطم . . . فى حين أن الشيوعية التى تقول عن الإله إنه خرافة ، ترى أن الدين « أفيون الشعوب » استعمله المصلحون للتخدير ، واستعانوا به على الإغراء ، واستخدموه للاحتيال على الناس ، ولهذا تخبط الشيوعيون فى القصد ، وتنكبوا طريق السعادة ، وضلوا وسائل النجاح وتقطعت بينهم الأرحام ، وتباعدت بهم القلوب ، وتذبذبت بهم الغايات وفى كل يوم يرسمون مناهج ، ويضعون خططا ، ويكفرون بمبادىء « كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا » ، ولا يمكن أن تستقر بهم السفينة ، أو تهدأ من حولهم الأمواج ، أو ينتهى بهم الجزر والمد ، لأن الرصيد الروحى الذى ينفق منه المؤمن غير موجود فى ضمائرهم . . .

الثالث: أن الإسلام تقوم دعوته على الرفق والموادة ؛ والحجة والمنطق ، والحرية والاختيار ، والتفكير والعقل ، والموازنة والترجيح

---

١ — الكدر وعدم صفاء الخاطر

ولم تكن سياسة الرسول فى إعلان مبادئه خارجة عن هذا الإطار المرسوم له فى داخل قوله تعالى « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » وقوله « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » . . . والشيوعية تعتمد على العنف والإرهاب ، والذعر والخوف ، والدمار والخراب. والفوضى والاضطراب ، والقسوة والتسلط ، والحكم والسلطان ، والسطو والنهب ، والقوة والبطش ، وما صح — إلى الآن — أنها بسطت نفوذها ، أو نشرت رايتها ، أو مكنت لسلطانها ، أو أقامت دولتها ، إلا وقد مهدت لذلك كله بالتهديد والوعيد ، والنار والحديد ، والجلبة والخيل . والثبور والويل . .

الرابع : أن الإسلام يعترف بملكية الفرد ، ويصونها من الاغتصاب والسرقة . والعدوان والجحود[1] . والإتلاف والضرر . ويشرع لذلك الأحكام الرادعة . والحدود المانعة تكريما للإنسان ، واحتراما للآدمى واعترافا بجهده الذى يبذله : وقوته التى يستعملها وتفكيره الذى يستخدمه . . . والشيوعية تهدر حق الفرد : وتجحد حقوق الإنسان . ولا ترى إلا أنه مسمار من آلة المصنع ، أو قطعة غيار فى الماكينة ، ليس له ملك ، ولا لحرمته اعتبار ، ولا لجهوده تقدير ، ولا لذاته فضل وعليه أن يفنى الفناء المطلق فى الشخصية الاعتبارية التى تسمى الدولة ، وهى التى تملك وتدبر وتصرف وتحكم وتوجه وتملى إراداتها وسلطانها .. وعيب هذا المبدأ أنه يميت روح الطموح ، ويكبت التنافس . ويقضى

---

١ — شدة الانكار ومثله التنكول

على النبوغ ، ويمحو من الدولة معالم النهوض والتقدم . ويشيع الرجعية والتخلف . والتوانى والكسل . . .

الخامس: أن الإسلام يصون المرأة من الابتذال،ويحفظها من العبث ويحمى عرضها من العدوان، ويمنع عفتها من الامتهان ، فلا ينال شرفها آثم ، ولا يتطاول على ساحتها لص ، ولا يهضمها حقوقها إنسان ، وليس للرجل أن يتمتع بها إلا بالعقد الشرعى ، ولا أن يستذلها كامرأة ولا أن يمتهنها كزوجة ، ولا أن يتجاوز معها الحدود المرسومة .ويرى الإسلام أن زوجها مطالب بحمايتها من الانحدار ، وحفظها من العمل والحيلولة بينها وبين الريبة ، لأنها درة فى تاج شرفه ، وسطر من تاريخه وهكذا تتبوأ المرأة فى الإسلام منزلة تجعلها - بحق - نصف المجتمع المتماسك القوى . . . والشيوعية فوق كونها تحتم عليها العمل ،وتعرضها للابتذال والامتهان ، لاتصون لها حرمة ، ولا تعترف لها بوجود ، ولا تدفع عنها أذى،ولاترعى لها حقاً ، ولا تحفظ لها كرامة ، وتجعلها كالسائمة(١) التى ترعى فى أى كلأ شاءت ، وليس فى دستورها كلمة الشرف أو الفضيلة . .

السادس : أن الإسلام يعتبر المسلمين أسرةواحدةمتضامنةفىالرزق متكافلة فى العيش ، متعاونة فى البر ، متلاقية فى الأهواء أو الميول ، متجاذبة الأحاسيس والعواطف ، يواسى بعضهم بعضاً فى الضراء ، ويتبادلون التهانى الخالصة فى السراء ، وهكذا يكون المسلم أخا المسلم

---

١ — هى التى تترك فى المرعي والكلأ من غير زجر ولا طرد

لا يخذله ولا يسلمه ولا يؤلمه ولا يخيب ظنه ، فللفقير حق على الغنى ، وللمريض حق على الصحيح ، وللجاهل حق على العالم ، وللصغير حق على الكبير ، وللجار حق على جاره ، وللأخ حق على أخيه . . . والشيوعية لا تعترف بشيء من ذلك كله ، وإنما تعترف بالإنتاج والعمل ، فالعاجز عن الكسب ، والمتأخر عن الركب ، والذى قعـــدت به شيخوخته ، أو وقفت فى طريقه عاهته ، لا يعتبر إلا حجر عثرة فى سبيل النهوض وعقبة كؤودا فى اعتبار الرقى ، من حق المجتمع أن يستأصلهم كما يستأصل الجراثيم ، ويقضى عليهم كما يقضى على الأوبئة والأمراض ، وهذا عنوان على القطيعة، وبرهان على الجفوة ،ودليل على أن الإنسانية قد فارقت القلوب ، وأن الحياة فى نفوس هؤلاء قد تجردت من الروح وما أردنا بهذا الاسترسال أن نقارن بين الإسلام وبين هذه المذاهب الموضوعة ، لأن المقارنة بين هداية الله وبين هوى الناس نوع من الحمق ومعنى من الجهل ، وضرب من السفه ، وبعض من الطيش ، . إنما أردنا فقط أن نقول لك إن البشرية إذا خرجت عن تلك الخطوط التى رسمتها لها العناية الالهية زاغت عن القصد ، ومالت عن الصراط ، وانحرفت عن الغاية ، ثم ظلت ـ عمرها كله ـ تخرج من ليل إلى ليل ، ولا تتجاوز عقبة إلا واجهتها أخرى ، ولا تنقه من مرض إلا عانت مرضا سواه أشد فتكا ، وأكثر ألما ، وأعنف مضاضة وتبريحا ، فكم سمع الناس عن مبادىء ومذاهب ، وفلسفات وسياسة ، ودساتير وقوانين ، وآراء فى الإصلاح والاجتماع ، نادى بها مسلطون ، وأعلنها غزاة ، وبشر بها فلاسفة ، ولم يطلع عليها النهار ، حتى تكشفت عن زيف ، وظهر ما بها من نقص ، وما تضمنته من خلل . . . وهذا دليل قاطع على أن الناس

إن لم يفتحوا عيونهم على هذا النور سيظل ليلهم مظلما ، وستبقى حياتهم مضطربة . وتلاحقهم الهزائم فى معاركهم ضد قوى الشر والعدوان .
لأنهم لا يتسلحون بالسلاح النافع ، ولا يتزودون بالزاد الصحيح . . .
ولا يحاربون لغاية يؤمنون بها ، وليس وراء علاج الطبيب الحاذق الذى يضع الدواء فى موضع العلة ، فلا يخطىء الهدف ، ولا يجهل القصد .
ولا يضل السبيل .

———

منابع التشريع الاسلامى

والتشريع الإسلامى الذى انتهينا من البحث فيه ، والحديث عنه ، والتنويه به ، والدراسة له على أنه تشريع لابد منه للبشرية الحيرى ، والإنسانية المعذبة ، والحياة المليئة بالمتاعب ، الغاصة بالفسق ، الطافحة بالشر المحيط بها من كل مكان ، لم يكن مصدره تفكيراً محدوداً ، ولا عقلية مذبذبة ، ولا نظراً قاصراً ، ولا بصيرة غير نافذة ، ولا هوى جامحاً ، ولا شهوة عارمة ، ولا سلطة ظالمة ، ولكن مصدره كان علماً واعياً ، وحكمة حكيمة ، ورأياً رشيداً ، وقدرة خالقة خارقة ، وإرادة رفيعة ، وقوة لا تضع الأشياء إلا فى مواضعها ، ولا المياه إلا فى مجاريها ... وله منابع لا تضيق عن حكم ، ولا تعجز عن غاية ، ولا تتهم فى شهوة ، ولا تقصر فى حاجة ، ولا تضن بمائها على ظامىء ، ولا تبخل بخيرها على طالب ، بل تتسع للزمان والمكان ، والميول والرغبات ، والإصلاح والتقدم ، والرقى والعمران ، وفى مقدمة هذه المنابع

القرآن :

الذى أروى الله به القلوب الظامئة ، والنفوس المتعطشة ، والأفئدة القاحلة (١) ، والجوانح الصادية ، والأرواح المتلهفة ، وهدى به الإنسانية الضالة ، والآدمية المشردة ، والعقول المترددة ، والأفكار

---

١ — الأرض القاحلة السبخة التي لاصلاحية فيها للانبات

المضطربة ، والعقائد الشاكة ، والآراء التي لا تستقر على حال ، ولا تركن إلى ظن ، ولا تطمئن إلى وهم ، ولا تؤمن بشريعة ، ولا تثق أبداً في دستور ، ولا تعترف بنظام ، ولا تذعن لسيادة . . . وكأنما كانت معه على ميعاد ، فإنه لم يكد يبسط ظاله عليهم ، وينشر رايته فيهم ، ويدوي بصوته بينهم ، حتى استقبلوه بلهف [١] ، وعانقوه بشوق ، وأخذوه برغبة ، وتأملوه بإمعان ، وقرأوه بخشوع ، ورددوه بأدب ، وتفهموه بحكمة ، وجعلوه الصديق الصدوق ، والناصح المخلص ، والأستاذ المربي ، والفلسفة الرشيدة ، والفصاحة النادرة . والمعلم الصحيح ، والدستور الحق ، والحجة القاطعة ... ولم يشك المنصفون منهم في أنه ترميم وبناء ، وتدعيم وقوة ، وتهذيب وإرشاد ، وتقويم وإنقاذ ، وفقة ومعرفة ، وصل ما بينهم وبين أنفسهم ، وربط ما بينهم وبين خالق السموات والأرض ، ورسم لهم خطوط المعاش والمعاد ، والدنيا والدين ، والحياة والموت ، وأذال عنهم غشاوة الجهل ، وظلمة الخرافة ، وحجاب الأمية .. جاء على نمط كلامهم ولكنه وصل إلى القمة التي لا يصلون إليها ، وأخذ بزمام حواسهم فصاروا لا يحسكون عليها ، ولهذا قالوا سحر مبين . وقالوا شعر رصين . وقالوا أساطير الأولين « ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد » ... وظل الرسول صلى الله عليه وسلم معهم ثلاثاً وعشرين سنة يقرؤه عليهم ، ويعلنه فيهم . فما سئموا له جرساً . ولا كرهوا له صوتاً . ولا بغضوا له نغماً . ولا استثقلوا له

---

١ — شدة شوق ورغبة.

كلما ، بل كانوا يتشوقون إليه ، ويترامون عليه ، وينتظرونه انتظار الأرض الجدبة للغيث الهاطل ، وما طلبوا حكما إلا وجدوه فيه ، ولا رأيا إلا أخذوه منه ، ولا سياسة إلا وقد رسمها ، ولا قانونا إلا وكان صاحبه ، ولا إصلاحا إلا وكان الموحى به ، وظلت دراستهم له ، وبحثهم فيه ، وعلمهم به ، تمتد ولا تتناهى ، وتسترسل ولا تنقطع ، وتمعن ولا تبعد ، حتى لم يتركوا فيه مجالا لمتأخر ، ولا موضعا لواغل ، ولا نقصا يتداركه عليهم أجنبي . وذلك كله كان بلسانهم العربي ، وذوقهم الأدبي ، وأسلوبهم البلاغي ، وكأنما كانت تعدهم حياة الصحراء له ، فازدادوا به بيانا ، وثقفوا به لسانا ، وقووا به إيمانا . . . وقد انقطع المسلمون له ، وتخصصوا فيه ، وتناوله كل واحد من الجهة التي أحب أن يتناوله منها ، وبذلك صار معينا[1] لا ينضب لرجال الأدب ، وأساطين البيان ، وعلماء النقد ، وفلاسفة الاجتماع ، وجهابذة القانون ، وأقطاب السياسة ، وأساتذة العمران ، وأعلام التشريع وشيوخ الفقه ، وقادة الفكر ، وغير هذا وهذا مما صيره ذخيرة للتراث العربي الإسلامي لا يضارعه تراث أكبر الأمم في الحضارة ، ولا أكثر الشعوب في الفكر ، ولا أضخم الدول في العقل ، ولا أوسع البلاد في المدنية . . . وقد كان من جراء البحث فيه ، والنظر إليه ، والاشتغال به ، وأخذ الأحكام منه ، والاهتداء بسننه في التشريع ، وطريقته في علاج المشاكل وطب القلوب ، وأدب النفوس ، وتهذيب الأخلاق ، وتربية العقول ، أن اختلفت فيه وجهات النظر ولكن في غير تباعد ، وتباينت أساليب

---

١ — معين الماء مصدره الذي هو منه

الفهم ولكن فى غير تضارب ، وتشاحنت العقول ولكن فى غير بغضاء ونجم عن هذا كله مذاهب الأئمة ، وآراء المجتهدين ، وكلها بيان وهدى وإيضاح وفهم ، وعلم ومعرفة ، وثقافة وتهذيب ، ورى للظمأ ، وشفاء لما فى الصدور ؛ والمصدر الثانى للتشريع الإسلامى بعد القرآن . .

السنة النبوية :

على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم وهى فيما يقول العلماء الأعلام ما صح ثبوته عنه من قول أو فعل أو صفة أو تقرير وليست لقصور فى القرآن قد تداركته ، ولا لنقص كملته ؛ ولا لغموض كشفته ؛ غير أنه فى تعرضه للأحكام ؛ وبيانه للتكاليف ؛ وكشفه للحقائق ؛ ووفائه للغرض ؛ ربما كان كليا يحتاج إلى تفصيل ؛ أو مبهما يحتاج إلى إيضاح أو عاما يحتاج إلى تخصيص ؛ وهى — حينئذ — تشرحه شرحا مفصلا وتبينه بيانا شافيا ؛ وتبسطه بسطا كافيا ، وتحدد معالمه ، وترسم حدوده أو تأتى بالناسخ لبعض أحكامه ، والعمل بها عمل بكتاب الله ، لأن مصدرهما واحد ، وطريقهما لم يختلف ، نزل بها جبريل كما نزل بالقرآن ولقنه إياها كما لقنه به ، وإن اختلفت الحقيقة ، وتباين القصد ، لأن القرآن أوحى إليه لفظه ومعناه ، لا تبديل لكلماته ، ولا تقديم أو تأخير فى جمله وعباراته ، ولا زيادة أو نقص فى حروفه « تنزيل من حكيم حميد ، وهو إلى جانب هذا التحدى للعرب الذين كانوا دهاقين[1] البيان ، وفرسان البلاغة ، ورجال القول ، وفحول اللسان ، وأساتذة المنطق يتعبد المسلم بتلاوته ، ويتمم به صلاته . . . أما السنة فإنها — مع الإجلال والاحترام — لم تكن للتحدى ، ولا للتعبد

١ — واحدها دهقان كانسان وهو عظيم القرية أو رئيسها

و نزلت على غير هذا النهج إذ جاء بها جبريل فى حدود المعنى ، ونطاق الغرض ، وترك للرسول الأمين حرية التصرف فى النسج ، والافتنان فى التعبير ، والصياغة للفظ . . . والحديث القدسى كالقرآن من ناحية كونه لفظا ومعنى من الله إلا أنه يخالفه فى أنه لا يتحدى به ، وفى أنه ليس للتشريع ، بل هو ترغيب وترهيب ، ووعظ وإرشاد ، وتخويف من المآل ، وتزهيد فى التعلق بالدنيا التى لا يدوم لها صفو ، ولا تربح فيها تجارة ، ولا ينجو من رداها إنسان . . والسنة النبوية والحديث القدسى والقرآن تتلاقى كلها عند مصدر واحد وهى أنها من عند الله « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى » .. وقد ضل جماعة أنكروها وقالوا لنا فى القرآن غنى ، وفى تشريعه كفاية وفى أحكامه ثروة ، وفى آياته شفاء ، لا نرضى به بدلا ،ولانبتغى عنه حولا ، مع أن القرآن نفسه يرد هذا الزعم ، ويفند ذلك القول ، ويكذب أمثال تلك الادعاءات ، إذ يقول « إنا أنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » ويقول النبى صلى الله عليه وسلم « أوتيت القرآن ومثله معه » وروى الأوزاعى عن حسان بن عطية قال . . كان الوحى ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحضره جبريل بالسنة التى تفسر ذلك . .

والله الذى أعجز بالقرآن الصناديد ، وتحدى به الفحول ،وقلب الأوضاع ، وغير النظم ، وهذب الأفكار ، وقوم الطباع ،وربى النفوس وأظهر الكفايات ، وعلم القيادة ، وفتح القلوب ، ورفع الرؤوس ، وأزال الإحن[1] وقضى على الفوارق ، ومحى العصبيات ، والتباهى

١ — واحدها احنة وهى الضغن والغضب والحقد والموجدة

بالأحساب والأنساب ، والمجاهرة بالمنكر ، والإعلان للرذيلة ، جعل محمدا ـ كذلك ـ نادرة عصره ، ومعجزة زمانه ، وحكيم قومه ، وأستاذ فلاسفة الدنيا ، إذ تفجرت منه ينابيع العلم ، وجرى على لسانه فصيح القول ، وعذب البيان ؛ وهو لم يتعلم فى مدرسة إلا الكون ، ولم يجلس إلى أستاذ سوى جبريل . . ولقد كان من أثر هاتين المدرستين ـ القرآن والسنة ـ فى شحذ أفكار المسلمين ، وإذكاء قرائحم ، وتنمية ملكاتهم ، وتهذيب عقولهم ، وتقويم آرائهم وتربية نفوسهم ، من ذلك الجدل الصاخب ، والبحث الدائب ، والنظر المستمر ، والبحث الذى لا ينقطع والدأب الذى لا ينتهى ، والعناية التى ملكت عليهم هواجسهم وظنونهم أن صارت لهم مسارب إلى الفهم ، ومسالك إلى الرأى : ومناح إلى الفقه . جعلت منهم كفايات ممتازة وجهوداً موفقة لا تلبث إذا عرضت لها حادثة لم تبين أمرها فى كتاب الله ولا سنة رسوله . أن تدأب لطلب الحكم لها على هدى مما عرفت ، وشا كلة مما فقهت ، وبصيرة مما علمت ، ثم لا تزال تكدح وتجد إلى أن تصل إلى نور تلمس المسلمون فيه مواضع قدامهم ، ومعالم سيرهم ، ولا يلبث أن يوافق عليه العامة والخاصة ، والقاصى والدانى ويسمى ذلك . .

الإجماع :

وهو اتفاق المجتهدين فى عصر من العصور على حكم من الأحكام لم يكن فى صريح آية من كتاب الله ، ولا فى صحيح سنة من هديه صلى الله عليه وسلم . . . وقد تيسر ذلك فى صدر الإسلام حيث لم تتسع رقعة البلاد المفتوحة ، ولم تقع بين المسلمين المسافات والأبعاد ، ولم تنعدم المواصلات ، وكانوا فى مكة والمدينة ـ عاصمتى الدولة حينئذ ـ يحسون

إحساسا واحدا ويشعرون شعورا مشتركا . ويعرف كل منهم ماعند أخيه من علم . وما لدى صاحبـــه من فهم ، وما يدين به من تأويل ، وما يعتقده من حكم ، وكان من السهل أن يجتمع سوادهم . ويتواجه فقهاؤهم ، ويتلاقى فحولهم ، يتشاورون ويتناظرون ، ويتجـادلون ويتباحثون ، ثم يكون بعد ذلك كله الإجماع على ماتلاقت قلوبهم عليه واطمأنت آراؤهم له ، ومالت نفوسهم إليه ، ورضيت خواطرهم عنه مادام هدفهم كلهم الوصول إلى الحق ونيتهم صـادقة فى الجرى وراء الصواب ، وضميرهم خالصاً فى التقرب إلى الله الذى لايدع عبـده فى حيرة ولا يتركه فى ضلالة ، ولا يسلمه لشك ولا يجعله يوما من الأيام فريسة للخرافة ، مادام متعلقا به راغباً فيه ، معتمداً عليه . . . ولم يزل المسلمون يعيشون على هذا الرصيد من العلم : وتلك المنابع من المعرفة ، أو هذه الموارد من التشريع ، مكتفين اكتفاء ذاتيا ، بما تدره عليهم من خير ، وما تسوقه لهم من فقه . وما تجلبه إليهم من أحكام إلى أن دوخوا بعض الأمم وامتدت بهم الفتوحات ، وجدت لهم أنظمة ، وحدثت أقضية ، وأخـــذوا بأساليب فى الحكم والإدارة والحرب والاجتماع والسياسة والتربية والتعليم ، وأحسوا بنقص د منابع التشريع الإسلامى » عن الحاجة ، وجمودها فى مسايرة الحياة الجديدة . ووقوفها عند حد محدود ، فى نظام الملك والسلطان،وكانت الأفكار قد نضجت ، والعقول قد توثبت ، والآراء قد استنارت إذ عللوا الأحكام ، وبحثوا عن حكمة التشريع ، وعرفوا أن العلة تدور مع الحكم ، وأن الدين يسر لا عسر . وأن روح الإسلام فى تكاليفه قائمة على درأ المفسدة وجلب المصلحة .وأن دستور الجماعة عنده قائم على أنه لاضرر[1] ولاضرار وهنالك

١ — الضرر الذى ينالك والضرار الذى تلحقه أنت بغيرك من الناس

نهضوا نهضة أخرى فى الفهم ، وخطوا خطوة ثانية فى التشريع ، وتطوروا تطوراً حديثاً فى طلب منابع جديدة كانت بمثابة الروافد للكتاب والسنة والإجماع وهذه المنابع التى نقول إنها . .

روافد لمناهج التشريع الإسلامى :

من حتمنا أن نسميها منابع ثانوية، وأن نسمى المنابع المتقدمة منابع أولية ـ أو أصليه ـ لأن اشتغال المسلمين بالنظر ، وولوعهم بالبحث ودقة فهمهم للنص ، وحملهم اللفظ على المعنى . ومحاولاتهم الوقوف على سر التشريع ،وعلة الحكم مما ساعدهم على الوصول إلى تلك « الروافد » التى استعانوا بها على وجود الحكم ، وعولوا عليها فى القول بالحل والحرمة والجواز والمنع ، والثبوت والنفى وهذه هى القياس والاستصحاب ومراعاة العرف وسد الذرائع والمصالح المرسلة والاستحسان .

القياس :

عبارة عن كون المجتهد حين يعوزه الحكم فى مسألة من المسائل ، أو حادثة من الحوادث ، يعمد إلى مسألة أو حادثة ثبت حكمها بنص قاطع لا يحتمل التأويل ، فيثبت حكمها لتلك التى أعوزه الحكم فيها ، ما دامت العلة فيهما واحدة ، ويعرفونه بقولهم إثبات حكم الأصل للفرع لاشتراكهما فى علة الحكم ، وذلك كتحريم النبيذ — حملا على الخمر — لاشتراكه مع الخمر فى علة التحريم ، وهى غيبوبة العقل ،وفقدانها للوعى وتغطيتها على القلب ، وذهابها للرشد ، وقد استخدمه الفقهاء كثيراً فى إثبات الأحكام ، ومعرفة الحلال والحرام فى مسائل كانت تخفى حقيقتها وتشتبه وجوهها ، وعلى الرغم من أنه لا اجتهاد — بمعنى الكلمة — إلا بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم ، حيث كان الوحى ينزله

بالأحكام ، ويجيء بالحلال والحرام ، فلم يكن التشريع بحاجة إلى قياس الأمور بعضها ببعض ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما أرسل بعض أصحابه للقضاء فى بعض الأطراف من بلاد العرب قال له بم تقضى ؟ فقال له بكتاب الله ، فقال له فإن لم تجد الحكم فى كتاب الله ، فقال أبحث عنه فى حديث رسول الله . . فقال له فإن لم تجد ، فقال له أبحث فى فتاوى الصحابة ، وأحكام القضاة الذين قضوا فى المشـــاكل أو الحوادث . . فقال له فإن لم تجد . فقال له أجتهد فى الرأى ، وأقيس الأشباه بالأشباه ، والنظائر بالنظائر ، فعانقه وقبله ، وقال له الحمد لله الذى هدى رسول رسول الله إلى البر ، وعلمه الفقه ، وبصره بالصواب ويحتم بعضُ الفقهاء أن يكون القاضى ممن له أهلية الاجتهاد ، ليرجح الأقوال ، ويستنبط الأحكام ، ويوازن بين الآراء ، ويحسن اختيار الفتاوى ، ويعرف مصدر التشريع . .

الاستصحـاب :

مصدر من مصادر التشريع لكثير من الأحكام —كذلك— وهو فى النظر الصحيح رجوع بالأشياء إلى الحالة المتيقنة التى ثبتت لهـا قبل الشك ، وهو مظهر من مظاهر اليسر والسهولة ، ودفع المشقة ، التى هى إحدى خصائص هذا الدين ومزاياه ، لأن الشك لو اقتضى المسلم أن ينقض عمله الأول ، ويضرب صفحاً عن الجهد الذى بذله ، حمله ذلك على العناء ، وكلفه بالشطط[1] ، وربما بعث فى نفسه الملالة والسـأم ، فكره العبادة ، وزهد فى طاعة الله وامتثال أوامره ، ومنه قولهم . . الأصل بقاء ما كان . . وقولهم الأصل فى الأشياء الإباحة . . ومن

١ — تجاوز الحد

صوره أن يتوضأ المتوضىء ثم يعتريه الشك بعد ذلك هل أحدث حدثا فإن هذا الشك لا يؤثر فى اليقين ، والفقه الإسلامى يرى أن الأصل المتيقن باق ، ويسمى هذا الرجوع إلى الأصل المتيقن الاستصحاب ، أو استصحاب حكم الأصل ، على معنى أن حكم الأصل مصاحب للرجل الشاك لا يفارقه وتترتب عليه الأحكام الثابتة له من صحة الصلاة وجواز مس المصحف ، وقراءة القرآن ، وسجود التلاوة ، وغير ذلك مما هو مشروط فيه الوضوء

مراعاة العرف فى الأحكام :

من المبادىء المقررة ، والأصول المعترف بها ، وعلماء الأحناف يحكمون العرف فى كثير من الأشياء ويجعلون الرأى له ، والقضاء على وفقه ، فيقولون — مثلا — الأيمان مبنية على العرف ، فلو حلف لا يأكل لحما فأكل سمكا لم يحنث ؛ وإن كان القرآن سماه لحما إذ يقول امتنانا على العباد بالبحر الذى تجرى الفلك فيه بأمره ، والذى يستخرجون منه حلية ، « تأكلون منه لحما طريا » ولحم البحر ليس إلا السمك . . وهكذا نراهم يقولون جرى العرف على كذا اعترافا منهم به ، ويقول قائلهم « والعرف فى الشرع له اعتبار » وهو — أيضا — لون من ألوان مرونة التشريع ، وخضوعه للعادات التى ألفها الناس ما دامت غير منكرة . .

سد الذرائع :

أى منع أبواب الشر ، وإيصاد وجوه الفتنة ، وغلق سبل الفساد صونا للمصلحة ، وضمانا للخير ، وجلبا للنفع . وصورته أن يتأكد المشرع أن مباحا من المباحات يعود على المسلمين بالوبال ، أو يرجع

اليوم بالضرر ، أو يجنى لهم الأذى ، وحينئذ يتحتم عليـــه أن يعطيه حكم الحرام ، وأن يتناوله بالنهى ، ويضفى عليه اسم الممنوع .. كما إذا تبين له أن المرأة العجـوز التى تخرج لصلاة الفجر تستغل خروجها للصلاة استغلالا سيئا ، فإن له حق منعها من الخروج وإن كانت صلاتها فى المسجد وحضورها الجماعة فى أصل التشريع لا يتناولها حكم المنع .. وعلى ذلك يكون سد الذرائع معناه إعطاء المباح حكم الحرام إذا أفضى إليه ، وحمل عليه ، كتحريم بيع الخمر والاتجار بها لأنه يؤدى إلى شيوعها وتداول شربها ، المنصوص على النهى عنه ، وكالدلالة على إنسان ليقتله الظالم ، وكمناولة السكين لمن يسفك بها دماً حراماً . وهكذا تأخذ الوسيلة حكم الغاية . .

المصالح المرسلة :

وهى لابد منها لصـــلاح حال الفرد أو الجماعة ، والإسلام لا يعارض ــ بحال من الأحوال ــ ما يعود على الإنسان بالخير ، وما يرجع إلى الجماعة بالفائدة ، لأنه غنم للأفراد ، وحيـاة الأمم ، ونهوض للشعوب ، وسعادة للآدميين أجمعين ، إلا أنه قد يكون صريح النص من الكتاب أو السنة أو مما ثبت فى الاجتهاد لم يتناول هذه المصلحة بالذكر ، فى حين أنه لابد منها ، ولا غنى عنهـا ــ أخذاً من القواعد العامة أو الأحوال المقررة ــ لأن الأحكام الشرعية قائمة على جلب المصالح ، ودرء المفاسد ، وقد يكون فى الشىء مفسدة ومصلحة. إلا أن المصلحه أقوى . وحينئذ يراعيها المشرع ، ويغلب جانبها ، وذلك كقتل النفس فى الجهاد ، فإنه مفسدة لأننا أمرنا بحفظ النفس وصونها من التلف ، والنأى بها عن مواطن الهلكة ... إلا أن هنالك مصلحة

أقوى . ونفعاً أعم ، وهو صيانة الدولة ، والدفاع عن حوزة الإسلام ..
ومن المصالح ما لم يثبت بنص مثل قتل الجماعة فى الواحد ، فإن الشارع لما قال « كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى » لم يقض فى النفوس التى تقتل نفساً ، إلا أن المصلحة لما كانت واحدة قضى المجتهد بقتل الجماعة فى الواحد ، زجراً لمن تحدثه نفسه بالقتل ، ونهياً لمن يدور بخلده العدوان ، وكفاً لمن يتطاول على قداسة المجتمع . .

الاستحسان :

نوع — أيضاً — من المصلحة إلا أنه فى الأصل أن تكون المبادىء الكلية التى يأخذ بها المشرع ربما تأبى هذه المصلحة فى حين أنها مصلحة لا محالة ، وذلك مثل السلم الذى هو بيع معدوم بموجود ، فإن القياس يأباه ، ولكن المصلحة لما كانت دافعة إليه ، والحاجة حاملة عليه ، جوزه الفقهاء استحساناً . . . وهو على هذا الأخذ بما تقتضيه المصلحة . أو بعبارة أخرى اعتماد الحكم على أرجح الدليلين . أو ترك القياس الجلى بدليل أقوى منه . . . . وفى كتاب « رسائل الإصلاح » للمرحوم الشيخ الخضر حسين « وروى محمد بن عبد العزيز العتبى عن ابن القاسم أن مالكا قال تسعة أعشار العلم الاستحسان . وقال ابن خويز وقد عول مالك على الاستحسان فى تقرير كثير من الأحكام . ويعارضون به القياس . فيقولون — فى بعض الأحكام — هذا ما يقتضيه الاستحسان وهذا ما يقتضيه القياس ، وحملوا قول الشافعى « من استحسن فقد شرع » على الاستحسان الذى لا يعتمد على حجة . ولا يستند إلى دليل . ولا يدخل تحت قاعدة عامة

من القواعد المقررة عند علماء الفقه الإسلامى . فإنه الاستحسان الذى ينبىء عن جهل . ويدل على الهوى . والدين من مصادر ثابتة . وأصول سليمة . ونصوص صحيحة ..

ومن تلك المنابع التى عرفنا أن التشريع الإسلامى يأخذ منها . ويستمين بها ويعول عليها . ندرك إلى أى حد هو تشريع خصب . لا تضيق حظيرته ، ولا تجف زهرته ، ولا تنفد ثروته .. كما ندرك — كذلك — أن بابه مفتوح لكل مجتهد ، فلا يحتكره قوم دون قوم ، ولا ينفرد بالبحث فيه ، والعلم به ، والفهم له ، جماعة بعينها ، لأنه لا يعترف بالكهنوتية ، ولا برجال الدين الذين يقتسمون رحمة الله ، ويوزعون صكوك الغفران ، ولا يعترف — أيضاً — لأحد بجاهه وسلطانه ، ومكانته وماله ، وحسبه ونسبه ، بل يقول لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ..

ونحن من فهمنا لهذه المصادر التى تمد التشريع بالثروة والغنى ، والمعونة والزيادة ، والخير والفضل ، لانشك بعض الشك ، فى أنها تستطيع مواجهة الطوارىء ، ومجابهة الحوادث ، وموافقة الرغبات ، ومعالجة المشاكل ، ومناهضة عوامل الانحلال والضعف فى كل زمان ومكان ، فلا يستطيع مجتهد أن يقول إن الشريعة الإسلامية يضيق صدرها عن شىء من الإصلاح ، أو يجف معينها عن معنى من العمران ، أو تقف حجر عثرة فى سبيل تقدم أو انتعاش ، بعد أن عرفنا أن مجال الاجتهاد فسيح ، وأن روافد منابعه الأصلية لا يعجزها أن تجعله من المرونة والمطاوعة بحيث يسير مع التجديد الذى تسوقه المدنيات ، وتأتى

به الحضارات ، مادام لا يتنافى مع مبادئه المقررة ، وأصوله المسلمة ، وقضاياه المعروفة ... وأن بعض الجهلة من المسلمين كانوا يريدون الجرى فى ركاب الحوادث والمناسبات ، فلا يجدون سبيلا إلى ذلك سوى أن يحملوا الشريعة مالا تطيق من المبادىء والأصول ، زاعمين أنه ليس فيها نص على كذا ، أو اعتراف بكذا ، كأولئك الذين كانوا يقولون — أخيراً — ليس فى الإسلام ملكية فردية . وأن الملكية لله وحده ثم يستدلون على هذا بأمثال قوله — جل جلاله — ولله ميراث السموات والأرض ، وقوله وأن الأرض لله ، وقوله من مال الله الذى آتاكم ، وقوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، وقوله والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ماملكت أيمانهم فهم فيه سواء ... وغير ذلك كله من كل مايدل على الملق وفساد الضمائر ، وبهذا كانوا يخبطون فى ليل مظلم ، ويكشفون عن سوء الدخيلة ، وعدم المعرفة الصحيحة . .

الإسلام غير جامد

وعلى الرغم من هذا الذى سقناه عن يسر الإسلام وسهولته ، ومطاوعته للحوادث ، ومجاراته للزمن ، ومسايرته للمدنيـة ، فإننا نسمع فى كل وقت من بعض المثقفين الذين درسوا دراسات مدنية ، ولم يأخذوا من الدين بنصيب يجعلهم على بصيرة تؤهلهم لفهمه الفهم الصحيح ، وتساعدهم على الحكم على قضاياه ومسائله حكم المستنيرين فيه الخبيرين بأسرار تشريعه ، العليمين بروح نصوصه ، نسمع من يقول إنه جامد غير متجدد ، وربما وجد هذا اللمز من يصغى إليه إصغاء المعجب له ، المفتتن به ، المستريح إليه . لأن كلمة جديد وتجديد من الكلمات البراقة ، والألفاظ المعسولة [1]، التى تجد رواجاً عند الشبان المتطلعين ، والفتيان المتوثبين ، ونحن لانمارى فى أن لكل جديد لذة ، وأن النفوس البشرية — دائماً أبداً — تستقبل الجديد بالرضا والارتياح ،كما تستقبل القديم بالإعراض والنفور . . لكننا نمارى المماراة كلها أو بعضها فى أن التجديد طابع الحياة على طول الخط ،وأن الجديد من الأشياء حبيب إلى النفوس مادام جديداً . فهنالك من الأشياء ما تتمكن منزلته عند الإنسان . وتزيد قيمته . ويرتفع قدره . بطول عهده . وقدم زمنه . وتراخى أجله ... والنظر القصير هو الذى

---

١ — المنمقة كأنها مخلوطة بالعسل نستريح اليها النفس كما تستريح للمطعوم الحلو ..

يكون تقديره وحكمه ، واحترامه وإعجابه ، وتعلقه وحبه ، منبعثاً عن بريق ولمعان ، أو حداثة وطرافة ، وشباب وفتوة . ولا يصح للعاقل أن يكون منطحياً فى حكمه على الأشياء إلى هذا الحد ، وبخاصة إذا كان الحسن ذاتياً غير طارىء . أو معنوياً غير عارض . . والذى يعرف أن الدين الإسلامى منهج وضعه اللطيف الخبير لكل زمان ومكان يعرف أنه لايتجدد لكل يوم جديد ، ولا يحدث لكل زمن حادث ، ومثله فى ذلك مثل الميزان للأشياء لايتجدد ولكن الذى يتجدد الموزون ، ومثل العقل الإنسانى لا يزيده قدمه إلا نضوجا ، ولا يكسبه طول التجارب إلا اكتمالا ، ولا يمنحه تراخى الزمن إلا رسوخا ، يحكم على الحوادث الجديدة ، والطوارىء المتكررة ، ولا يضيره أنه سبقها فى الوجود ، وتقدمها فى العمر ، وربض فى مكانه من الجمجمة قبل أن تكون . . . ولو كان الإسلام يختلف اعتباره للأشياء ، وحكمه على الحقائق ، وتقديره للأمور ، كما يختلف بعض الناس فى اعتبار الفضيلة والرذيلة ، لجاز له أن يجدد الاعتبار والحكم ، ولحقته الذبذبة والتردد والاختلاف والتغيير ، والإثبات والنفى ، ولكان من حقه أن يجدد لكل يوم جديد رأيا ، ولكل حادثة جديدة حكما ، وصح له أن ينقض فى الغد ما أبرمه بالأمس ، كما يصنع المجانين فى حكمهم على الأشياء وفى اعتبارهم للفضيلة والرذيلة باعتبار الزمان والمكان والشخص الذى تصدر عنه ، أو تجىء منه . . . لكن الإسلام بعد أن وضحت معالمه فى الحق والباطل ، والصدق والكذب ، والخير والشر ، والحسن والقبح ، والرشد والغواية ، والطاعة والمعصية ، والهدى والضلال ، والنور والظلمة ، لايختلف اعتباره للفضيلة والرذيلة باختلاف الزمان والمكان

والشخص ، والمحارم — عنده — حمى الله من يوم أن خلق الدنيا
إلى أن تزول ؛ والشخص المقترف مذنب ، ولو فاطمة بنت محمد كما
قال ذلك سيد البشر صلى الله عليه وسلم . . وما جاء فى الحديث حياتى
خير لكم من قوله « تحدثون وأحدث لكم » أو قوله « إن الله يبعث
على رأس كل مئة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها » ليس معناه
« التطوير » والتجديد ، ولكن معناه الظهور ، وكشف النقاب عن كنز
كان مخبوءا ... لأن الحكم على الأشياء بكونها حلالا أو حراما ؛
وجائزة أو ممنوعة ، أثر خطاب الله تعالى المكلفين ، والخطاب قديم ؛
وإذا صح لنا أن نفسر التجديد بالمرونة وتمشيه مع الحوادث ، على معنى
أن المجتهد لا يعدم أن يجد للحادثة حكمها ، من تلك الثروة الضخمة من
منابع التشريع الإسلامى ، فإن الإسلام دين متجدد يسير مع الزمن ،
ولا يتعارض مع الحضارة ، ولا يتعادى مع الرقى والعمران .

وإذا كان لواحد من هؤلاء المتحللين أن يتهم هذا الدين بالجمود أو
الرجعية ، فإنما يكون ذلك نوعا من الحقد عليه ، والكراهية له ، والتعنت
معه ، لأن الدين الذى يكون تشريعه دائراً مع المصلحة ، ومرتبطاً بما يعود
على المكلف بالخير ، أو يأتى له بالفائدة ؟ لا يكون جامداً إلا عند الحمق
ولا يكون رجعيا إلا فى اعتبار المعرورين .... ولكن المصلحة والخير ،
والفائدة والغنم ، وما سوى ذلك من الكلمات التى تنطوى على عائدة
تعود على الإنسان لا تخضع لتقدير الأطفال ، ولا تنزل على حكم السفهاء
إنما يحددها الدين نفسه فى نطاق ما يرى أنه خير أو شر ، وحسن أو قبيح
وأنها صون للنفس والمال والعرض . . أما الشهوات « البوهيمية »
والنزوات الشيطانية ، والميول الطائشة ، والرغبات الحقيرة ، فإن الدين

لا يحاربها ، ولا يستجيب لها ، بل يحاربها حرباً لاهوادة فيهـــا ، ولا رحمة معها . . .

على أن الدين الجامد هو الذى يعارض ميلا من الميول ، أو رغبة من الرغبات ؛ فهل يستطيع من يتهمون الإسلام بالجمود أن يدلونا على ميل أو رغبة كان للإسلام هجوم عليه ؛ أو محاربة له ، وإذا قلنا ميل أو رغبة فإنما نقصد ما تقصد إليه النفس المعتدلة ، والفطرة السليمة ، والإنسانية المهذبة ، والعواطف النبيلة ، ولسنا نقصد الميول المسفة ، والرغبات الساقطة . . ولقد كان المعروف فى الأديان المتقدمة أنها كانت دائرة بين تقديس الروح والدعوة إليهـــا ، فلا تلتفت إلى المادة ، ولا تحسب حسابا للدنيا ، ولا توجه الناس إلى أن ينتفعوا بالحياة . . وبين احترام المادة ، والدعوة إلى الحطام الفانى ، وربط الأفراد بكل ماهو جسم ؛ يقدسونه ويحصلون أسبابه ووسائله ، ويلتمسون أبوابه وطرقه ؛ فلما جاء الإسلام ، ورأى على ضوء التجارب النفسية للطبائع البشرية ، أن الآدمى ينزع إلى المعانى الروحية حينا من الزمن؛ كما يتطلب الأشياء المادية ويهفو إليها حينا آخر ، جعل دعوته قائمة عليهما « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا » . . .

فمن دعوته للمادة والتسلط عليها بالقـــوة ، وتسخيرها بالإرادة ، والانتفاع بها فى حدود الطاقة قوله تعالى « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحـــين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون » وقوله « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم

فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين، وقوله «ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش لعلكم تشكرون» . . . والحديث عن تسخير البر والبحر ، والدواب والأنعام ، والشجر والمدر[١] ، والريح والهواء وغير هذا وهذا أكثر من أن تحصى آياتها فى القرآن . . وهو فى هذه الدعوة الصريحة للمادة ، والأخذ منها ، والانتفاع بها ، ينزل على رغبة الناحية البشرية فى الإنسان «زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة[٢] والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا» . . .

وفى هذا الوقت الذى يقدس فيه المادة ، ويدعو لها ، ويرضى النزوع البشرى إليها ، يدعو — كذلك — إلى تربية الروح ، وإشباع رغباتها ، وإرضاء ميولها ، فيجعل الاعتكاف شعيرة[٣] من شعائره ، حيث ينقطع المرء عن الناس ، ويتفرغ من العمل ، متأملا فى صنع الله الذى أتقن كل شىء خلقه ، مفكراً فى ملكوته الواسع ، وسلطانه المتمكن ، وكونه الممدود ، وكانت فريضة الصوم إعداداً عملياً لسيطرة الروح على الجسم ، وترفع المرء عن الشهوة ، واحتقاره لطغيان المادة على الناس . . . وهو من أجل هذا التهيأ الروحى نراه يسلك لذلك طريقين . .

الأول : أنه يستعمل الخيال الشعرى فى تصويره للأشياء ، أو

---

١ — الحصى الدقيق

٢ — المعلمة من السمة بمعنى العلامة

٣ — من شعائر الاسلام بمعنى فرائضه ونسكه

حكمه عليها ، وأخذ المكلف بها ، أو تركه لها ، وتزهيده فيها ، مثل قوله « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه » وكقوله « الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم » وكقوله « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها (٢) كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار » وكقوله « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم (٣) وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط (٤) وأثل وشيء من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما آمنين فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم وجعلناهم أحاديث ، ومزقناهم كل ممزق إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » . . فأنت تراه يعلو بخيالك ويهبط ، ويرتفع وينحدر ، ويطير ويحلق ، ويستعرض الأحياء

١ — الفجوة النافذة فى جدار البيت
٢ — ثمارها
٣ — من اضافة الشيء الى وصفه والمعنى السيل الشديد
٤ — الخمط ضرب من شجر الأراك

والموتى ، ويصافح السماء والماء ، ويوقظ التاريخ ، ويقلب صفحات الزمن ، ويثير شعورك وحسك ، وظنك وحدسك ، ويلهب تفكيرك ، ويستلهم تصويرك ، ويعيش بك فى جوشعرى من الطراز الذى لا تظفر به إلا فى عالم الأحلام والرؤى . .

الثانى : أنه يجرى، فى الخطاب على سنن يهيج فى المسلم نخوته وعواطفه وإنسانيته وعطفه ، وشفقته وحنانه ، كقوله « أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » وكقوله « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا » . .

والإسلام الذى يربى المسلم هذه التربية التى تجمع بين الروح والمادة ، يحاسبه على خلجات نفسه ، وهواتف قلبه ، وما يضمره للناس من حب أو بغض ، ورضى أو سخط ، وهو فى هذه التربية يلتزم الحد الوسط ، فلا يبالغ فى تلبية حاجات الروح ؛ إلى حد التواكل والعجز ، ولا يتجاوز المعقول فى الخضوع للمادة إلى درجة السعار والجشع ؛ لأنه لا ينظر إلى الحياة الروحية على أنها كمال مطلق ، ولا ينظر إلى الحياة المادية على أنها المثل الأعلى للذة الدنيا ، فإن الانسان مهما أرضى جسده لا يهمل نفسه ؛ ومهما تنكر لروحه لا يستطيع أن يغضبها ، فلابد أن يوافق بين الجانبين ، ويلاحظ الطرفين . . .

سياسة الإسلام في التشريع

وللإسلام فى علاجه للمشاكل ، وقضائه على الأمراض ، ووقوفه فى وجه الانحرافات التى تتهدد الأفراد أو الجماعات سياسة جادة وأسلوب حازم ، بجعل السير على السنن السوى ، وانتهاج الخطة المثلى ، من الأمور الفطرية التى لا تجافى الغرائز ، ولا تحارب الميول والاتجاهات ، ولا تترك فى نفس المسلم أثرا سيئاً من جراء تركه لما كان عليه من سلوك سابق كانت نفسه قد ألفته من قبل ، أو اطمأنت إليه ، وهو فى هـذا أشبه بالطبيب الحاذق الذى لا يعالج مريضه بالطفرة ، ولا يداويه بالوثبة المفاجئة . .

ومن الملامح العامة التى يشاهدها المتتبع لقضاياه ومسائله أنه يجرى دائما أبدا ـ فى هديه وإرشاده ، وتكاليفه وتهذيبه على ما يأتى . .

أولا : عدم الحرج أو المشقة ، حتى لا يمل المسلم من التكليف ، أو ينوء جهده بالواجب ، أو يلجأ إلى الترخص فى الفرار من المسئولية ومبدؤه العام فى ذلك كله ، قول الله تبارك وتعالى « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » . . ففى البذل العام ، والصدقة المندوبة ، أو استجابة الرجل لشؤون أهله ، وحاجات عياله ، يقول « لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر[1] عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله » . . وصح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه علم بما كان بعض أصحابه يقوم به من العبادة ، ويأتيه من طاعة ، ويتكلفه من عناء التبتل ، فلم يرض عن تلك المشقة المتجاوزة

---

١ ــــ ضيق

لحدود الاحتمال ؛ وأفهمهم أن الامتثال لايعنى الإرهاق [١] ، والطاعة لاتعنى الحرج ؛ والعبادة ليست شيئاً وراء السهولة واليسر ؛ ثم نصح لهم بقوله « اكلفوا من العمل ما تطيقون » . . وهكذا نرى الشارع الحكيم فى كل مناسبة ينادى بأن المشقة بعيدة عنه، والحرج أجنبى منه. ففى الصيام يقول « ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » وفى الوضوء « فإن لم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً » .. وهكذا يقول علماء الفقة الإسلامى بالرخص فى مسائل كثيرة ، وتكاليف متنوعة ، قصداً إلى التخفيف عن أصحاب الأعذار ، وأرباب الضرورات ، حتى لايدور بخلد المكلف أن المطلوب من إلزامه بالطاعات الإرهاق ، وقتل النفس ؛ مع أن الغرض الأساسى أن تظل حباله موصولة بربه ، وأن يبقى قلبه مشغولا بخالقه ، وأن تكون نفسه مملوءة بولاه ؛ ولذلك جاء فى الحديث النبوى الشريف « أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل »

ثانياً : يقدس العقل الإنسانى ، ويسمو بالتفكير السليم ؛ ويشيد بقدر المنطق الصحيح ؛ وقد كان اعتماده كله عليه ، ودعوته كلها إليه ، ولهذا لانراه يكتفى بتكرار كلمة يعقلون فى ثنايا آيات القرآن الكريم. فى مثل قوله « وما يعقلها إلا العالمون » وقوله « أم لهم قلوب يعقلون بها » لكنه يقدم العقل على الشرع عند التعارض . . ولأن للعقل هذا الاعتبار يربيه التربية القويمة بالنظر فى ملكوت الله ، والتأمل فى جليل صنعه ، وعظيم خلقه ، ويدعوه إلى الاتعاظ بمن مضى من الجماعات والشعوب ، والذى يتقصى القرآن الكريم يجد أكثر من ثلثه من هذا

---

١ — الاعنات والمشقة والتعب

القبيل ؛ كقوله في سورة الروم أو لم يتفكروا في أنفسهم ماخلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون ، أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » وقوله في السجدة « أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون ، أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز[١] فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون » وقوله في الغاشية « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت » وهو لا يقصد من وراء ذلك إلا إلى إعداد القوة المدركة التي ترفع الإنسان عن مصاف الحيوانات ، وتعرج به إلى مدارج الكمالات ، لينصف نفسه من الظلم ويسمو بها عن السفاسف . .

ثالثاً : لم يفصل الدين عن الدنيا ، لأن بأغى الدين إنما يبغيه في الدنيا ، والدين نفسه سياسية للجماعات ، وتهذيب للأفراد ؛ وتربية للشعوب ، ونظام لعلاقات الأمم وهو الذي يكبح جماح الضال ؛ ويكسر سعار الطامع ويحد من طغيان المتكالبين على هذا الحطام الفاني ليتدبروا معنى قوله سبحانه « وإن الدار الآخرة لهي الحيوان[١] » . .

---

١ — الأرض الجزر الخالية من النبات

١ — الحياة الكريمة الجديرة بالطلب

وما كان الدين بعيدا عن الدنيا إلا فى وهم الحمقى ، وخيال المخرفين ، وزعم المبطلين ، وأحلام الأطفال من الناس ... فإننا نعلم أنه جل جلاله لا يأمر بإقامة العدل بين الرعية ، وتدعيم الحق فى الأرض ، وإشاعة البر والخير ، والإنصاف والعطف ، والسلام والحب ؛ وما شاكل ذلك مما يمكن للسعادة ، ويشيع الأمن والاطمئنان ، ويجعل دنيا الخلق راضية مرضية ، إلا على أنها دين وطاعة ، وتكليف أو واجب ؛ ولهذا يصف المسلمين الذين يخدمون الدين بالدنيا فيقول « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، وما الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى أمرنا الله به إلا دليل قاطع على أن الدين يهيمن على الحياة ، ويسيطر على السياسة ؛ ويربط الناس بالناس فى الوقت الذى يربطهم بالله .. وقد كان صلى الله عليه وسلم إماماً للمسلمين فى دينهم ، وقاضياً لهم فى خصوماتهم ، وقائداً لهم فى حروبهم ، وحاكما عليهم فى دولتهم ؛ له سلطان الدين والدنيا معاً ، وكان الخلفاء الراشدون على هذا النهج ، وتلك الطريقة ، يحملون السيف والمصحف ، وأمرهم شورى بينهم »

رابعا : يدعو الإسلام فى كل مبدأ ينادى به ، أو رأى يجمع الناس عليه ، أو هدى يرغبهم فيه ، أو سنن يحاول أن يسلكوه ، أو خلق يريد أن يغرسه فى نفوسهم ، أو عادة تتمكن منهم ، إلى أن يلتزم الفرد حده والمجتمع حده ، تحت عنوان « لا ضرر ولا ضرار » فليس للمسلم أن يفعل فعلا يعود عليه أو على غيره بالإيذاء أو الخسارة ، أو الإيلام والتنغيص ، أو القلق والاضطراب ، أو الجزع والخوف ؛ ولهذا ينكر عليه القتل والسرقة ، والغصب والرشوة ، والخداع والتمويه ، والزور

والكذب ، والنفاق والرياء ، وإساءة استعمال السلطان والنفوذ ، والوظيفة والجاه ، ويقيم لذلك كله الحدود الرادعة ، والزواجر المانعة ، لأنه يقيم المجتمع الإسلامى على دعائم الاشتراكية الأصيلة ، بحيث لا تطغى الأنانية ، أو يتأصل الشعور بالفردية ، بل يعيش الناس كأسنان المشط فى الاستواء ، أو كالنفس الواحدة فى التئام الأهواء . .

خامساً : يعطى الإسلام الظن الغالب حكم اليقين دفعاً للعنت ، ومنعاً للحرج ، وتيسيراً على الناس ، وتقديساً لجهد العقل ، وسداً لباب القلق النفسى ، أو الاضطراب الفكرى ، وخوفاً من أن يستولى على الأفهام اليأس من رحمة الله ؛ إذا لم يصادف عملهم قبولا ، ولم تلق غايتهم وصولا ، ويجمع المجتهدون من علماء التشريع على أن الله لم يكلف المسلم إلا بما يغلب على ظنه صوابه ، ويرجح عنده ثبوته ، وفى كثير من المسائل تراهم يحكمون مثل هذا الظن ، ويجعلونه الفيصل فى الأشياء ، والرجل الذى يغلب على ظنه أنه لا يستطيع العدل بين الزوجات ليس له أن يزيد عن واحدة ، والذى يغلب على ظنه عدم العدل فى القضاء لا يتولاه ، والذى تعود الشك فى عدد ركعات الصلاة يعمل بغالب ظنه .. وهكذا يأخذ الظن الغالب حكم لليقين فى ثبوت الأحكام ، وصحة الأعمال ، وصواب التصرف ، وخلو الذمة من الواجب ، والتخلص من المسئولية .. وهو نوع من اليسر واضح تمام الوضوح

سادساً : يسوى الإسلام بين الرجل والمرأة فى التكريم والاحترام والتكاليف والواجبات ، والأوامر والنواهى ، ويعلق عليها من الأمانى والآمال ، فى صلاح حال المجتمع والنهوض به ؛ مثل ما يعلق على

الرجل سواء بسواء ، فيصون ملكيتها كما يصون ملكية الرجل ، ويصون حقوقها ، وينتصف لها كما يصون حقوق الرجل وينتصف له ، ويوجه إليها الخطاب ، ويلقى عليها المسئولية على اعتبار أنها نصف المجتمع ، فيقول إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات . والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات . والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم[1] والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ، ويجعل لها رسالة عظمى — فى الأمومة والمنزل — إذا نهضت بها وأحسنت أداءها ، كانت - بحق - شيئاً لابد منه ، وأمراً لا استغناء عنه . . ومع ذلك كله يوصى الرجل بها وصاة صادقة ، ويكلفه أن يوفر لها السعادة والنعيم ويجعلها تشعر شعوراً كاملا أن جنته تحت أقدامها . .

سابعاً . . لاينذر الإسلام معتنقى سائر الأديان بجهنم ، ولا يهددهم بالطرد من رحمة الله ؛ ولا يرى أنهم وقود النار يوم القيامة ؛ ولكنه يرى أن الذين استجابوا لرسلهم ناجون ؛ وأن الذين أدركوا محمداً فآمنوا به ناجون « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ؛ قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى[2] ؛ قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » ..

---

١ — كناية عن العفة وعدم ارتكاب جريمة الزنا

٢ — عهدى وذمتى

وقد أثنى الكتاب الكريم على طائفة المؤمنين منهم ، إذ يقول « ليسوا سواء .. من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . ويسارعون فى الخيرات . وأولئك من الصالحين ، وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين » . . . وهو دليل على تسامحه ، وعدم تعصبه . واعترافه لأهل الفضل بالفضل . وأهل الخير بالخير ، بصرف النظر عن سننهم الذى سلكوه ، وهديهم الذى اتبعوه ورسولهم الذى آمنوا به ، مع أن اليهودية كانت حرباً على النصرانية ؛ وكذلك النصرانية كانت حرباً على اليهودية ، وأدعى كل منهما أنهم أبناء الله وأحباؤه ؛ كما ادعى كل منهما أنه على شىء وأن غيره ليس على شىء ؛ وكان الصراع بينهما لا ينتهى . . .

ثامناً : لا يعترف الإسلام بالتفرقة العنصرية ، ولا الألوان أو الأجناس ، ولا الغنى والفقر ، ولا نباهة الشأن وخمول الذكر . وعنده أن الناس كلهم لآدم وآدم من تراب لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى . . وقد صح أن جماعة من أعيان الكفار ووجوههم جاؤوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم يعرضون عليه استعدادهم للإيمان به إيماناً لايخالطه شك . ولا يداخله ريب . ولا يصاحبه تردد . ولاتحوله ريح غرض تافه . أو هوى مسف . على شرط أن يقصى عنه هؤلاء الفقراء ؛ ليخلو لهم وجهه ؛ ويتسع لهم مجلسه ؛ ويكونوا هم خاصته وبطانته ؛ لأنهم لايرضون أن ينزلوا إلى مستوى أولئك الفقراء الذين يلبسون المهلهل من الثياب ؛ ولا أن يجلسوا فى مكان واحد مع جماعة لم

يجمع لهم من الثروة والمال ماجمع لهم . . وهنالك نزلت على الرسول صلوات الله عليه الآية « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شىء ، وما من حسابك عليهم من شىء ، فتطردهم فتكون من الظالمين ، وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين » فكانت أشبه شىء على الكفار بالصاعقة التى أصابتهم بالهلع والفزع ، والخوف والجزع ، وعلموا منذ تلك اللحظة « أن الغنى فى طاعة الله ، وأن العزة بالإيمان ، وأن الجاه المكذوب ، والسلطان الجائر ، والقوة المنهارة والرفعة الخداعة ، والمراكز المزيفة ، والكبرياء المفتعل ، هى التى تعتمد على المال ، أو تستند إلى الغنى .

تاسعاً : يرى الإسلام أن العمل الدائب . والتطلع الدائم ، والتقدم المستمر ، والمزيد من الخير ، والرقى الذى لا حد له ، والسبق فى ميادين الحياة ، شعاره فى الطاعة ، وعنوانه فى العبادة ، وطابعه الذى يتميز به على سائر الأديان ، وهو بهذا المعنى دين تقدمى لا رجعى ، ومتوثب إلى الأمام ، لا متقهقر إلى الوراء ، وهذا هو الرسول صلى الله عليه وسلم يعلن ذلك المبدأ فى كلمة قصيرة من جوامع كلمه إذ يقول « من استوى يوماه فهو مغبون » حثاً للمسلم على أن يكون فى يومه خيراً منه فى أمسه ، وأن يكون له من كل يوم يمر به درس ، ومن كل حادثة تصادفه عظة ، ومن كل جهد يبذله مزيد من الخير

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مرادها الأجسام

« ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه . . .

وقل أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون . . . فمن يعمل مثقال(١) ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »

ولعلنا وقد عرضنا لمنابعه فى التشريع ، وتحدثنا — كذلك — عن سياسته فى التشريع ، يدور بخلدنا هاجس اختلاف علمائه ، وتباين آراء ذوى الرأى من أهله ، فنسأل عن السبب الذى جعل فى المسألة الواحدة أكثر من مذهب ، وفى الحادثة الواحدة أكثر من حكم ، وفى القضية الواحدة أكثر من فتوى . . . . وقد سبق أن قلنا إن التشريع الإسلامى الذى كان يعتمد — أولا وقبل كل شيء — على الوحى ينير سبيله، ويرسم خطوطه ، ويبين معالمه ، لم يكن من الجمود بحيث يقف عند حرفيه النص — كما يقولون — ولهذا تفتحت للمسلمين آفاق بعيدة ، وأتيح لهم أن تحتك عقولهم ، وتتصارع أفهامهم ، وتتباين آراؤهم ، وكان هذا كله ذريعة(٢) إلى الاجتهاد الذى كان معينا فياضا للتشريع ، وثروة واسعة للفقه ،وغرسا يانعاً لكثير من الأحكام التى أخذها الأئمة من الكتاب والسنة ودلوا بها دلالة واضحة على أن هذه الشريعة غنية بذلك التراث الخصب الذى خلفه لها أمثال أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل وتلامذتهم من أولئك الذين وقفوا جهودهم لخير الإنسانية، ونفع المسلمين ، وبيان الحلال والحرام ، والحق والباطل ، وكل ماينير الطريق لسعادة الدنيا والآخرة . . .

---

١ — كمقدار وزنا ومعنى
٢ — الوسيلة الى الشيء

والمتتبع لهذه الحركة الفكرية فى الإسلام يجد أن المسلمين لم يكونوا فيها أصحاب هوى يحملهم عليه شهوة ملك أو جاه أو سلطان كما كان علماء الدين فى العصور السالفة الذين كانوا يحرفون الكلم، ويغيرون النصوص بل كان أصحاب المذاهب المشهورة يقولون إذا وافق الحديث ما نقول به فهو مذهبنا وإلا فاضربوا به عرض الحائط . . . وهكذا الجدل الذى يهدف إلى الحق ، والخلاف الذى يخدم الإنصاف . والنزاع الذى يكشف اللثام[1] عن وجوه الصواب ، يعلنه الإسلام . وينادى به ، ويشجع المسلمين عليه . ويغريهم أن يكثروا منه، لأنه عماده فى الوصول وعدته فى الأصول . .

---

١ — أصل اللثام الغطاء الذى يوضع على الفم

إنسانية الإسلام

يحكى القرآن الكريم عن الشرائع السابقة للأنبياء والمرسلين أنها كانت على أساليب متنوعة ، وأنماط مختلفة ، وطرق متباينة ، فيقول « ولكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » ويقول مثل هذا القول المؤرخون لتلك الشرائع ، والمتحدثون عن تلك الديانات ، على اعتبار أنها كانت « إقليمية » ترتبط بالمناخ الذى تكون عليه البيئة ، وبالعادات والطباع التى يكون عليها الناس فى هذا الوقت . . وكأنما كانت هذه كلها بمثابة الإعداد الأولى ، أو بمثابة فترة انتقال البشرية ، ونمو وعيها ، واتساع مداركها ، أو استعدادها العام لأن تتحول ميولها الفردية أو الإقليمية إلى ميول إنسانية عامة تتلاءم مع ذلك الدين العام الذى أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون للناس أجمعين . . وليس عمومه من ناحية أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعلن هذا العموم فى مثل قول القرآن على لسانه « إنى رسول الله إليكم جميعاً » وأن رسالته كما يقول العلماء صالحة لكل زمان ومكان ... ولكن ذلك — أيضاً — من ناحية أخرى جديدة على البشرية جمعاء ، وعلى المشتغلين بدراسة الرسالات التى سبقت الرسالة الإسلامية . . وتلك الناحية هى الناحية الإنسانية فى هذه الرسالة . . . والذى يدرس هذه الرسالة ، ويتبين الناحية العاطفية فيها يدرك إلى أى مدى هى إنسانية إلى أبعد غاية ، حتى ليكاد المسلم العاقل يفهم أنها رسالة لا تخصه هو وحده ، ولا يقف غرضها عنده وكفى ، ولا تنتهى تعاليمها

عند تكاليفه بالواجبات ، وإلزامه بالمأمورات ، وبخاصـــة إذا ما علم المغزى العام من هذه التكاليف والالتزامات ، فإنها لاتريد أن تشق عليه ، ولا أن تضنى جسده ، بمقدار ما تريد أن تهذب نفسه ، وترقق حسه ، وتهذب شعوره ، وتنمى فيه الميل العام إلى الشفقة والرفق ، والحدب والإحسان ، والبر والعطف . . . ولذلك كان القرآن الكريم فى خطاب المسلم يستعين دائماً أبداً بكلمة إنسان فيقول « يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه » ويقول « يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم » ويقول « إن الإنسان خلق هلوعاً » ويقول « إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » ، وما ذاك إلا ليتسع قلبه للناس ، ويلين جانبه للخلق ، وتحسن معاملته للبرايا ... وكانت عائشة رضى الله عنها تقول قال لى النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب الرفق فى الأمر كله » والرفق كما يفيد معناه اللغوى علاج الأشياء بيسر ، وأخذها بسهولة ، وتناولها بهدوء ، ودفعها بلين ، وبذلك لا يلحق أحـــداً منها ضرر ، ولا ينال مخـــلوقاً أذى ، ولا يصيب كائناً حياً شر ، وهو شىء من العنوان الكبير فى أخلاق النبوة العظيمة التى تحدث البيان الإلهى عنها فى قوله « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » . . . ولقد كان من سياسته صلى الله عليه وسلم التى تدل على إنسانيته أنه كان يعامل اليهود والنصارى الذين كانوا يجاورونه فى المدينة أحسن معاملة ، فما وجدوا منه عنتاً (١)، ولا أحسوا منه يغبن ، ولا شكوا منه ظلماً ، أو لاقوا منه اضطهاداً . . وكان يعلن إلى أصحابه رغبته الأكيدة فى

---

١ — ارهاقاً ومشقة وحرجا .

الإحسان إلى هؤلاء الناس ، ويجهر بقوله من آذى معاهداً أو ذمياً فأنا خصمه يوم القيامة . . وقد صح أن عمر رضي الله عنه رأى في بعض رحلاته الاستطلاعية التي كان يقصد بها إلى دراسة حال الرعية يهودياً أقعده الكبر ، وأضناه الهرم ، وأنهكته الشيخوخة ، وأذله الفقر ، فأمر أن يجرى عليه راتب دائم من بيت المال ، وقال ما كان لنا أن نأخذ منه الجزية في شبابه ، ثم نتركه يعاني العوز والحاجة في شيخوخته . . وهكذا يرى الإسلام ذلك المبدأ مبدأ الإحسان العام ، والرفق العام ، حتى في أشد حالات الغضب والانتقام ... وإذا كان المسلم في حرب مع عدوه الكافر فليس له أن يمثل به ، ولا أن يغدر معه ، ولا أن يجهز على النساء والأطفال والضعفاء أو المرضى ... ويقول النبي صلى الله عليه وسلم « إذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة » إرشاداً لأمته أن تتجافى القسوة ، وأن تنأى عن الغلظة ، وأن تكون رقيقة غاية الرقة حتى مع العجماوات من الحيوانات ، وقد نص الفقهاء على أنه يكره للمسلم أن يذبح الحيوان بسكين باردة ، وعلى أنه يكره له — كذلك — أن يذبح حيواناً على مرأى من حيوان آخر ينتظر دوره في الذبح ... ولعل الإسلام أول دين عرف الناس منه « الرفق بالحيوان » فإن المسلمين — جميعاً — يحفظون الحديث المشهور « أن امرأة دخلت النار في هرة حبستها ، فلا هي أطعمتها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش[1] الأرض » ويحفظون قوله صلى الله عليه وسلم « في كل كبد رطبة صدقة » فإن علماء الحديث يقولون إنه حث على إطعام

---

١ — خشاش وكلأ .

الطعام ، وبذل الماء ، للمحروم من الطعام والشراب من الحيوان والإنسان ... وقد صور الحديث النبوى هذه العاطفة الكريمة فى رجل ذهب ليستقى من بئر فوجد عندها كلباً يلهث (٢) من شدة الظمأ فلم يسعه أن يشرب وهذا الكلب على وشك أن يموت ، وقال — فى نفسه — لابد أن يكون هذا الكلب أشد حاجة إلى الماء منى ، وحينئذ أخذ يملأ خفه ويسقى منها الكلب .. وكانت هذه مما رضى به الله عنه ، وأثابه عليه أعظم الثواب وأحسنه ..

وإذا كانت الأبوة فى الآباء تقتضيهم أن تتسع قلوبهم لأبنائهم من غير تفرقة ، وتحدب أفئدتهم من غير تمييز ، وتمد ظلالهم امتداداً عاما لأنهم فى محيط الأسرة أشبه بالراعى الذى يسهر لراحة الرعية ، ويعمل لخير الأمة ، ويشقى لسعادة الجماعة ... فإن الإسلام وقد جعله الله هذا القانون الإلهى العام كان من الضرورى أن يجنى الناس ثمرته ، وأن يذوقوا حلاوته ، وأن يدركوا نعمته ، وأن يشربوا من كأسه الملأى برحيق الحياة المثلى ، والإنسانية المهذبة ، لأنه الشمس التى خلقها الله لتكون مصدر الإشعاع والنور للحيوان والنبات ، ثم لتكون تلك الطاقة الحرارية الكبرى لكل قوة يمكن أن يستخدمها الإنسان للخير أو الشر ، وكما أن الشمس هى هذا الكوكب العلوى الذى يطل على هذا الكون كله ، فإن الإسلام يشرق من عليائه على هذا العالم الذى يموج بالظلم ، ويطفح بالشر ، ويغلى بالفتنة ، ويضطرب بالفساد ، ومنه نوره الذى يهديه ، ورائده للذى يقوده ، وأستاذه الذى يعلمه ، وقانونه

---

٢ — يخرج لسانه من شدة العطش

الذى يحكمه ، ودستوره الذى يصونه ، وجيشه الذى يحميه ، وبصره الذى يكشف له مواضع أقدامه فى ظلام الحياة .... ولا ندعيها دعوى طويلة أو عريضة من غير دليل ناطق ، أو برهان صـــادق ، فإن الإنسانية المكلومة المعذبة ، طال المدى بها أو قصر ، ستجد نفسها بعد ذلك الغليان بحاجة إليه ، لينقذها من الحرب ، وينجيها من الهلاك ، والذى يدور بخلده هذا الخيال لا يدور بخلده على أنه أمان طيبة يتمناها للإسلام والمسلمين ، إلا بمقدار ماهى أمان للإنسانية فى السلم ، وللبشرية فى الرخاء ، وللأمم بأسرها فى الأمن ، وللآدميين عامة فى العدل الوارف (١) ، والحضارة الحقة ، لأن الإسلام بسط نفوذه فى يوم من الأيام على رقعة فسيحة من الشرق والغرب ، ودان(٢) لسلطانه القبطى واليهودى ، والبوذى والنصرانى ، والحبشى والرومى ، والفارسى والهندى ، وفى جوار المسلمين عاشوا هادئين وادعين ، وفى ظلال دينهم أمنوا من الخوف ، ونأوا عن العسف ، وسلموا من الشرور ، ونجوا من الطغيان ، ونعموا بالراحة ، وسعدوا بالحياة ، فلم يعتد أحد على حرماتهم ، ولم يطمع إنسان فى اغتصاب أموالهم ، ولم يتطلع مسلم إلى اختطاف ما بأيديهم ، ولم يشعروا يوماً من الأيام بغربة الدار ، أونزوح الوطن ، أو تباين الطباع والعادات ، ولا امتهان النفوس ، أو احتقار الآدمية ، أو ابتذال الأعراض ، أو امتصاص الدماء ، أو الحد من الحريات . أو الحجر على الأفكار والآراء ، أو الوقوف فى وجه

---

١ — يقال ورف الظل على وزن ضرب على معنى اتسع وامتد

٢ — خضع

العقائد أو الأديان .. بل كانت لهم الحريات المطلقة ، والتصرف التام ، والأمن الشامل ، والاطمئنان الكامل ، والاختيار الصحيح ، والعدالة البحتة (١) ، والاحترام غير المحدود ، فلم يشعر واحد منهم أنه بين قوم يخالفونه فى الدين ، أو يباينونه فى العقيدة ، أو يغايرونه فى الشريعة « لهم مالنا وعليهم ما علينا » ذلك لأن القرآن يوصينا بهم ، ويحببنا فيهم « ويقول فى شأنهم « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين»

والدين الذى يكون هذا شأنه ، وتلك سماحته ، وهذه آدابه ، وذلك الدستور القويم دستوره ، والعدل والإنصاف دينه ، والحرية والإخاء قوامه ، والرحمة والعطف أساسه ، والحضارة والرقى بعض أهدافه ، دين يجدر به أن يسود ، ويجمل بقومه أن يتمكنوا فى الأرض ، ويحسن بالناس جميعاً أن يمدوا أيديهم لهم ، وأن يفتحوا عيونهم عليهم ، ليربطوا مصيرهم بشريعتهم التى رسمت الخطوط الواضحة ، والمعالم الصحيحة ، للسعادة التى لازيف فيها ، ولا غبار عليها ...

ولولا أن للإسلام هذه الجوانب الخصبة بالمعانى الإنسانية لما اتسع كنفه للمخالفين له فى العقيدة ، المناوئين له فى الأسلوب ، المعارضين له فى الاتجاه ... وهؤلاء هم اليهود الذين كانوا فى أوربا المسيحية ، لم يطب لهم جوار ، ولم يهدأ لهم جنب ، ولم ينعم لهم عيش ، ولم تصف لهم إقامة . وظلوا يلاقون الهوان ، ويتحملون الضيم ، ويتجرعون كؤوس المذلة ، مع أن المسيحية واليهودية إلى جانب كونهما أبناء عم ، يجمعهما

---

١ — الخالصة الصرفة

كثير من الطباع والعادات ، والسلوك والأخلاق ، والثقافة والمعرفة ، وهما إلى جانب هذا كله يشتركان فى الخصومة للإسلام ، والكيد له ، والحذر منه ، وقد عاشت كل واحدة منهما إلى جواره هادئة مطمئنة ، لا يتهدد مصلحتها خطر ، ولا ينغص صفوها كدر ، ولا يجلب لها الإسلام شراً ، أو يضمر لها عداء . أو يظهر لها فى حال من الأحوال كراهية أو نفوراً ، أو يبتدىء واحدة منهما بالإيذاء والمطاردة ، وفى الوقت الذى كان أسلوب اليهودية والنصرانية العنف والغلظة ، والقسوة والشدة ، كان أسلوبه هو الحجة والبرهان ، والمنطق والعقل ، ودفع السيئة بالحسنى ... وعلى الرغم من أن التاريخ يسجل مخازى متنوعة عن حرب الديانات كلها له ، وقسوتها عليه ، كان هو دائماً أبداً يفسح صدره لخصومه ، ويتناسى عدوان المناوئين له ، أو الذين كانوا يقفون فى سبيله ، ويمدح أهله بهذا الخلق « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » وليس فى كلمة الناس تحديد بالمؤمنين ، ولا تخصيص بالمسلمين . . . فهل بعد هذا شك فى أنه دين الإنسانية المهذبة ، والآدمية العامة ، وأنه يبسط ظله الوارف على الكرة الأرضية من غير تمييز لجهة ، أو تحديد بمكان ، أو توقيت بزمان ، أو عصبية لإنسان دون إنسان . .

مستقبل المسلمين

وقد يكون من الغريب أن يتحدث متحدث عن مستقبل المسلمين وراء هذا السير الحثيث الذى يسيرونه إلى حياة تطول أو تقصر لا يدرون ما ينتظرهم فيها من غيب ، أو يترقبهم هنالك من حال . أو يضمره لهم القدر من جو سعيد ، أو غير سعيد ، ما داموا يشعرون بأن عجلة الحياة تدور بهم إلى نهاية لا يعلمها إلا الله وحده . . . ولكن الذى يتناول الحديث عن « مستقبل المسلمين » من غير شك يتناوله تناولا منطقياً يجرى فيه وراء المقدمات التى تنتهى إلى نهاية طبيعية — أو ضرورية — ترتبط كل الارتباط بهذه المقدمات ، والمقدمات الموجودة الآن فى حاضر المسلمين هى التى توحى بالمستقبل الذى ينتظرهم أو المصير الذى يترقبهم ، أو المآل الذى سوف تؤول حياتهم إليه ، والنبى صلى الله عليه وسلم كان معنياً بهذا المصير ، وذلك المآل ، وكان يخشى حصول هذا المستقبل الذى يزرى بكرامتهم ، ويطيح بدولتهم ، ويذهب بهيبتهم ، فلا تكون لهم تلك العزة التى نوهت بها الآية الكريمة « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » وكثيراً ما كان يحذر هذه النهاية ، ويخوف من تلك العاقبة ، ومن أشهر أحاديثه فى ذلك قوله « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على القصاع » وهو تصوير لا لبس فيه ، ولا غموض معه ، يكشف عن الموقف المازل الذى يقفه المسلمون من أنفسهم ومن الناس ، والتفكك الضعيف الذى

يصيب هذه الأمة فى كل متمع من أمتاع الدنيا ، وأنهم سيصيرون طعمة لكل جائع ، أو لقمة لكل غاصب ، وغنيمة لكل طامع ، ولم يكن ذلك لقلة فى العدد ، إنما هو لقلة من الأهبة(١) ، وضعف فى الاستعداد ، ولذلك فإن واحداً من الصحابة سأله قائلا له ، أمن قلة نحن — حينئذ — يارسول الله فقال له لا ولكنكم كثرة كغثاء السيل ، ومن المعلوم أن غثاء كل شىء إنما هو رديئة ، وعديم المنفعة منه ، وغثاء السيل هو ما يجلبه الماء من الأقذار والأوساخ التى تطفو فوقه ، وتتطفل عليه ، من بقايا الأشياء الهالكة ، والأوراق المتساقطة ، وهو مثل أراد أن يضرب به لعدم الجدوى(٢) ، أو لليأس من النفع ، وقلة الرجاء فى الخير ... وها هو ذا ماكان يتنبأ به الرسول احاصل وسيحصل وسيظل حاصلا إلى أن تقوم الساعة على لكع بن لكع ، فإننا معشر المسلمين أصبحنا على كثرتنا كغثاء السيل ، لا جدوى من كثرتنا ، ولا ثمرة من سوادنا ، ولا سلطان لديننا ، ولا هيبة لجمعنا ، وسبب ذلك يرجع إلى تفرق الكلمة ، وتباعد الهوى ، وتباين الميول ، وكأن الله الذى فرق بيننا فى الدار ، وخالف بيننا فى اللسان ، ونوع بيننا فى الثقافة والمعرفة ، قضى علينا بذلك النفور الحاصل فى كل معنى من معانى الحب ، وفى كل لون من ألوان الإحساس ، وفى كل رأى يجعلنا نلتقى على محجة واحدة ، وبهذا تداعت علينا الأمم كما تتداعى الأكلة على القصاع ، ولو أن الأمم تداعت علينا هذا التداعى وفى قلوبنا هوى الدين ، وعاطفة الشرع ، وآصرة الإسلام ، لكان الأمل قوياً فى أن يجتمع الشمل ، ويلتئم الجرح ، وينجبر الصدع ...

---

١ — الاستعداد والتأهب

٢ — المنفعه

ولكن الحال قد يصل بنا فى بعض الأحيان إلى التراشق(١) ، وينتهى بنا إلى تبادل العداوات والكراهية ، ثم نبحث فيما بيننا عن روابط الدين ، وأواصر الشريعة ، وعرى الإسلام ، فلا نجد من ذالك كله قليلا ولا كثيراً ... فهل هنا لك حلقة مفقودة ضيعها المسلمون ، وبهذا أصابهم ما أصابهم من الهزال ، وحل بهم ما حل بهم من التفرق ، وحاق بهم ما حاق بهم من الهوان على الناس . . وهذه الحلقة المفقودة — على ما أرى — أنهم لم يفهموا وضعهم الجغرافى ، ولا وضعهم السياسى ، وبذلك قامت بينهم السدود والحدود ، وباعدتهم الفواصل والمسافات ، وفرقت شملهم المنافع والأغراض ...

فالقرآن الكريم يفترض فيهم التكتل ويعتبر فيهم التلاقى على هوى واحد ، ومصلحة مشتركة وغاية واحدة ، إذ يخلع عليهم هذا الوصف العنوانى « الأمة » فيقول « كنتم خير أمة أخرجت للناس » ويقول فى آية أخرى « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » ويقول فى آية ثالثة « وأن هذه أمتكم أمة واحدة » . . وفى هذا دليل على أنه لا يعول على العقبات التى تعترض الشمل ، ولا على المسافات التى تباعد الأوطان ، وكأنه يرى أن كل شبر يحتله المسلم فى أى جهة من جهات العالم يؤلف رقعة فى خريطة الأمة الإسلامية الكبرى ، مهما تعددت أقطارها ، أو تنائت ديارها ، والمساحة التى يقوم عليها الشعب المغربى من القارة الإفريقية ، كالمساحة التى يقوم عليها الشعب الأفغانى

---

١ — تبادل السباب والشتم كأنما كلاهما يرشق فى صاحبه العيب كما يرشق المقاتل سيفه فى عنق خصمه.

من القارة الآسيوية — مثلا — بالنسبة للأمة الإسلامية تغار عليها ، وتدافع عنها ، وتتحكم فى مصيرها ، وتقضى فى مواردها وإمكانياتها ، وليس لقطر من هذه الأقطار أن ينفرد فى رسم سياسة أو عقد معاهدة أو تقرير مصير ، أو الارتباط بعجلة أجنبي ، لأن ذلك يؤثر على كيان الأمة الإسلامية كفئة ، ويعمل عمله فيها كبناء ، ويصيب مفاصلها كجسم ، ويتهدد مستقبلها كدولة ، ويفرق جهودها كجماعة ، وهذا هو العيب الذى لم يفطن له المسلمون منذ أزمان بعيدة فأخذهم الله بذنوبهم وأذاق بعضهم بأس بعض ، وجعلهم أحاديث من الأسى والأسف ، والألم والمرض . . . ومن العجب أنهم مع هذا كله لا يزالون يزعمون أنهم مسلمون مع أن الإسلام جماعة لا أفراد ، وأمة لا شعوب ، وأهواء متلاقية لا نفوس متباعدة ، ومصلحة مشتركة لا مصالح متنوعة وما كان الإسلام فى وقت من الأوقات يعترف بتشتيت الهوى وتباعد الميول ، واختلاف الأهداف وتمكين الكفر من بلاد المسلمين باسم من الأسماء التى ما أنزل الله بها من سلطان ..

وأظننا وقد وصلنا من حديثنا عن فرقة المسلمين إلى هذا الحد نجد أنفسنا مضطرين إلى العودة — من جديد — إلى ضرورة اللغة العربية كرباط لا بد منه للمسلمين ، لأنها البيان الضرورى للكتاب الكريم ، ولا يمكن فهمه إلا به ، مهما تكلف المتكلفون الحديث عن الترجمة وإمكان النقل بها ، أو الإفهام بواسطتها .. ولعل هذا المعنى الذى نزعم أن الإسلام قد قصد إليه من تكتل المسلمين ، وتضامنهم فى الغرض والهوى ، والإحساس أو الشعور ، حينما يخلع عليهم هذا الوصف العنوانى « الأمة » تهدى إليه اللغة العربية التى أهمل المسلمون فهمها

والعناية بها ، لأنه سبحانه وتعالى يقول « أمة وسطا » ويقول « أمة واحدة » وهما كلتاهما تدلان على ما نذهب إليه من عدم اعتبار الحدود الجغرافية ، ولا الحواجز المصطنعة لأن الوسط المكان الذى يلتقى عنده طرفا الشىء ، ووصف الأمة بهذا الوصف « وسطاً » كوصفها بكونها « واحدة » سواء بسواء ، ومن هذا يظهر أن الأمة التى أراد الإسلام أن يتكون منها شتات المسلمين ، وأن يجتمع بها متفرقهم ، ليست تلك التى تمزقت قلوبها ، وتوزعت نفوسها ، وتباعدت أهواؤها ، وتباينت مصلحتها . . . ويظهر بجلاء — كذلك — أن هذا الذى يعانونه من الضعف . ويلاقونه من العنت ، ويحتملونه من الهوان ، إنما هو بداية النهاية المحتمة التى تنتظرهم من خصومهم الذين يتربصون بهم الدوائر ، وسوف يجىء يوم يرى المسلم نفسه غريباً فى الوطن الذى يعيش فيه لا يستطيع أن يقيم شعائره ، أو يؤدى فرائضه ، أو يعلن دينـــه ، أو يجتمع فى المسجد مع إخوانه المسلمين لصلاة الجماعة ، كما حصل للبلاد التى وقعت تحت سيطرة النفوذ الشيوعى . . ولهذه المناسبة نذكر أن الجهاد الذى أوجبه الله على المسلمين لم يكن المقصود منه الفتح وامتداد المساحة ، وتوسيع رقعة البلاد ، ولا شهوة الملك والسلطان ، ولكن المقصود منه حفظ راية الإسلام ، والدفاع عن حوزته ، والتمكين لسلطانه ، وخلع المهابة والاحترام على أهله ، فهل نسى المسلمون تلك المعانى كلها حينما تركوا إخوانهم المسلمين الذين طحنتهم سنابل الشيوعية فى القوقاز والتركستان . . اللهم لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا يارب العالمين ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، وارجعنا نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل . .

على أن هذه النبوءة التى تنبأ بها محمد صلى الله عليه وسلم لهذه الأمة بقوله « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم » ليست بعيدة عن نبوءة الملائكة التى كانوا يتنبأون بها لهذا الجنس البشرى كله « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » فإن الجنس البشرى أشد فتكا من الوحوش الكاسرة ، لا يميل إلى السلم ، ولا يصيخ للموعظة ، ولا يستريح للخير ، ولا يحب أن يعيش فى جوار الهدوء والاستقرار ، ولا تزال الأرض منذ اتخذها ابن آدم موطناً يكدرها بالدماء ، ويدنسها بالحقد ، ويهددها بالحرب ويضيق رقعتها بالكراهيه ويملأ جوها بالدخان ، وكان المظنون بالدين أن يهذبه ، وبالشرائع أن تؤدبه ، فضل عن الدين ، واختلف على الشريعة ، وكفر بالذى خلق السموات والأرض ... وتلفتت الإنسانية كلها إلى الإسلام تستغيث به وتعتمد عليه ، ولكن المسلمين كانوا قد طرحوه وراء ظهورهم ، وأصبحوا أشد جهلا به من خصومه الذين ينكرونه كله ، ويودون أن يمكن الله لهم فى الأرض ليدفنوه بها ، ثم يعملوا على ألا تقوم له رأس أو تنتصب له قامة ، أو يسمع له صوت ، أو ترتفع له راية ، أو يدوى له نداء ، وفى تصرفاتهم معنا ، ومعاملاتهم لنا ، هنا وهنا لك ما يدل على أن الشر المبيت للإسلام والمسلمين ، سيقع بهم لا محالة ، فهل يعرف المسلمون ذلك ، أم إن البلاهة بلغت بهم حد عدم العلم ، وعدم المعرفة ، وأن هذا الفلك الدائر بهم لا يحسون له حركة ، ولا يدركون له مغزى ... الواقع أن الحسرة التى يعانيها الغيورون على الإسلام والمسلمين تعتلج فى نفوسهم ، وتضطرم فى أفئدتهم ، ولا يملكون

إلا أن يعلنوها اعتقاداً منهم أن إعلانها عزاء وسلوى ، والمسلمون في وضعهم الراهن لم تزدهم الحوادث إلا تدابراً وقطيعة ، ولم تزدهم الضربات التي تتوالى على رؤوسهم إلا رضاً بالواقع ، ظناً منهم أن ذلك إيمان بالقضاء والقدر ، وكأنهم لا يعانون داء البلادة ، وموت الإحساس ، ولكنهم يعانون إلى جانبه الجهل بحقيقة هذا الدين ، وهو المرض الذي يحاول المصلحون علاجه فيستعصي على العقاقير كلها ، وأصبحت ضرورة الإصلاح لا تقضي بالتفكير في العلاج ، وإيقاظ تلك الضمائر الميتة ، وإنما تقضي بالتفكير في تكوين الدولة الإسلامية من جديد وإيجاد عناصر قوية تدب فيها الحياة السليمة من الأدواء ، الخالية من العلل البعيدة عن الضعف ، عسى أن ترتفع بهم للإسلام راية ، وتدوى له صيحة ، أو يستجاب له نداء ، فإن هؤلاء الذين ينتسبون إليه عالة في حقيقة الأمر عليه ..

انقلاب إسلامى

نحن فى حاجة إلى انقلاب إسلامى شامل ، يتناول حياة الفرد والجماعة ، ويدب إلى صميم المناهج السياسية والاقتصادية ، وإذا نحن عبرنا عنه بأنه انقلاب فإننا لانعنى به الانتكاس فى الحقيقة الإسلامية ، أو تغيير معالم تلك القضايا والمسائل التى نادى بها الإسلام ، وأعلنها محمد صلى الله عليه وسلم إلى الخلق ، وجاهد من أجلها فى سبيل الله ، وظل يتحمل بسببها ، ثلاثا وعشرين سنة ، من شدة عنيفة ، وإيلام مرير ، وعنت صارخ ، وإيذاء دائم ، وحرب لا تضع أوزارها [1] . لأن الحقائق الإسلامية هى هى لم يصبها وابل ولا طل ، تصلح لكل جيل وقبيل ، وتنقذ من الردى الداهم ، والخطر المحدق ، والشر المستطير ، وكما قلنا — أكثر من مرة — إن شريعة الله أشبه بالعقل الإنسانى الذى ينير الطريق لمن يتأمل ، ويكشف المعالم لمن ينظر ، ويهدى إلى الخير من يطلب الهداية وينشدها ، والذى يعتريه المرض ، ويصيبه الوهن [2] ، ويختلف تقديره للخير أو الشر ، والفضيلة والرذيلة ؛ والنور والظلمة ، هو الإنسان حين تهب عليه ريح من غضب الله فيتحول به القصد ،

---

١ — الأوزار للحرب أحمالها التى يحملها المحاربون استعدادا لها من سيوف ومتاع وزاد

٢ — الضعف

وتتغير به الحال ؛ وينظر بعين البصر لا بعين البصيرة «إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور» . . . وعلى هذا فالانقلاب الشامل الذى نريده ، هو الانقلاب فى سلوكنا ، والتغيير فى أوضاعنا ، والتبديل فى بنائنا ، والترميم فى أخلاقنا ، والرجوع بالهدم والإزالة لكل ما موهه المموهون ، وزوره المزورون ، ودلس به المدلسون ، فأساؤا به إلى شريعة محمد صلى الله عليه وسلم، حتى صارت غريبة علينا! بعيدة منا ، كريهة إلينا ، كأنما هى فى نظر الكثير منا مخلفات جيوش الاستعمار ، أو فلول(١) طلائع الاحتلال ، نطرحها وراءنا طرح النواة فلا نعبأ بها ، ولا نلتفت إليها ، ولا نفكر فيها ، ولا نحن إلى الرجوع إليها ، ولا الأخذ بأسبابها، مطمئنين كل الاطمئنان إلى أنها من أسباب تأخرنا ، أو من عوامل جمودنا وتخلفنا عن ركب الحضارة والمدنية ، ولم يكن هذا الاطمئنان ولا ذلك الاعتقاد فى العوام وأنصاف المتعلمين ، ولكنه كان فى ســدنة(٢) الشريعة ، وبعض الفقهاء الذين ينادون بضرورة النظر من جديد فى نظرة الإسلام إلى بعض قضايا الاقتصاد التى أصبحت عقبة فى سبيل مصالح الأفراد والجماعات والأمم ، مثل الربا الذى لابد منه لبيوت المال التى هى ضرورة من ضرورات العمران والتقدم ، وراحوا يجاهرون بأننا لو ظللنا على رأى الإسلام فيه تعطلت لنا مصالح ، وتأخرت لنا أعمال ، وفسدت لنا مشروعات ، ورجعت بنا عجلة الزمن إلى الوراء ، ثم أخذ المجتهدون منهم يؤولون النص ، ويحرفون الكلم ، رغبة الإتيان بغير هذا الذى وقف فى وجه

---

١ — فلول الجيش بقاياه بعد الهزيمة والواحد فل على وزن سهل

٢ — جمع سادن بمعنى حارس وخادم

المدنية ، وعوق ركب الحضارة ، واعترض سبيل التقدم ، ونسوا أبسط القواعد فى ذلك وهو اتفاق المسلمين على أنه لا اجتهاد مع النص . . . ولكنهم وقد أرادوا إرضاء الميول المنحرفة ، والأهواء الضالة ، والنفوس الجامحة ، سلكوا المهيع[1] الملتوى ، والأسلوب المغرض «وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب ، وما هو من الكتاب ، ويقولون هو من عند الله ، وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون »

وما من شك فى أننا انحرفنا عن الجادة ، والتوينا عن القصد ، وتجهمنا لكل ما هو إسلامى صميم ، وقد كان لنا العذر — إن صح أن يكون هنالك عذر — حينما كان الاستعمار جاثما فوق صدورنا ، وكابتا[2] لأنفاسنا ، وحائلا بيننا وبين الأخذ بمبادىء الدين ، أو العمل بنصوص الشريعة ، أو التأدب بهدى القرآن الكريم ، فهل لنا عذر بعد أن تخلصنا من الأغلال ، وانطلقنا من القيود ، وتحررنا من السلطان الأجنبى ، وصار أمرنا إلينا ، وزمامنا بأيدينا . . . وليس ذلك الانحراف والالتواء فى سلوك الفرد وحده ، أو فى صلته بربه ، إنما هو انحراف تناول سلوك الجماعة ، وسياسة الأمم ، ومستقبل الشعوب وصير تلك اللبنات الأولى التى تقيم عليها دعائم البيئة ، وصروح المجتمع غير صالحة لأن يعتمد عليها ، أو يركن إليها . . . وحسبك أن تنظر إلى الأسرة التى هى مدرسة الطفل التى تتلقاه بغرس العادات ، وتهذيب الطباع

---

١ — الطريق وربما خصوه بالمستقيم

٢ — كاتما ومانعا

وتوجيه الغرائز ، وتنمية الميول ، لترى إلى أى حد هى منتكسة(١) ، قد أصابها من الأمراض ، وحل بها من الأوبئة ، وتمكن منها من الهزال وتراكم عليها من العلل ، وجرى فى مفاصلها من الضعف ، ما وقف بها الوقوف التام بحيث لاتستطيع أن تؤدى الواجب ، أو تنهض بالرسالة ، أو تحقق الغرض ... وكذلك الحال فى دور العلم ، والبيئات المختلفة بعد ذلك كله ... على أننا ونحن ندعو إلى هذا الانقلاب لانقول بالثورة الطائشة ، والرعونة الضالة ، والهوج الممقوت ، بل إننا ندعو إلى ما يشبه التوبة النصوح التى يعلنها المذنب بلسانه وقلبه ، مصحوبة بالندم ، مقرونة بالأسف ، مليئة بالعزم الأكيد ، والتصميم الجاد ، على أن يتخلص من ماضيه ، ويتطهر من أوزاره ويكون هذا برسم المنهج الإسلامى فى الثقافة والمعرفة والتربية والتهذيب والسياسة والحكم ، والمال والاقتصاد والمعاملة والسلوك ، والعمران والنهوض ، ويقتضى ذلك أن تتحول حياتنا كلها إلى الطابع الإسلامى الصميم .... وربما دار بخلد بعض الناس أنى بهذا أسبح فى بحر من خيال الشعراء ، لاساحل له إلا الموسيقى العذبة ، والأمانى المعسولة ، والنغمات الحلوة ، والألفاظ الرنانة ، والجمل الرائعة ، والبيان الخلاب ، لأن ذلك الحلم يعود بالناس إلى عهد عمر ابن الخطاب ، أو عمر بن عبــــد العزيز ، وكلاهما لايجود به التاريخ ، ولا يسمح بمثله الزمن ، والمسلمون لايتمكن لهم هذا الخاطر ، أو يتحقق لهم هذا المعنى إلا إذا عادت إليهم الخلافة ، ورجعت إليهم السلطة ، ولم يعد فيهم من يصلح لشىء من ذلك كله بعد أن بسط الاحتلال أجنحته

---

١ — مقلوبة من تكس جعل رأسه فى مكان رجليه

عليهم ، وركز الاستعمار أعلامه فيهم ، ودنس أرضهم وسماءهم بأخلاقه وطباعه ، وسياسته وسلوكه ، وأنا فى الواقع لا يطوف بذهنى هذا الخيال ولا تدور برأسى تلك الأوهام، ولا أومن بأن الناس يأتون ـ وحدهم ـ بالمعجزات ، إلا أننى أعتقد أن التدرج إلى الكمال هو السبيل القويم ، والسنن السوى ، والطريق السليم ، والخطة المثلى ، والأسلوب الصحيح ، وقد أخذ الإسلام بمبدإ التدرج هذا فى كل سياسة أرادها ، وفى كل غاية قصد إليها ، ولو أننا حاولنا التدرج إلى الكمال لما كانت خطتنا سوى الخطة التى أخذ بها الإسلام فى علاج المشاكل ، والقضاء على الأمراض أو إصابة الأهداف ، فإذا علينا لو أننا حاولنا هذا الانقلاب الإسلامى فى ذات أنفسنا — أفراداً وجماعات — فعدنا إلى كتاب الله وسنة رسوله ، فى كل عمل نعمله ، أو عقيدة ندين بها ، أو نية نضمرها ، أو سلوك نسلكه ، أو نهوض نحاوله ، أو علة نريد أن نقضى عليها . . . فى اعتقادى أننا لو حاولنا ذلك فى أنفسنا على هذا الوضع فإننا نستطيع أن نهيء الجو الإسلامى النقى، والبيئة الإسلامية الصالحة ، والسلوك الإسلامى القويم ، والكلمة الإسلامية التى تفرض رأيها على الناس ، وسلطانها على الدول ، ومادمنا مؤمنين بأن فى هـــذا الدين عناصر الحياة ، ودعائم القوة ، ووسائل الخير ، ومناهج الإصـــلاح ، فليس لنا أن نتقاعس[1] عن الإقدام ، أو نتوانى عن العمل ، أو نتهاون فى المحاولة ، أو نتأخر عن الركب ، أو ننافق فى الإيمان بأنه الدين الذى يجب أن تكون له الكلمة العليا . . . وعيب المسلمين الذى تسلط على

---

١ — نحجم ونرجع الى الوراء

نفوسهم ، وتمكن من قلوبهم ،واستبد بعقولهم وأفئدتهم ، أنهم يفهمون فى كثير من أحوالهم أن دينهم عقيدة تملأ النفس ،وإذعان يملأ القلب ويقين يملأ الخواطر ،دون أن يكون ذلك كله مصحوبا بعمل ،أو مقرونا بخطوات إيجابية تركز تلك العقيدة ، وتثبت ذلك الإذعان ، وتقوى هذا اليقين ، وتبرهن على صحة التصميم الذى يضمره المؤمن فى نفسه . . والمذاهب التى تناوىء الإسلام ، والمبادىء التى تقاوم شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، لم تصل إلى كيدها لنا ، وإفسادها لسلوكنا ، وتحطيمها لقوانا ، وهدمها لأمجادنا ، وتقويضها لحضارتنا . بالجدل والمنطق ، والحجة والبرهان . إنما وصلت إلى ماوصلت إليه بالعمل الدائب ، أو التضحيات المستمرة ، والحروب الطاحنة ، والدماء الغالية والأثمان الباهظة[1] ... والمسلمون — والحمد لله — لايريدون الحرب ولايعملون لها،ولا يودون أن يتمكن دينهم بالسيف ،لأنهم لايستطيعون ذلك ، ولا يحبون أن يقول قائل عنهم إنهم أرغموا الناس إرغاما على الإيمان به فى حين أنه ينادى بذلك المبدأ « لا إكراه فى الدين » . . ولهذا لانقول إن عمل المسلمين للإسلام يتطلب القهر والغلبة ، والعنف والتسلط ، والسيف والمدفع،والقيادة والسيادة . وإنما نقول إنه يتطلب الرجوع إليه ، والعمل به ، والثورة الصارخة على الخرافات المتأصلة ، والبدع القائمة ، والجهل المخيم على العقول والأفكار ، والخوف الذى يملأ القلوب والأوهام على شرط أن ينبذوا الخلافات ، ويتناسوا الحزازات ، ويدفنوا الأهواء والأغراض . والميول والشهوات ،

---

١ — بهظة الحمل أثقله وعجز عنه فلم يقدر على القيام به

ويتجنبوا البحث الذى لايجدى ، والنظر الذى لايفيد ، والجدل الذى لايصل إلى غاية . . . وأغلب الظن أننا لو رجعنا إلى الإسلام هذا الرجوع ، وهيأنا للإسلام هذا الجو النقى فى الأسرة وفى المدرسة وفى دواوين الحكومة وفى الميادين والمنتديات ، نصبح مابين طرفة عين وانتباهتها فى عزة المسلمين وقوتهم ،وجاههم ومجدهم ، وبأسهم وسلطانهم يهابنا العدو ، ويتقى صولتنا[١] المغير ، ويخطب ودنا الناس ، ويلتجىء إلى ظلنا الضعيف ، ويلتفت إلينا الزمن ، ويتطامن[٢] لنا الدهر ، وينحنى إلينا التاريخ ، والسبيل إلى هذا وهذا شىء وراء الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ... وأنا أرجو إذا فهم المسلمون أن ترابطهم واجب ، وعقد الأواصر بينهم لازم ، وتقريب المسافات بينهم مما لابدلهم عنه ، ولا مناص لهم منه ، أن يتحقق لهم ذلك وغيره من الأمانى الطيبة ، أو الآمال الحلوة ، والرغبات الكريمة ،لأن الداء الدوى ، والعلة المستعصية — أولا وقبل كل شىء — أنهم لم يفهموا معنى كونهم أمة وسطا ، ولا أمة واحدة ، ولا أنهم خير أمة أخرجت للناس ، لأنهم إن فهموا ذلك تلاقى الهوى ، واجتمع الشمل واتحدت الكلمة ، وقويت الشوكة ، ودوى الصوت ، وارتفعت الراية ، ولم يهن أمرهم على الناس ...

---

١ — الصولة الشدة والقوة من صال بمعنى استطال أووثب

٢ — يخضع

لا سبيل إلا الإسلام

العالم الآن — من الغرب إلى الشرق — طغى عليه السعار وغلبت عليه الأنانية ، واشتد فيه الصراع على العيش ، بشكل لا يبعث على الطمأنينة ، ومعنى لا يحمل على الاستقرار ، وقد جعل الناس يسلكون فى سبيل ذلك طرقاً ملتوية . ويتخذون أساليب ليست مشروعة ، ومن جراء هذا يكثر فيهم الإجرام ، ويتفشى بينهم الاغتصاب ، ويسود العدوان والفتك ، ولم تكن لهم فى قمع ذلك كله حيلة ناجحة ولا علاج ناجع ، ولا تهذيب نافع ، ولا تربية سليمة ، وربما حار تفكير المفكرين ، وألقت سلاحها فلسفة كثير من الفلاسفة ، وأخذهم الدهش فى أن تكون لهم تلك المدنيه الجبارة ، والحضارة النادرة ، والتقدم العلمى ، ثم يعيشون فى هذه الدنيا عيشة الحيوانات التى تمكن منها هذا الإسفاف ، وتأصل فيها هذا الانحدار ، واستولى عليها ذلك النقص ، واستقر بين جوانحها ذلك السقوط المعنوى.. ولم يدر بخلدهم — أبدا — أنهم فقدوا الدليل ، أو ضلوا القصد ، وأعوزهم الرشد الصحيح ، والهداية السليمة ، وجهلوا أن للإنسان نزوعاً فى الحياة يباين نزوع العجماوات التى تأكل وتشرب ، من غير أن يكون لها تفكير فى ذلك ولا نزوع إلى إشباع الروح ، أو إرضاء العقل ، وتربية الشعور ، وتنمية الإحساس بالخير ، أو التطلع إلى ما بعد المادة ... ومن حق العجماوات أن تسلك فى العيش ذلك السبيل ، وتزن الحياة بميزان الطعام

والشراب ، وقوة البنية ، أو ضخامة الجسم ، ومتانة الأعضاء ، والقدرة على الأعباء والمشقات ، أو الغلبة على الأقران ، والانتصار على الأعداء والذود عن الحمى ، والدفاع عن الحوزة ... لكن الإنسان الذى خلقه الله لحياة أسمى من تلك الحياة ، وجمله بالعقل ، وكرمه بالشعور ، وسخر له الكون ، لم يكن ليستقيم أمره ، ويسعد عيشه ، وتهدأ نفسه ، ويقر قراره ، ويطيب قلبه ، إلا إذا كان له نزوع روحى يعلو به على ذلك العيش التافه ، والمادة الحقيرة ، والحطام الفانى ، فلا ترتبط عجلته به ولا ينتهى مصيره إليه ؛ وبهذا النزوع يتعادل النظام ؛ ويقل الطمع ، ويزول الشره والسعار ، ويكف الناس عن الحرب ، ويسود فى العالم المحبة والسلام .. هذا المعنى الذى طغى على العالم — الآن — فصيره إلى ما هو عليه من القلق والاضطراب ، وحوله إلى تلك الحيوانية الوضيعة ، علاجه فى الإسلام الذى يملأ نفس المسلم بالخير ، ويزود قلبه بالرحمة ، ويرقق شعوره بتقوى الله ، ويقلم أظفاره بترقب المصير ، ويهذب شعوره بالزهد ، وينمى ذوقه بالطاعة ، ويسمو بعاطفته بالإحسان .. وهذا العلاج إنما يكون بالمعانى الروحية التى يمكن لها فيه ، بما يرغبه فيه من الصدقة ؛ وما يدعوه إليه من الجود وما يعوده عليه من الأخوة ؛ وما يحببه له من خصال البر والمعروف ؛ وبهذه كلها تحلق نفسه فى سماء القناعة ، وتطير بأجنحة الطاعة ، وينظر إلى هذا الكون نظرة ليس فيها سعار الكلاب ؛ ولا غدر الذئاب ولا إسفاف الأطفال ولا طيش المجانين ، ولا عربدة السكارى ؛ ولا عبث الصبيان ولا سفه النوكى ، ولا جهل الذين يعيشون فى الغابات .. ولو أننا رحنا نتقصى النواحى الروحية فى تكاليف الإسلام كلها ؛ وفى تربيته المختلفة ،

وفى الحدود التى أقامها ، لطال بنا المطاف ، وشق علينا الطريق ، وبعدت مسافة القول ، لكننا لا نشك فى أن المسلم الذى يعلم علم اليقين أن الله سبحانه وتعالى يحاسبه على النية ، ويؤاخذه على ما يكنه لأخيه المسلم من سوء ، يدرك تمام الإدراك ، قيمة هذه الناحية فى دينه الذى يدعوه إلى أن يفنى فى الجماعة ، ويذوب فى الأمة ، ويجعل حياته وقفا على نفع الإنسانية ، بما يربيه عليه من خلال الخير ، وخصال البر ، وسجايا البذل والإحسان ، ولذلك لم يعرف الإسلام فى عصور ازدهاره ما تشكوه المجتمعات الحديثة من تخاذل ، أو ما تعانيه من تفكك ، أو ما تقاسيه من انحدار ، أو ما تذوقه من ويلات ، أو ما تتجرعه من مكروه ، أو ما تحتمله من هوان . . .

والعالم الآن — من الغرب إلى الشرق — تسوده الرذيلة ، ويملأه الفجور ، وتطفح جوانبه بالخنى [1] ، وتعج نواحيه بالشرور والآثام ، وكان من جــــراء ذلك أن ذهب الحياء من الناس . وكثر الفساد فى البيئات ، واستفحل الأذى والسوء فى الأوساط ، وصار للشر مذاهب كالوجودية والبوهيمية وما شاكلهما من مبادىء التحلل ، وعدم المبالاة ، وأصبحت صيحات الإصلاح لا تجد من يصغى إليها ، أو يؤمن بها ، وإذا ما تيقظ الوعى فى نفوس هؤلاء فدعا داع إلى الخير ، أو استنكر ما تعاينه الإنسانية من هذا الفساد العام كان مصير صياحه السخرية والاستهزاء ، ونظر إليه من حوله نظرته إلى الهارب من المارستان . .

وقد حدث بعد الحرب العالمية — الأخيرة — التى أذل فيها هتلر كبرياء

---

١ — الفحش

فرنسا ، وهزم جيوشها هزيمة منكرة ، أن وقف واحد من كبار قوادهم في البرلمان يقول إن فرنسا لم تهزم من ضعف ، ولم تؤت من قلة في العدد أو العتاد [1] ، ولم يصبها ما أصابها لتخلف مصانعها ، أو لعدم الكفاية الإنتاجية فيها، ولكن تدهور الأخلاق ، وإسفاف الأهداف، وضياع المثل ، وموت الضمير ، والاستهتار بالغايات النبيلة ، وشيوع الرذيلة بيننا ، هو الذى جعلنا — اليوم — نقف هذا الموقف ، ونجنى ذلك الحنظل ، ونبوء بالخزى والهوان ، فلم تترك كلماته هذه أثراً فى نفوسهم ، ولا وخزاً فى ضمائرهم ، ولا دويا فى آذانهم ، ولا صدى خافتا فى شعورهم ، ذلك لأن الحديث عن الفضيله ، والكلام عن الأخلاق ، والدعوة إلى المثل العليا ، له فى هواتف أفئدتهم هم ومن على شاكلتهم من الأمم التى لا تؤمن بالله ، ولا تخاف يوم القيامة ، ولا تعترف بالأديان ، رنة اللغو ، وصيحة الرعد ، ومواء السنانير ، لا تهزهم فيه نبرات ، ولا تروقهم فيه كلمات . . . والسبب الأصيل فى هذا المرض المستحكم أنهم لا يجدون بين أيديهم ما فى الدين من الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب ، والوعظ والإرشاد ، والتربية والتعليم والآداب والأخلاق ، والتوجيه والاصلاح ، والترميم والبناء،وبخاصة الإسلام الذى يرسم الحدود والمعالم . ويصف العلاج والتهذيب ، والسعادة والشقاء ، والحب والمودة ، والسلام والأمن ، والتقدم والرقى ، ويضع الخطوط الطويلة العريضة لصلة الإنسان بالإنسان ، وسيادة الاستقرار فى الأرض ، وكراهية الناس للشر ، وبغضهم

---

١ — عتاد الحرب عددها من سلاح وخيل ورجال ومال وما أشبه ذلك

للفحش ، ونفورهم من الفوضى ، وتعاليهم عن النزول إلى المستويات الحقيرة . . . وهكذا يؤمن المسلم أن دينه دستور للسعادة ، وقانون للإصلاح ، ونظام للعمران ، نبع من الخير ، ورباط من الفضيلة ، ووقاية من السقوط ، وحجاب من الإسفاف ، وصون من الأذى . ومعارج إلى الكمال الانسانى كله . . .

والعالم الآن — من الغرب إلى الشرق — يتسابق فى الدمار ، ويتبارى فى الهلاك . ويركز جهوده كلها فى التسلح استعداداً لحرب الإبادة التامة ، من غير أن تأخذه الشفقة،أو تهزه عاطفة من عواطف الإنسانية المهذبة الرحيمة ، لأنه لايؤمن إلا بوجود نفسه ، ولايذعن إلا لما تمليه شهوة الانتقام ، ورغبة السيادة ، وحب السيطرة ، ونزعة الأثرة ، ودواعى القهر والغلبة . . ومن أجل تلك الروح الخبيثة ، والميل الظالم ، والقرم الوضيع ، والإسفاف المرذول ، يتحول الكون — شيئا فشيئا — إلى جحيم بغيض ، تلتهم ناره الأمانى والآمال ، والمثل والأخلاق ، والخير والمعروف ، والصفو الذى يحلم به الآدمى فلا يجده إلا فى الخواطر والأوهام ... وذلك يرجع فى أصل الوضع إلى أن هذه المجتمعات تمكنت منها المعانى الفردية ، وغلبت عليها شهوة الأنانية ، وصارهم الواحد منهم أن يكون مثل « نيرون » الذى أشعل النار فى روما إمتاعاً لخاطره بثورة الشر ، وإرواء لظمئه بهذا الانتقام وتصويراً لحواسه هذه الصورة الرائعة من الويل ، ولا يعنيه بعد ذلك أشلاء الموتى ، ولا عويل البكاء ، ولاصريخ اليتامى ، ولابؤس الناس، ولا عذاب البشرية ، ولا خراب الملك ، ولا آلام المعذبين ، لأنه لم ينطبع فى ذهنه من كل ماحوله إلا طيوف العدوان ، ولم يستقر فى فهمه

إلا دخان النار ، ولم يعشش فى فكره إلا أنه يعيش فى هذا الجو الملبد بالغيوم والصواعق ، ودمدمة القنابل ، وقصف المدافع ، ولم يكن للعقلاء تفكير إلا فى سوء الموقف ، وشؤم المصير ، أو سواد المستقبل الذى هم مقبلون عليه ، ولم يخطر ببالهم وهم يفكرون فى الغاية أن الشرائع تحد من هذا الصراع ، وتقف من هـــذا النزاع ، وتعالج فى حكمة ورفق ما يستبد بالنفوس من شر ، وما يهيمن على الأفئدة من ظلم ، أو يتحكم فيها من جهل وسفه ، وأن الأديان السماوية لا تحب أن تتحول بالناس الحياة إلى بركان يقذف بالنار والدخان ، والحديد والحجارة ، والفناء والهلاك ، والموت والدمار ، والخراب والفساد ، وأن الإسلام قامت دعوته على السلام ، وطرح الأثرة من النفوس ، وأنه لا يتوعد أحداً بسوء كما يتوعد الذين يسعون فى الارض بالفساد ، أو يخلقون فيها المتاعب ، أو يشيعون فيها الذعر والخوف . . .

والواقع الذى لاشك فيه أن هذه الصور المشوهة للإنسانية الرخيصة أو الآدمية الضالة ، أو الحيوانية النازلة ، لا نجد لها مثيلا فى التاريخ ، ولا ضريبا فى الشعوب ، إلا فيما قصه الله علينا فى كتابه الكريم عن بنى إسرائيل الذين كانوا وبالا على العالم ، وشراً على الخلق ، وشؤما على الدنيا ، ونكداً على الناس ، وفوضى على الارض ، ومرضاً على البسيطة وحرباً على الإنسانية ، وعدوانا على الشرائع ، وخصوماً للأنبياء والمرسلين وإن حديثاً واحداً عنهم مما جاء فى سورة البقرة ليدلنا على مقدار ما عانت منهم الحياة والأحياء وذلك فى قوله جل جلاله « وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة

ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون، وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون ، ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولاهم ينصرون ، ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقا تقتلون ، وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ، بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ، ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون، وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعو قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ، فإنه يرسم بريشة المصور الماهر ، انحطاط أخلاقهم ، ومرض نفوسهم ،

وفساد ضمائرهم ، وتلاعب أهوائهم ، ونزق غرائزهم ، وطيش عقولهم وزعزعة يقينهم ، وخبث طويتهم ، وميلهم للشر ، وولعهم بالخلاف ، وتفانيهم فى الإساءات ، ورغبتهم فى سفك الدم ، وحبهم للحرب ، وعدم إيمانهم بالكتب المنزلة ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، ثم تلاعبهم بالأديان « قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه » وكأنما هم مغرمون بتمثيل المهازل ، وتصوير المخازى . ورسم خطوط الشر فى هذه الحياة . . . وقد كان اليهود فى المدينـــة يغرون الأوس بالخزرج ، ويشعلون بينهما نيران العداوة والبغضاء ، لا لحاجة أكثر من التفرج عليهم ، وإشباع نزعة السوء التى فى نفوسهم ، ورغبة الشر المتمكنة منهم وخبث الطوية الذى هو أصـيل فيهم ، . . ولو أننا ذهبنا — الآن — نبحث وراء الشرور التى يموج بها العالم ، والآثام التى تطفح بها الدنيا ، لما وجدنا المحرك لها إلا تلك الأصابع الملعونة ، والنفوس الحقـيرة ، والأفئدة المريضة ، والنوايا الوضيعة التى يحملها فى جنباتهم هؤلاء الذين أصمهم الله وأعمى أبصارهم ... وإذا كان صلاح النفوس بالإيمان بالله ، وامتلاء القلوب من خشيته ، وخوف الناس من عقـابه ، فإن أولئك الحيوانات لا إيمان لهم بالله ، ولا خشية عندهم منه ، ولا خوف لديهم من عقابه ، مع أن ضلال أسلافهم فى وادى التيه أربعين سنة ، وتشريدهم فى الأرض ، ومسخهم إلى قردة وخنازير ، وغضب الله الذى توالى عليهم ، وتتابع فيهم ، كان من حقه أن يعظهم فيرتدعوا ، ويذكرهم فيعتبروا ، ويوقظ ضمائرهم فينتبهوا ، ولكنهم ماتت عواطفهم ، وتبلدت حواسهم ، ومرضت نفوسهم ، وفقدوا وسائل الإدراك التى حالت بينهم وبين الايمان بالله الذى تهتز من هيبته السماوات ، وتندك

الأرض ، وتميد الجبال : وتتزلزل القوى والقدر . وفى كل يوم تعصف بهم العواصف ، وتلطمهم على وجوههم الحوادث ، وتمر بهم الأمثال ، فلا يكون لوقعها لديهم، إلا ما يكون فى الحـــديد البارد من الصدإ والكلاحة ، والوسخ والصلابة ، فهل يقدر الله الذى بيده ملكوت والأرض لهذا العالم أن يستريح من عنائهم ، وينجو من شرورهم ، ويسلم من أذاهم ، ويتخلص من كيدهم ، ويتجنب مايدبرونه له من هلاك ودمار ، وحينئذ تسود الشريعة ، ويتمكن الدين ، وتعلو كلمة الحق وترفرف راية السلام ، وتقوم المحبة بين الناس مقام القانون ، ويصبح الإسلام دين الشعوب ، ودستور الأمم ونظام الحياة ،ورباط الفرد والجماعة ، وميزان الحق والباطل ، والخير والشر ، والفضيلة ، والرذيلة والآداب والسلوك فإنه الكفيل بسعادة البشرية ، ووجود الناس . . .

الجهاد الإسلامى

لم يكن هنالك مرض من الأمراض قد أصاب المسلمين فى صميمهم أخطر عليهم من عدم فهمهم للحقائق ، وعدم إدراكهم للأشياء الإدراك الذى يجب أن تكون عليه ، ليتحقق الغرض منها ، وتتحصل الثمرة المرجوة فيها ، ومن مكرور اللفظ ، ومعاد القول ، أن نبتدىء الحديث فى ضرورة توحيد لغتهم وبيانهم ، ليستطيعوا مدارسة القرآن الكريم بلسانه العربى المبين ، عسى أن يكون ذلك معيناً لهم على أن يتلاقوا على محجة واحدة . ورأى واضح ، وهدف سليم ، وأن نقول إن هذه البلبلة التى حلت بهم ، والفرقة التى مزقت شملهم ، ووزعت جهودهم ، وخالفت بينهم فى الغايات والأغراض ، لم تأت إلا من تلك النواحى المكشوفة ، والجهات العارية ، والمناطق التى تمكن منها مرض الجهل وعدم المعرفة . ومن أمثلة هذا فهمهم للجهاد الإسلامى بأنه صد غارة العدو . وضرب حصون الخصوم ، وإراقة دم المناوئين أو المارقين ، وإعلان السيف فى وجه الخارجين على سلطانهم ، من كل كافر بشريعتهم ، أو جاحد لدينهم ، وأن تلك الحروب التى خاضها محمد صلى الله عليه وسلم ، وخاضها معه أصحابه ، أو خاضوها منفردين عنه بعد موته ، كانت سياسة مقررة ، أو سلوكاً متبوعاً ، يعترف به الإسلام كدستور له ، أو واجب يحتمه ، أو أمر يكلف به المسلم البالغ العاقل سليم الحواس ، مع أننا ننادى فى كل مناسبة أنه دين المنطق والحجة ، والبرهان والدليل ، وأنه لا يرغم أحداً

على أن يؤمن به ، أو يذعن له ، أو يكره إنساناً على أن يجعله شعاره ، أو يتخذه عقيدة يلاقي بها ربه « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً » وأن هذا الفهم في الإسلام يجعل حجة أعدائه قائمة في أنه قام على القهر والغلبة ، أو التسلط والعنف . . ونحن نقول بأن موقفه كان موقف المسالم ، وأنه ما عالج المشركين بالقوة إلا بعد أن أعوزه اللين ، ولا أخذهم بالشدة إلا بعد أن وجد أنه لابد منها ، وأن القرآن الكريم كان يدوى صوته في أذن المسلمين جميعاً بقوله « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » لذلك كانوا في كل حروبهم مدافعين لا مهاجمين ...

وقد صح أن النبي صلى الله عليه وسلم في عودته من إحدى الغزوات قال لأصحابه « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » وعلى هذا فمن الخطأ البين أن نضفي على الجهاد ذلك المعنى الدموي الذي يستقر في الأذهان عنـــد أولئك المشاغبين ممن يشوهون في حقائق الأشياء ، ويمسخون تصوير المسائل ، بعد هذا الذي قدمناه من قول الرسـول صلى الله عليه وسلم ، فإنه لم يسم الغزو إلا أنه « أصغر » ومن الفهم الأولى الذي تقتضيه المقابلة ا « لأكبر » نعلم أن هنالك جهاداً أعظم من الجهاد بالسيف ، وجهداً أشق من الجهد الذي يبذله المسلم في ميدان القتال ، ومنه مايسميه الاصطلاح الحديث الجهاد السلبي ، أو حرب المقاطعة ، كما كان يفعل « غاندي » في الهند مع المستعمرين الانجـليز ، إذ كان يدعو الشعب إلى عدم التعامل معهم ، أو الأخـــذ منهم ، أو الاحتياج إليهم ، وهي المكيدة التي صنعتها قريش مع النبي والمسـلمين إذ حاصرتهم ق شعب بني هاشم ، ومنعت البيع إليهم ، والشراء منهم ،

والاستعانة بهم ، وظلت معهم على هذا الوضع حتى كادوا يموتون من الجوع ... ويشبه ذلك كله من بعض الوجوه الذى نسميه — الآن — الاكتفاء الذاتى ، فإنه مع إنعاشه للإنتاج المحلى ، وجعل الدولة تستغنى به عن الوارد من الخـــارج ، حرب للاستعمار ، وتقليم لأظافره ، وإضعاف لشوكته ، وقضاء على سعاره ، وعدم تمكين له فى أن تتسع مناطق نفوذه ، ويساوى الاستعمار بعد أن دالت دولته ، وشالت نعامته ، وذهب ريحه ، ذيوله أو الذين تسميهم لغة السياسة ، بالأذناب والرجعيين والعملاء ، من كل خائن لوطنه ، متجهم لبـلاده ، متنكر لقومه ، متعاون مع أعداء شعبه ، فإن إعلان الحرب عليهم ، والوقوف فى وجوههم ، والإحباط لمؤامرتهم ، وإضعـاف شـوكتهم ، وتجنب العمل معهم ، وعدم تمكينهم من الكيد للوطن ، أو الإضرار بمصالح الشعب جهاد أكبر فى سبيل الله يكون له ثواب الجهـاد بمعنى خوض المعارك ، وبذل النفوس والأموال ...

وما أكثر ما يجد المسلم أمامه من الفرص التى تجعله مجاهداً له عند الله سبحانه وتعالى أعظم الأجر ، وأجزل الثواب ، فجهاده لنفسه عند الغضب الشديد ، والألم المرير ، حتى لايتورط فى مأثم ، أو يقع فى معصية ، من أحسن أنواع الجهاد ، وأفضل شتى القرب عند الله . . . وعلاجه للفقر الذى يصيبه ، وللعوز الذى يعتريه . والحاجة التى تطرأ عليه ، لون من ألوان الجهاد ، صان به وجهه عن السؤال ، وكرامته عن الابتذال ، ونفسه عن المذلة ، وآدميته عن السقوط ، وإنسـانيته عن الهوان . . . وتحمله المشاق فى سبيل مجد يؤثله ، أو علم يحصله ، أو عرض يصونه ، أو مال يحفظه ، جهاد مشكور ، لأن الإسلام يدعوه

إلى ذلك ، ويحثه عليه . . . وكل عمل يعمله المكلف فيه نفع للفرد ، أو صلاح للدولة ، يبذل فيه جهد المخلص، وطاقة الناصح وبراعة الحاذق، وكفاية العالم ، جهاد فيه تمكين الدين ، وقوة الأمة ، وسعادة الجماعة ، ونهوض الشعب ، وما كان هنالك جهاد لغرض أنبل من هذا ، ولا لغاية أعظم من تلك الغاية . .

وعلى هذا فإن قول الرسول صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » ينير لنا الطريق إلى الجهاد ، فإن كل عمل يعمله الإنسان بإخلاص وجهد ، وإتقان وعناية ، ورغبـــة واهتمام وإقبال وشوق ، له عليه أجر ، لأن الدولة جهاز متكامل من الجسم الذى يمثله الشعب كله ، وكما أن العضو الواحد إذا فسد كان الجسم عرضة للتلف ، وهدفاً للهلاك ، فكذلك الأفراد فى الأمة أو الشعب إن صادف أحدهم الإهمال فى عمله ، أو التقصير فى وظيفته ، أو الإنحراف فى سننه، أو الخيانة فى الأمانة الملقاة على عاتقه ، كان ذلك جريمة كبرى ، وزلة لا تغتفر . ومن أجل هذا فنحن كلنا محاسبون وجهادنا الأكبر لأنفسنا يقتضينا أن نعمل — كل فى محيط دائرته — من رئيس الدولة إلى أصغر إنسان فيها ... ومن هنا كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أوجب الواجبات عند المسلمين لأنه رقابة إدارية من المسلمين كلهم على المسلمين كلهم لا فرق بين حاكم ومحكوم . . .

الكتاب الإسلاميون

الكتاب الإسلاميون الذين يتحدثون عن الإسلام يختلفون كل الاختلاف فى حديثهم عنه، وتصويرهم له، ويرجع هذا الاختلاف إلى عدم فهمه من ناحية، وإلى ضيق الأفق والجمود من جهة أخرى... فبعض الكتاب المسلمين يتصدرون لجلاء معناه، وبيان رسالته، ووظيفته فى المجتمع، ويتناولونه من ناحية صلته بالعلوم، وعلاقته بالفلسفة، أو رسمه للخطوط الطويلة العريضة للحياة الاقتصادية أو السياسية، ونحن لا ننكر عليهم نواياهم الطيبة، وجهودهم المشكورة، وتفكيرهم الذى ينطوى على الرغبات النبيلة، والأهداف السامية، والمقاصد الشريفة، إلا أنهم لا يضعون نصب أعينهم الفرق بين الإسلام كدين وعقيدة، وبين الإسلام كنافذة من نوافذ النور التى أراد الله جل جلاله أن يظهر منها بصيص الهداية، وأنه كدين أو عقيدة قد وفى بما عليه، وأدى ما كان يرجى منه، فلم يدع مجالا لشك، ولا مكاناً لريب، ولا موضعاً غامضاً تتحير بسببه ألباب العقلاء، أو أفكار الفلاسفة .. ولكنه كنافذة من نوافذ النور لم يكن عليه إلا أن يفتح الأعين على الضياء، ويقود الأرجل إلى موضع الخطا، وشأنه فى ذلك شأن العنوان فى الكتاب الذى ينير الآفاق، ويوجه الذهن، ويوقظ الهمة، ويجمل الموضوع، ثم يترك ماوراء ذلك للبحث والنظر، والقراءة والتأمل، والدأب[1]

---

١ — الجد والتعب والعمل المتواصل

والتحصيل ... والجماعة ممن تناولوا القرآن الكريم أو السنة النبوية من النواحي العلمية أو الفلسفية زلات ساقهم إليها أنهم نسوا أن الكتاب الكريم أو السنة النبوية لم تكن وظيفة واحد منهما تتعدى المعنى التشريعي الذي يبين الحلال والحرام ، والواجب والمسنون ؛ والسلوك والمعاملة ؛ وصلة الفرد بالفرد ، أو الفرد بالجماعة ، وبعد ذلك وذلك صلة العبد بربه ؛ وأنه إذا تصدى في ثنايا ذلك لمظاهر الطبيعة ، أو الأرض التي دحاها(١) الله ، وللسماء التي رفعها ، وللأنهار التي أجراها . وللجبال التي أرساها ، فليس ذلك ليتحدث عن مناجم الحديد ، ومنابع البترول ، والانتفاع بالطاقة الحرارية التي تؤخذ من الشمس ، أو الذرة واستخدامها في السلم والحرب ، وما شا كل ذلك مما يريد المتزيدون أن يحملوه إياه ، أو يدخلوه في مفهومه ، وبحسب القرآن — مثلا — التوجيه العام كقوله « وأنزلنا الحديد فيه بأس شــديد ومنافع للناس » أو كقوله « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون » أو كقوله « وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصاً سائغاً للشاربين » أو كقوله « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشــون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا (٢) يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون » وعلى الإنسان بعد هذا التوجيه أن يدرس ويبحث ، ويتقصى ويتأمل ، ليصل إلى ما في

---

١ — بسطها

٢ — سهلة السلوك غدوا ورواحا

الأنعام من منافع وعبرة ، وإلى ما للنحل من إلهام جعلها تنسق فى شكل هندسى رائع قرص العسل ، ثم ما فى خلقها وما يخرج من بطونها من قدرة ربانية يحار فيها عقل اللبيب ، ورأى الأريب ، وحكمة الفيلسوف

أما رجال الدين المتخصصون فيه، المنقطعون له، المشتغلون بدراسته للناشئين أو غير الناشئين ، فإنهم لم يعوه إلا مسائل ، ولم يحفظوه إلا مشاكل ، ولم تكن بضاعتهم منه سوى الخلافات المذهبية ، وتلك الآراء المتنوعة التى تناقلوها عن الأسلاف فى الآية من كتاب الله أو سنة رسوله ، أو الآراء فى حكم من الأحكام التشريعية التى يقول بها الفقهاء ، ويفتى بها العلماء، ثم لا يكلفون أنفسهم البحث عن حكمة التشريع أو علة الحكم ، أو فهم الموضوع فهماً يتمشى مع العقليات الحديثة التى تأثرت بعلم النفس وغيره من العلوم التى عملت عملها فى تكوين العقليات وتلوين الأفهام . . ولا يتجاوز الواحد منهم أن يكون نسخة من كتاب أو صورة معادة ، أو معنى مكرراً . هذا مع الاستثناء لما يشتغلون به من التطاحن على معتقدات لا تخدم الدين ولا المتدينين ، وهكذا مما جعل كثيراً من المثقفين ثقافة عصرية لا يمكن بحال من الأحوال أن يصيخوا إليهم ، أو يستمعوا لحديثهم ، أو يفهموا منهم شيئاً ، وقد كان مما يلقنه لنا الأساتذة فى الصغر أن العلوم يخدم بعضها بعضاً ، وأن كل معرفة يضيفها المرء إلى ذهنه تكسبه قوة إدراك، وشدة تمييز ومقارنة ، وحدة فهم وترجيح ... والإمام الشافعى رحمه الله لما جاء إلى مصر ووجد من طباع أهلها ، وسلوك سوادها ، وما يحتويه المجتمع فيها من عرف

سائد وخلق متمكن، كان ذلك حاملا له على أن يجدد فى المذهب : ويرجع عن بعض الآراء ، ولذلك يقول الذين لهم دراية بفقهه هذا هو المذهب القديم ، وذاك هو المذهب الجديد ... ومن مصادر التشريع الإسلامى العرف والعادة ، والمصالح المرسلة ، وسد الذرائع ، وهى تتطلب فهما واعياً ، وكياسة واسعة ، وحصافة لا حد لها ، وعلما فياضاً ، وبصراً نافذاً ، وخبرة عميقة للأوساط المتنوعة : والبيئات المختلفة ، ودراسة مستديمة لحاجات الناس وأحوالهم ، وهى أمور تحتم ألا يعيش رجل الدين فى صومعة ، أو يعكتف فى دير ، أو ينقطع فى مفازة ، ولكنه لابد أن يكون عالما بكل شىء ، عارفا لكل مشكلة ، فاهما لكل عقدة ، يجيد الخروج من كل مأزق، فإن تحدث المتحدثون فى الأدب كان متذوقا له ، غير جاهل به . وإن خاضوا فى المنطق لم يكن بعيداً عنه . ولا خالياً منه . . وهكذا له بكل ناحية إلمام ، ويمسك لكل فرس بلجام . . وقد رووا أن ترجمان القرآن « عبد الله بن عباس » كان يستقبل أهل البادية ويسألهم عن الكلمة ويحفظ منهم لها الشواهد من الشعر . والألفاظ من الخطب أو الأمثال، حتى إذا ما اطمأن للمعنى، أو استراح للاستعمال أعلن أن هذا ما تذهب إليه الآية ، أو تقصده الكلمة من كتاب الله . وحكوا — كذلك — أن رجلا من علماء اللغة المولعين بضبط النطق وصحة اللفظ ، اشتبهت عليه كلمة فرجة بمعنى انفراج هل هى بضم الفاء أو فتحها ، فحمله ذلك على التجوال فى البلاد . والتنقل فى الممالك والأمصار ، طلباً للتأكد من وجه الصواب فى هذا ، ولم يزل على ذلك حتى دخل العراق،وكان دخوله مصادفاً لنعى الحجاج: ودوى خبر النعى

فى أذنه فى الوقت الذى دوى فيه صوت رجل من البادية كان يردد هذا البيت . .

ربما تجزع النفوس من الأمر   له فرجة كحل العقال

وكان يقرؤها « فرجة » على وزن سجدة ونبقة ، فاستقبل ذلك بالبشر والسرور ، والغبطة والارتياح ، وقال والله ما كنت أدرى أيهما كان أحسن موقعاً عندى . موت الحجاج ، أم ظفرى بالكلمة التى عنانى طلبها ، وأتعبنى البحث عنها ... وليس ذلك كله إلا صورة متواضعة لما يكون عليه طلب العلم ، ونشدان الحقائق ، والبحث عن وجه الصواب ، والأمانة التى تقتضيها ضرورة التصدى للأشياء .. . وبخاصة إذا لاحظنا أن الذين يطعنون الإسلام ، ويلصقون به الأباطيل ، أكثرهم من المستشرقين الذين تعلموا علوم الأوائل والأواخر ، وبرعوا فى نصب الشباك، وطرح الأحابيل ، وتنميق الشبه ، وأن أمثال هؤلاء لايردهم إلا عالم عرف أساليبهم ، وفهم حيلهم ، ودرس ألاعيبهم ، ولولا أن الإمام محمد عبده ابتلاه الله بالنفى والتشريد ، وأتاح له من وراء ذلك معرفة طبائع الناس ، وميول الخواص والعوام ، وسياسة الامم والشعوب ، لما كان هو ذلك الرجل الواسع الأفق ، عميق الغور واضح الرأى ، قوى الحجة، كبير العقل ،عظيم التصوير ، بليغ الأسلوب نافذ البصر ، بارع الإقناع ، لا يستطيع أحد أن يعوق سيره ، أو يعطل شوطه ، أو يعرقل سعيه ، أو يحول وجهه : أو يضلل قصده ، وكذلك كان أستاذه جمال الدين الأفغانى الذى هز الشرق بيديه وأيقظ المسلمين

من نومهم ، وحرر العقول من عبودية التفكير . ولأمثال هذين الرجلين من المفكرين المسلمين أثرهم فى قوة الدعوة الإسلامية ، ووضوح أغراضها ، وسلامة منهجها ، وبعد أهدافها ، وصحة منطقها ، ونبل غايتها .

والمسلمون — فى مصر وغيرها من البلاد الإسلامية — ينظرون إلى التطوير الجديد فى مناهج الدراسة بالأزهر نظرة المتفائل المبتهج ، معتقدين أن تلك العلوم التى يدرسونها ، والآفاق التى تتسع لهم ، سيكون لها الأثر الطيب فى مرونة الفهم ، وإنارة العقل ، وكياسة الفكر ، وسداد الرأى ، وتقريب مسافة الخلف بين المتعلمين ، ويأملون أن يكون المهندس والطبيب وغيرهما ممن يدرسون العلوم المدنية لهم إلمام بعلوم الدين إلى جانب إلمامهم بما تخصصوا فيه ، ويترقبون أن يكون وراء هذا الفجر الجديد صبح جديد ، حتى لا تفقد مصر المسلمة زعامتها الإسلامية الكبرى التى أكسبتها إياها تلك الجامعة العريقة الخالدة ... وإذا كانت المملكة السعودية تقيم فى بلادها جامعة إسلامية لدراسة علوم الدين والشريعة ، وإذا كان فى تونس جامع الزيتونة ، وفى مراكش جامعة القيروان ، وفى ليبيا جامعة السنوسى ، ومعاهد للتعليم الدينى ، فإننا نرجو أن يعم ذلك كله البلاد الإسلامية المختلفة ، لأنها كلها تمكين للأزهر ، وتوطيد لدعائمه ، وضمان لحياته ، وامتداد لبقائه ، وليس فى ذلك تهديد له ، ولا هدم لمعالمه ، ولا صرف للناس عنه — كما يزعم بعض المرجفين — لأن الثقافة الدينية والعربية فى مصر عاصرتها ثقافة مثلها فى البلاد المختلفة ولم يكن ذلك تحويل للوجوه عنها ، ولا زهد للنفوس فيها ، بل كان هذا من العوامل القوية فى الالتفاف حولها ، والرغبة فيها ، والتمسك بها ، وما ندرى إن كان ذلك لجمال طقسها ، واعتدال جوها ، وعذوبة ماء

النيل فيها ، أم إن لهذا التاريخ الطويل الذى أمضاه الأزهر فى الحفاظ على تراثه ، وأداء رسالته ، وخدمته للضاد ، والذياد عن حياض الشريعة — مع عسف الظالمين وطيش السلاطين — قداسته عند المسلمين ، فهم ينظرون له تلك النظرة المليئة بالإكبار والاحترام ، والحفاوة والتقدير أم إن للسان أهل مصر العربى الصميم ، على الرغم من فرعونيتهم القديمة فضلا على عذوبة البيان ، وفصاحة النطق . وتقويم الأسلوب ، وحسن الأداء ، وجمال الأدب ، وازدهار اللغة ، جعل الناس يعتبرونهم أساتذة .

عصبية الإسلام

يزعم كثيرون من أعداء الإسلام أنه دين عصبية ، فهو يميل بجانبه إلى أتباعه . ويقدم مصالحتهم على سواهم ، ويعلن — دائماً أبدا — أن أهله خلاصة الجنس البشرى : وأصحاب السيادة على الناس ، وأن ذلك كله لا يتفق مع الدعوى القائلة بأنه دين المساواة والاشتراكية ، والإنصاف والعدالة ، والسلام والأمن ، والهدوء والاستقرار ، وربما استدلوا لدعواهم هذه بأنه يحذر المسلمين من موالاة [1] من يخالفونهم فى العقيدة ، أو يغايرونهم فى الدين . فى حين أن ضرورة العيش ، وحاجة التعامل ، وسياسة السلوك ، تقضى بتبادل المنافع ، وتعاون الأيدى ، وتآزر القوى ، وتضافر [2] الآراء ، من غير نظر فى ذلك كله إلى مبدإ خاص ، أو نحلة من النحل ، أو خلق أو عادة ، أو وجدان أو عاطفة . . . أو ربما استدلوا بأنه لا يرضى للمؤمن أن يدخل فى سلطان الكافر ، أو يعيش فى دولته ، أو يكثر سواده ، أو ينحاز إلى ناحيته ؛ أو أن الإسلام لا يقبل الكافر فى بلاد الإسلام ، ولا يجعله متمتعا بالأمن الإسلامى ؛ أو ناعما بالاطمئنان والراحة فى جوار

---

١ — مصادقة وتودد

٢ — اجتماع وتلاق فى الرأى والهوى كما تتلاقى وحدات الضفيرة ليقوى بعضها بعضا

المسلمين ، إلا إذا دفع الجزية صاغرا . . وقد قال بعض الفقهاء إن أهل الذمة ليس لهم أن يرفعوا بنيانهم ؛ أو يركبوا دوابهم أثناء مرورهم على المسلمين . . وهكذا من كل ما يبعث فى نفوسهم الخيلاء . أو يحملهم على المباهاة ، أو يدفعهم إلى الغرور . . .

وربما قالوا — كذلك — إن القرآن الكريم لا يتحدث عن أهل الكتاب إلا حديث المندد بسلوكهم . الزارى على أخلاقهم ، المنوه بسوء صنيعهم ، كقوله « ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم » وقوله « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق » وقوله « وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم » وقوله « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » وقوله « ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ، وما أنت بتابع قبلتهم ، وما بعضهم بتابع قبلة بعض ؛ ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين » وقوله « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم » . . .

والواقع أن هذه كلها أدلة لا يعدم المغرض أن يجد فيها الشاهد على صدق دعواه أن الإسلام دين يتعصب للمسلمين ، وينادى فى كل مبدأ من مبادئه ، وكل تشريع من تشريعاته ، أنهم صنف ميزه الله على غيره وشعب رفعه الله على رؤوس الناس ، ولكن هذا كله لا يعنى شيئاً من العصبية ، ولا يدعو إلى نوع من التحيز ، ولا ينادى ببعض من التميز .

ولا يعان أنه يطرح كفاية الناس وأقدارهم ، ومهارتهم واستعدادهم ، وعلومهم وأخلاقهم ، وسلوكهم ومعاملتهم ، لأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب . . . وذلك لأن الإسلام يرى أنه تشريع إصلاحى عام جاء به محمد صلى الله عليه وسلم لصلاح البشرية كلها من غير نظر إلى جنس أو لون ، أو دين أو عقيدة . . وهو فى الوقت الذى يدعو أهله إلى أن يكونوا قدوة متبعة ، أو قانونا موجها ، أو دستورا نافعا ، لا يخص بذلك المسلم دون الكافر ، فيقول « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » فلا يخص ذلك الأسلوب من التزام العدل ، والميل إلى الإنصاف ، أو إقرار الأمور فى نصابها ، بالمسلمين فقط بعنوان كونهم أجدر أن يجدوا فى جوار إخوانهم المؤمنين من طيب العيش ; وحسن المعاشرة ، واستقرار الإقامة ، وعدم الخوف ; والعدل فى المعاملة ، مايضمن لهم سلامة الأموال والأرواح والأعراض . . ولكن يطالب بقوله لهم « كونوا قوامين » أن يجعلوا ذلك قواماً لأنفسهم ، يكمل ما يكون فيها من نقص ، أو يشين خلقها من عيب ، أو يتهدد روحها من خلل . . . وهكذا فى كل فضيله يحث عليها ، أو يأمر بها ، لا يجعل منها دستورا خاصا للمسلم مع أخيه المسلم ، ولكنه يسوقها سوقا عاما ، ويعرضها عرضا شاملا ، ويطلب أن يجعلها الإنسان عنوانه مع القريب والبعيد ، والمسلم والكافر . . .

وإذا كان فى بعض الأحوال يقسو على غير المسلم أو يشتد إذا خاطبه ، فليس ذلك لأنه ينزل بقدره أو يزدرى[1] لنفسه ، أو يغض من شأنه ، أو يغرى به المسلم ليهدر دمه . ولكنه ينبهه إلى ما لأجله كانت الشدة أو القسوة ، والغلظة أو الجفوة ، فهو يكره فيه الشين ، ويبغض فيه العيب . ولا ينكر عاقل أن الإنسان إنما يذم ويمدح للوصف الذى يتصف به . والعرض الذى يطرأ عليه . والسلوك الذى يسلكه . والأدب الذى يلتزمه . والأخلاق التى تكون فيه . والإسلام لا ينكر أدباً أو سلوكاً . وعادة أو طبعاً . وعملا أو نية . إلا وهو يرى أنه لا يجمل مثله بالعاقل . ولا يليق مثـــله بالإنسان . بصرف النظر أو الاعتبار عن الدين الذى يؤمن به . أو البيئة التى يعيش فيها . أو الظروف التى تلابسه ..

وشدته على الكافر فى السلوك الذى يتبع معه . والمعاملة التى يعامل بها . والأدب الذى يلاحظ فى معاشرته . أصلها يرجع إلى أنه يعتبر جريمته التى ارتكبها، وإثمه الذى اقترفه . وطيشه الذى بدا منه . وسفهه الذى وضعه فى هذا الوضع . من شأنها أن تجرده من الخير وتنأى به عن الصواب وتحول بينه وبين المعروف . وتجعل الأمل فى ميله إلى الإنصاف أو الحق أو البر أو الحسن أو القصد والاعتدال مفقوداً . ولذلك كان الشرك عند الله سبحانه وتعالى من الكبائر التى لا يتسامح فيها . ولا يتغاضى عنها . « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون

---

١ — يحتقر ويستهين بشأن

٢ — يجعله مطول الدم لا يقتل فيه قاتله

ذلك لمن يشاء » .. وقد يكون السبب فى هذا يعود إلى أنه بعد أن خلا قلبه من الإيمان بالله . وإفراده بالخلق . واختصاصه بالطاعة . أصبح لا يعترف بقانون . ولا يستجيب لفضيلة . ولا يذعن لواجب . ولا يؤمن بمعايير . ولا يحترم حقاً . ولا يهيب منكراً وهو بهذا صار أشبه بالوحوش المفترسة . أو الكلاب الضارية . لا رجاء فى صلاح حاله . ولا أمل فى اعتدال سننه واستقامة سلوكه ... وعلى ذلك لا عصبية فى معاملته . أو الحكم عليه . مادام هذا تقريراً لطبائع الأشياء « يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس » . .

أما حديثه عن اليهود والنصارى بما يفيد التحامل عليهم أو البعد عنهم . والقطيعة لهم وعدم الثقة أو الاطمئنان إليهم فليس ذلك للزراية لدينهم . أو التشهير باليهودية والنصرانية . التى أعلن عنها وأشاد بها . وجعل الإيمان بها . من تمام عقيدة المسلم وهل يتعصب ضد اليهودية من يقول كتابه فيها « ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذى أحسن وتفصيلا لكل شىء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون » أو يتعصب ضد النصرانية من يقص قصتها كاملة . ويسوق خبرها مفصلا وينوه برسولها هذا التنويه « إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين . قالت ربى أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق من يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل . ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله

وأبرىء الأكمه(١) والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ومصدقاً لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعونى إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون » ..

مع أن هؤلاء وهؤلاء كادوا للإسلام والمسلمين بما لا يترك مجالا لود . ولا مكاناً لحب . ولا موضعاً لمجاملة . ولا باباً من أبواب الخصومة . إلا دخلوا منه . وبخاصة اليهود الذين أساؤا للإنسانية . وأفسدوا فى الأرض . وأمعنوا فى الشر . وبالغوا فى الأذى وتطاولوا على الله . وقاتلوا الرسل وأشاعوا الرذيلة . وأحدثوا الشغب. وهددوا سلامة الناس وأمن البشرية . فلما طفح كيلهم . وزاد ويلهم ورأوا القرآن الكريم يشيد بملة إبراهيم التى كان محمد يتعبد عليها قبل البعثة . وينوه بأنها كانت جذراً لما جاء به وأن شريعته كانت استجابة لدعوة إبراهيم وولده إسماعيل « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين »

---

١ — الذى ولد أعمى

زعموا أن إبراهيم كانت شريعته من صميم اليهودية والنصرانية «وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين »، وكان أبلغ ردمن الله عليهم . وأشنع فضيحة من الله لهم عدم الاعتراف بتلك اليهودية التي مسخوها . ولا بهذه النصرانية التي افتعلوها . وذلك حيث يقول « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً »، وحيث يقول « أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون »، وحيث يقول « إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولى المؤمنين ، ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون . يا أهل الكتاب لما تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون . يا أهل الكتاب لما تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون »..

ولولا أن ذلك كله كان رداً على افتراءاتهم . ودفاعاً حمل عليه هذا الهجوم الآثم الذى هجموا به على محمد وشريعته . لما خرج عن أسلوب المهادنة وخطة المجاملة . وسياسة السلم ولهذا فإنه فى الوقت الذى يقول فيه « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم »، ويقول فيه « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم »، ويقول فيه « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء »، ويقول فيه ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم »، لا ينسى أن فيهم من يستحق الإشادة بفضله والتنويه بشأنه . والثناء على مكارم أخلاقه .. فيقول « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك . ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده

إليك . إلا مادمت عليه قائماً ، ويقول « ليسوا سواء من أهل الكتاب امة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين »

والذى يتقصى البحث عن حقائق الأشياء . ويدرس خواص النفوس . ويعلم غرائز الناس . ويعرف معرفة لا شك فيها أن العصبية ديدن العجزة . وشيمة الضعفاء . وسمة المتخاذلين . وليس الإسلام بالذى يتعصب لأنه قوى . ولا بالذى يتجنى لأن كتابه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولا بالذى يسوق الدعاوى جزافاً وهو الذى يقدس العقل . ويحترم المنطق . ويشيد بالحجة والبرهان ويصلح تشريعه لكل زمان ومكان . .

الحاكم فى الإسلام

الحاكم فى الإسلام هو الراعى المعنى بقول النبى صلى الله عليه وسلم « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ولكن الإسلام لم يشترط له شروطاً ، ولم يضع له حدودا ، ولم يحصره فى بيئة معينة ، أو طبقة من الناس ، والنبى صلى الله عليه وسلم كان للمسلمين حاكماً وقاضياً ومفتياً وإماماً وهادياً ومرشداً وأستاذاً معلماً فى الوقت الذى كان يعلن فيه كلمة السماء ، ونداء الوحى ، وصوت القرآن ، ولم يكن من طبقة الملوك ، وذوى السلطان . وأرباب الجاه ، أو الثروة والمال . أو ما شئت مما يجعله الناس من المرشحات لمن تحدثه نفسه بالنفوذ والرياسة ، والتسلط والحكم ، والقيادة والسيادة ، إلا أن علماء الفقه الإسلامى تحدثوا أحاديث متناثرة عن القاضى وما لابد منه فيه من العلم والفهم ، والرأى والاجتهاد ، والبصر والذوق ، والعدل والإنصاف ، والورع والتقوى ، والزهد والعفة ، والأناة والحلم ، والعفو والتسامح ، والفطانة والذكاء ، والألمعية(1) والفقه . كما تحدثوا — كذلك — عمن يلون الوظائف العامة فى الدولة من جباية الخراج ، وجمع أموال الصدقات ، وولاية الثغور ، وقيادة الجيوش ، وغير ذلك وذلك . ولم يخرجوا فى حديثهم عنهم ، ووصفهم لهم ، وشروطهم فيهم ، عن الكفاية التامة فى العلم والرأى ،

---

١ — شدة الذكاء

والورع والزهد ، والإنصاف والعدل . والدين والخلق . والأدب والحلم واليقظة التامة ، والبصر النافذ ، والسياسة والكياسة ، والحزم والرشد وقد تحدث الماوردى من علماء الشافعية عن خليفة المسلمين حديثاً مستفيضاً انتهى منه إلى أنه يجب أن يكون فى القمة العالية من العلم والحلم . والزهد والورع والخشية والخوف . والفقه والمعرفة . والحدب على الرعية . والسهر على مصالح المسلمين . والاشتغال بشؤونهم ؛ والتفكير دائماً أبداً فى النهوض بمستواهم ، والدفاع عن حوزتهم(١) وإعلاء رايتهم ؛ والتمكين لدولتهم ، والعمل على أن يبسط الإسلام أجنحته فى الأرض حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . . . وتحدث — أيضاً — ابن طباطبا الطقطقى فى كتابه « الفخرى » عن الملوك وما يجب أن يتوفر لهم من الآداب والأخلاق ولم يخرج عن حديث الفقهاء عن القاضى والخليفة وما شاكل ذلك من أصحاب الجاه والسلطان فى الدولة . انتهى منه إلى قوله « ولو نظر أصحاب الآراء والمذاهب حق النظر . وتركوا الهوى لكانت هذه الشرائط هى المعتبرة فى استحقاق الإمامة . وما عداها فغير طائل » . . .

والحقيقة التى لا محيد عنها أن المسلمين رسموا لأنفسهم الصورة المثالية للحاكم من قول الله جل جلاله « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » وهى على ما بها من إجمال تطوى كل فضيلة . وتحوى كل جليلة ، وترشد إلى كل خير ، وتوجه إلى كل عدل وإنصاف ، وحدب وحب . ونهوض

---

١ — الحريم والحمى ومثلها البيضة

وعمران. ورقى وتقدم ، وإصلاح ونفع .. وتفصيلها الواضح. وتفسيرها الواسع . وشرحها الضافى ، يلتمسه الملتمس ، فى رسالة الحسن البصرى لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنهما وقد سـألـه أن يصف له الإمام العادل . . . ثم كان قبل ذلك وذلك تاريخ الرسول صلى الله عليه وسلم فى قيامه على شؤون المسلمين ، وقيادته لهم . وتحمله لتلك المسئولية العظمى التى كلفه الله بها . وتلقى أبى بكر الراية بعده هو وعمر والخلفاء الراشدين ، وهو لم يترك مجالا لنقص ، ولا موضعاً لنقد ؛ ولا مكاناً يبحث فيه الباحثون عن شرط تائه ، أو وصف مفقود ؛ بل كانت هذه كلها بمثابة السوابق التى يقدمها علماء القانون على الدستور المدون ، والفقه المتوارث . . . . ونحن لا نجهل ما الذى كان عليه رسول الله صلى عليه وسلم من الاهتمام بأمر المسلمين ؛ ودأبه الدائم لحثهم على الخير ، ودفعهم إلى الأمام ، وتكوينه منهم جماعة قوية متراصة تهز الدنيا ، وتزلزل الأرض ، كما لا نجهل ما الذى كان عليه أبو بكر من تجرده من شؤون أهله ؛ وقطع سبحه للجهاد فى سبيل الله ، والقضاء على الفتنة ، وإقرار الأمن ، وتوفير السلام . . كما لا نجهل أن عمر مع كفايته وفضله ، وصرامته وشدته . وصراحته وغلظته ، ومهابته وعزته ، وبأسه وقوته ، واحترام المسلمين له ؛ وحبهم إياه ، ومباهاتهم به . وتاريخه الناصع ؛ وسلوكه المجيد ، لم ينازع أبا بكر الخلافة ؛ ولم يزاحمه عليها ؛ ولكنه كان تحت رايته ؛ يعاونه ، ويأخذ بناصره ، ويذود عنه ؛ وكان كلما أشار على أبى بكر بالرأى فشرح الله صدره به ، واطمأن قلبه إليه . قال له أبو بكر « لقد كنت أولى بها منى يا عمر » فلم يأخذه الزهو . ولم يتسرب

إلى نفسه الكبر . ولم يستغل نفوذه عنده — كما يفعل بطانة الوزير أو الوالى — وظل كالجنـــدى المجهول لا يعلن عن مكانته ، ولا يتاجر بكفايته . .

أما كيف يظفر هذا الحاكم الإسلامى بكرسى الحكم . أو يظفر إلى مكان الرياسة على الشعب أو الأمة . وهل يكون ذلك بالانتخاب أو ولاية العهد — وإن كان شىء من حديث ذلك . قد تقدم — فإن ما بأيدينا من مصادر . وما برؤوسنا من علم . وما بتاريخنا من أخبار . وما فى ما ضينا من عظات وعبر . تدل على أنه كان بالانتخاب وكان بولاية العهد . وكان بالقسر والغلبة . وكان كل واحد — أو واحدة — من هذه لابد منها فى هذا الوقت . فأبوبكر رضى الله عنه كان بالشورى والانتخاب . . وعثمان رضى الله عنه كان بالانتخاب . وكلا الانتخابين يخالف الآخر . إذ أن انتخاب الخليفة الأول كان من سواد العـامة . وانتخاب عثمان كان من طبقة معينة من الأمة . لعلها كانت الطبقة المستنيرة . أو الفئة الممتازة ، وهم النفر الذين عينهم عمر رضى الله عنه لمن سأله أن يجعل ولاية العهد لابنه عبدالله . كما جعل أبو بكر ولاية العهد له . فأبى عليه ذلك . قائلا بحسب آل الخطـاب أن يحـاسب الله واحداً منهم عن هذه الأمة . ثم قال له ولكننى أدلك على نفر مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو راض عنهم . ليختـار المسـلمون الخليفة منهم . وكان فيهم عثمان الذى انتهت إليه الخلافة بعد . ومن هذا العرض المجمل والسريع — فى آن واحد — ندرك إلى حد ما أنه لم يكن لاختيار الحاكم أسلوب محدود . ولا طريقة خاصـــة . وأن

الانتخاب الذى وصل على حسابه إلى خلافة المسلمين أبو بكر وعثمان لم يكن دستوراً على طول الخط ، كما أن ولاية العهد التى أخذ بمقتضاها عمر الراية من أبى بكر لم تكن أسلوباً دائماً جرى عليه المسلمون . . . إلا أننا نلحظ من فرق ما بين الظروف المتفاوتة التى لابست خلافة أبى بكر وعثمان أن الانتخاب الذى كان فى خلافة أبى بكر كان ضرورياً عمومه فى طبقات الأمة من العامة والخاصة . والأنصار والمهاجرين . والأقارب والأباعد من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والشيب والشبان من المسلمين ، حتى ينتهى بالقضاء على العصبيات . والرجوع إلى الكفاية الصادقة ، التى تمثلت فى رجل كان له من ماضى جهاده وبلائه وصحبته واختيار الرسول له أن يصلى بالناس فى مرض موته . ما يشفع له بالجدارة بالخلافة بعد صاحبه فى الغار الذى كان يقول له حينما يشعر بالوحشة والخوف « ما ظنك باثنين الله ثالثهما » التى ترجمها القرآن الكريم فى تلك الجملة الرائعة . . « لاتحزن إن الله معنا » . .

أما انتخاب عثمان رضى الله عنه فى أضيق الحدود — هكذا — من النفر الثمانية أو السبعة . لأن عمر رأى بثاقب نظره أن رؤوساً كثيرة تشرئب . ونفوساً كثيرة تتوثب . وأن علياً ينتظر الفرصة المتاحة منذ امتنع عن مبايعة أبى بكر . وأن ذلك كله قد يعمل عمله فى تفريق الصفوف . وصدع الشمل . واستفحال الشر . واندلاع نار الفتنة . وأن القضاء على ذلك كله لا يكون إلا فيما صنع . . . كما كان أبو بكر — كذلك — بعيد النظر . صائب الرأى . كبير العقل . سليم التفكير . حينما جعل ولاية العهد بعده لعمر . لأنه أمثل شخصية على وجه الأرض فى هذه الآونة . وقد صدقت فراسته فى هذا الاختيار . لأن علماء

الاجتماع . ودهاقين السياسة . وأساتذة التاريخ مجمعون على أن عمر بن الخطاب لايمكن أن يجود الزمن بمثله على الناس . .

والذى نخلص منه من تلك الدراسات عن الحاكم فى الإسلام الذى هو فى نظر علماء الفقه الإسلامى « ظل الله فى أرضه » والذى يعتبرون وظيفته من أنبل الوظائف وأقربها طاعة إلى الله . إلى حد أن يتناقلوا فى شأنه هذا الأثر « عدل ساعة فى حكومة خير من عبادة ألف سنة ». أن الحاكم فى الإسلام مثال من أمثلة الريادة العـــامة ، والخدمات الإنسانية ، والجهود التى لايقوم بها إلا الصفوة المختارة فى الأمم والجماعات . . وأن ظروف وصوله إلى الكرسى تتكيف بالظروف والملابسات التى تمليها ، وتحتم وجودها . . . وأن تسميته ملكاً أوزعيما أو إمبراطوراً أو ما شاكل ذلك من أسماء لا حساب لها فى نظر الإسلام ولا هو يعطيها من الرعاية والاهتمام ما يؤهلها للتقدير والاحترام . والذى يعنى الإسلام بعد ذلك كله من هذا الحاكم أن يكون مثالا طيباً فى العدل والإنصاف . والنزاهة والعفة . والطهر والاستقامة . وحب الخير للناس . والتسوية بين الرعية فى الحقوق والمعاملات . وألا تحيط به شبهة أو تلاحقه تهمة . أو تلتصق به ريبة . أو يجعل من سلطانه وسيلة إلى منكر . أو سبيلا إلى معصية . أو طريقاً إلى غضب الله عليه. وكراهية الشعب له . . وهكذا كان الحاكم الإسلامى خالياً من الكبر . بعيداً عن الغطرسة . مجافياً لأساليب العنف . إلا إذا اعتدى أحد على حرمات الله . أو جاهر فاسق بمعصيـــة . أو أعلن مجرم الإفساد فى الأرض . ولم يفهم الحاكم الإسلامى إلا أنه الأخ الكبير فى الأسرة . أو الأب الشفيق فى البيت . أو الأستاذ المربى فى المدرسة . أو الناصح

المخلص للجماعة . أو الهـادى المرشد للقـافلة . ولذلك أحـاطته الرعية بقلوبها . ووضعته فى نفوسها . وصانته فى محاجرها . وفدته بما تملك من غال وثمين من أموالها . وكان يشعر أنه يتربع على عرش من الأفئدة التى تحبه . والأرواح التى ترفرف حوله . والآمال التى تترامى عنده . والأمانى التى تتعلق به . والرجاء الذى يعقد الخناصر عليه . ولم يرديناً جعل للحاكم هذه القداسة . ولا أحله هذه المكانة . ولا مكنه من قلوب الرعية . كما فعل هـذا الدين الذى كان دستوره العـدل . وقانونه الرحمة . . . .

التكافل الاجتماعي في الاسلام

وإذا كان من الكلمات الحبيبة إلى أسماع الناس في هذه الأيام كلمة « التكافل الاجتماعي » وما يرادفها مما يجعل الترابط بين الأفراد قائماً مقام القانون : فلا يبيت إنسان شبعان وجاره إلى جانبه طاو[1] على المضاضة والألم : والهم والحزن . والكآبة والحسرة . أو يختال مختال بثوبه الجديد . وحلته البراقة . في حين أن أخاه يشكو البرد القارس . والعري الشنيع . وهكذا مما يفكك الأواصر . ويفتت الجماعة : ويوزع الأهواء . ويفرق القلوب . . . فإن الإسلام أول دين اهتم بالأسرة الإنسانية . والتفت إلى العرى الاجتماعية ، ودعى في كل تعاليمه إلى السخاء والبذل ، والجود والعطاء ، وكفالة اليتيم . ورعاية الفقير ، وإغاثة الملهوف . وإنقاذ المتورط وإرشاد الضال : وعلاج المريض وتعليم الجاهل . واعتباره هذه التكاليف التي يقوم بها المتدينون تهذيباً لشعورهم . وتقويماً لنفوسهم . وتوجيها لسلوكهم . ليكون ذلك كله بمثابة الإعداد الاجتماعي الصحيح الذي يساعد على أن يكون الفرد لبنة كريمة في بيئة صالحة . أو جماعة قوية يكون شأنها البناء لا الهدم . والعمران لا التدمير . والنهوض لا الركود . والإقدام لا التخلف والرجوع إلى الوراء . .

---

١ — من الطوى بمعنى الجوع

والإسلام فى سبيل ذلك يعود المرء أن يكون إنسانيا فى كل عمل يعمله . أو سلوك يسلكه : أو اتجاه يأخذ نفسه به : أو نية يضمرها فى قلبه . ويعلن إليه أن أفضل خير يقدمه أو معروف يبذله . هو هذا الذى يعود على الجماعة وتؤول فائدته إلى الأمة : وليس ذلك فى المال الذى يملكه . والجهد الذى يطيقه : أو العلم الذى يحصله ، ولكن فى المال وفى الجهد وفى العلم وفى كل مايجعل المسلم عضواً نافعاً فى المجتمع الذى يعيش فيه . . .

ومن أجل ذلك فنحن نعتقد أنه يحث على التصدق . ويأمر بدفع زكاة المال ويرغب فى الإنفاق الكثير فى سبيل الله : لا ليكون بين المسلمين طبقة عاطلة عاجزة : تستمرىء(١) الأخذ وتستكين للفقر . وتذل للحوادث وتلين عريكتها للأيام وتخضع آدميتها للأمر الواقع فلا تعمل على تحويل الأقدار . ولا تسعى إلى تحسين الحال . ولا تكد لإصلاح الأوضاع . ولا تسمو همتها إلى التخلص من تلك القيود . بل هو لا يفعل ذلك ليظل المعدم معدما . والعاجز عاجزاً . أو الذى يمد يده للسؤال على ماهو عليه من العجز والتوانى . والكسل والضعف والتخلف والمرض ، إنما يفعل ذلك وهو يقول لمن يأخذ « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .. ثم هو مع هذا وهذا ينادى بالأخوة « إنما المؤمنون إخوة » ليكون المسلم فى كل حالاته عطوفاً رؤوفا : لايقطع عروة موصولة : ولا يفسد مودة قائمة : ولا يباعد نفسين متقاربين ، ولا يفرق قلبين جمع الله هواهما المتفق ، وميلهما

---

١ — كأنما تعده مريئا أى يجرى عليه الجسم بمعنى ينمو ويقوى ويصح

المتلائم . . . وهذا هو السبب الذى جعل بعض الفقهاء يقولون إن الملكية وظيفة غير لازمة ، وحق غير مؤبد : وعلى ذلك فإن الذى لا يؤدى حقوق هذه الملكية من الإنفاق والصدقة ، ومعونة المحتاج . والنهوض بالأمة . لا يصح أن تبقى له تلك الملكية ، ولكنه ينحى عنها كما ينحى عن الوظيفة من لا يحسن القيام بها ، والانقطاع لها . . ومن هنا يرى ابن حزم أن الأرض الزراعية تؤخذ من المالك لها . إن أهمل استغلالها : أو أساء استخدامها ، أو قصر فى زراعتها . . وقد نقل عنه أن على أهل كل بلد أن يقوموا بالإنفاق على الفقراء الذين يعيشون معهم ويجبرهم السلطان على ذلك : إن لم يكن فى بيت المال ما يكفيهم ...

وفى عدد شعبان ١٣٨١ هـ من مجلة الأزهر مقـــال قيم للاستاذ « شلتوت » شيخ الإسلام والمسلمين يرى فيه أن أصحاب المدنيات الحديثة إن كانوا يعنون بالتكافل الاجتماعى فهم لا يعنون به إلا من جوانبه المادية التى تتصل بالمطالب المعيشية للفئات المحرومة من الغذاء والكساء والمسكن وما إليه . . بيد أن الإسلام لم يكتف بتقرير هذه الحقيقـــة وحدها ـــ منذ أربعة عشر قرنا ـــ وإنما قرر قبلها لكل مواطن حقوقا خمسة لا تتم كرامة الإنسان وسعادته إلا بها ، وهى حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل : ولهذه الخمسة جعل التشريع لصونها . والأحكام لحفظها ، والقوانين لاحترامها ، وهذا التكافل الإسلامى على أنواع .

« ١ » فمنه التكافل الأدبى الذى يرشد إليه الحديث « حب لأخيك ما تحب لنفسك » . .

« ب » ومنه التكافل العلمي الذي يدل عليه قوله تعالى « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد مابيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون . . . »

« ج » ومنه التكافل السياسى الذى ينوه به قول النبي صلى الله عليه وسلم « المسلمون تتكافأ دماؤهم : ويسعى بذمتهم أدناهم : وهم يدعلى من سواهم »

« د » ومنه التكافل الدفاعى المأخوذ من النص القرآنى « إنفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله »

« ه » ومنه التكافل الجنائى الذى يفيده الأثر «لا يطل دم فى الإسلام » أى لايذهب هدراً : وإنما يجازى عليه بالقصاص أو الدية .

« و » ومنه التكافل الاقتصادى المدلول عليه بقوله سبحانه « لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل» وقوله « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياماً » .

« ز » ومنه التكافل السلوكى الذى يرسم مبدأه الأثر المتوارث « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده : فإن لم يستطيع فبلسانه . فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان »

« ح » ومنه التكافل الحضارى الذى يحث عليه قوله تباركت آلاؤه « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان» ثم يقول الأستاذ « الأكبر «بعد ذلك والمال ليس غاية فى ذاته وإنما هو وسيلة من وسائل تبادل المنافع ، وقضاء الحوائج ، فمن استعمله فى هذا السبيل كان المال خيراً له وللمجتمع . ومن استعمله على أنه غاية ولذة انقلب إلى

شهوة تورث صاحبها المهالك ، وتفتح على الناس أبواب الفساد « وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » ومن أجل ذلك عبر عنه القرآن بالخير ليكون تحصيله من طريق الخير وليكون إنفاقه - كذلك - في وجوه الخير .. ووجوه الخير التي يتحصل منها المال في الغالب هي الزراعة والتجارة والصناعة . وهي عمد الاقتصاد القومي لكل أمة تريد أن تحيا حياة استقلالية رشيدة . ومن الضروري العمل على تنسيقها بما يحقق للأمة كيانها واستقلالها . . . ومن هنا كان على ولي الأمر في الجماعة الإسلامية أن يعمل جهده على ما يؤكد لها الانتفاع بها كلها . فلا يترك الأموال تتركز في عنصر واحد منها دون سواه . ولا عليه في سبيل ذلك أن يحول بعضاً من الأراضي الزراعية — مثلا — إلى رؤوس أموال تجارية أو شركات صناعية على حسب حاجات البلاد التي تحددها مصالحها ، لتحيا حياة كريمة عزيزة ، لا ينال منها طامع ، ولا يعتدي عليها مغتصب : ولا يمتص دماءها مستعمر وليس هذا التقييد حجراً على حرية الملكية : ولا إهداراً لحقوق الأفراد فإن واجب ولي الأمر رعاية الصالح العام . وتوفير الحياة السعيدة للجماعة . . وقد صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حمى أرضاً بالمدينة يقال لها « النقيع » لترعى فيها خيول المسلمين ، وكذلك حمى عمر رضوان الله عليه أرضا بالربذة لتكون مرعى عاما ، فلما شكا إليه أهلها أفهمهم أنه في سبيل المصلحة العامة أخذها .. وحاجة الجماعة مقدمة على حاجات الأفراد .

ومن هنا يقول الفقهاء إن لولي الأمر انتزاع ملكية الفرد لاتساع المسجد كما أن له ذلك لتوسيع الشارع . وبناء المدرسة والمستشفى وغير ذلك من المصالح العامة التي يدخل فيها إتاحة فرصة الحياة الكريمة للأفراد والجماعة على حد سواء . . .

ومن هذا الذى لخصناه عن هذا المقال نطمئن كل الاطمئنان إلى أن هذا الدين لم تكن تكاليفه عبادة متبعة ، ولا أوامر ملتزمة ، بمقدار ما كانت تربية اجتماعية رشيدة ، وتهذيباً إنسانياً صحيحاً ، وتنمية لروح الخير عند الناس ، لتذوب بينهم الفوارق ، وترتفع الحواجز ، وتزول السدود ، فتصبح الأخوة الكاملة ، والرأفة الشاملة ، والرحمة العامة ، هى الدساتير المرعية ، والقوانين السائدة ، وبذلك يشعر المسلم إذا أصابه الجوع أو العرى أو المرض أن على كتفه يداً شفيقة تربت[1] عليه ، وتمسح دموعه . وتقدم له ألوان المعونة من غير أن تشعره أنها صدقة مال ، أو زكاة جاه ، أو ضريبة غنى ويسار . وإنما هو واجب الإسلام : وفريضة الشريعة . قضى الله سبحانه وتعالى أن نرعاها حق رعايتها : وأن نؤديها من غير ملالة ولا كراهية . وكذلك كان المسلمون الذين أسلموا لله بأرواحهم المؤمنة ، وقلوبهم المخلصة .

١ — أصل الرتب محركة — كما فى القاموس — ضرب اليد على جنب الصبي قليلا لينام

الأخلاق في الإسلام

الجماعات المتمدينة . أو الأفراد التي أخذت من الثقافات الغربية بنصيب . لاتزال تحسن الظن بما وصلت إليه من المعرفة ، أو حصلت عليه من الثقافة . أو درسته من علوم فى الطب والهندسة ، والزراعة أو الصناعة ، والفلك أو النجوم ، زاعمة أن هذه المعرفة أو الدراسة ضمان من الانزلاق ، وحجاب من التخبط ، ووجاء[1] من الأمراض ، أو علاج من الزلل ، مع اعترافهم أن هذا السلوك الذى تطبعه فيهم ، تلك المعرفة ، أو تغرسه فى سجاياهم هذه الدراسة ، لم يكن على نسق ثابت ، أو نهج دائم ، أو نمط غير متحول ، ولكنه يتشكل عند الناس بأشكاله المختلفة ، وألوانه المتعددة ، على حسب ما يتوهم أصحابه فى الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة ، والنور والظلمة . . . ولذلك فإن الاطمئنان إليها ، والإيمان بها ، والاعتقاد أنها — وحدها — تكفى لأن تكون أداة تهذيب ، أو وسيلة تقويم ، من قبيل الزعم الخاطىء ، والوهم الكاذب ، لأن أخلاق البشر ، مهما ثقفوها[2] بالتربية ، أو أصلحوها بالعلم ، أو طهروها بالزهـــد ، لاتزال فى حاجة إلى الحارس الذى يحرسها من الانحراف ، ويصونها من الهوى ، ويحفظها من الشهوة ، ويمنعها من

---

١ — الوقاية والحافظ

٢ — قوموها وأصلحوا عوجها

الخضوع لعوامل الشر ، ونزوات الطيش ، التى تصنع حين تتحكم فى النفوس معايير خاصه تحل محل الأخلاق عند ضعاف النفوس ، فإذاهم يخضعون لسلوك ، ويستجيبون لهواتف ، ويسلمون قيادتهم إلى ميول ، ربما أنكرتها الفطرة . ونبت عنها الأذواق ، وتعرضوا بسببهاللسخط ، على الرغم من رضاهم عنها ، أو ارتياحهم إليها . . . وعلى هذا فنحن لانرى رأى أولئك الذين ينكرون الحاجة إلى الأديان ، ولا يعترفون بضرورة إرسال الرسل ، بدعوى أن الأخلاق التى يصطلح عليها الناس ويؤمن بقضاياها المثقفون ، تسد ذلك الفراغ ، وتملأ هذا الحيز (١) ، وتحمى حوزة نفوسهم من أن ينال منها عامل من عوامل السوء والفساد ، لأن تلك الأخلاق التى يأخذون أنفسهم بها ، أو يميلون بحكم الطبع إليها ، لا تطرد فى الخير ، ولاتهدف إلى الفضيلة ، ولاتجرى على نسق واحد من الاعتدال والاستقامة عند كل الناس ، ولذلك ترى طائفة واحدة من البشر جمعتهم الثقافة ، وألفت بينهم المعرفة ، ولاءمت أهواءهم البيئة ولا تكاد تجد اثنين منهما أو أكثر على محجة سواء من الحكم على الأشياء ، والتقـــدير للأمور ، أو النظر بعين السخط والازدراء لرذيلة من الرذائل . ولهذا كان كثير من الجرائم غير محكوم عليها الحكم الصحيح عند من يقترفونها ، وكأن الفضيلة لا تكون فضيلة إلا إذا مالت طباعهم إليها ، أو استساغت نفوسهم لها ، وأن الرذيلة لاتكون رذيلة إلا حين ينفرون منها ، ويكرهون مذاقها ، فإنانحراف مزاجهم وانعكس تقديرهم ، كان الخير شراً . والشر خيراً ، ولم يكن الميزان

---

١ — الفراغ الذى يملؤه الشيء الحال فيه وإن كان يغلب استعماله لما يجلس فيه الانسان

إلا هم ، ولا الحكم إلا منهم ، وهكذا كانت اللصوصية (١) عبقرية ، والاحتيال لباقة (٢) ، والغصب رجولة ، والتدليس مهارة ، والتهور شجاعة ، والجبن حذراً ، والصراحة قحة ، والنصيحة تطاولا ، والحلم عجزاً ، والتوانى بلادة ، والأدب سفها ، والاعتزاز بالنفس كبراً ، ولاترى ميزة من الميزات دون أن يكون لها ناقمون جاحدون ، أو كارهون حاقدون . . . والسبب الأول والأخير أن لاحتكام فى ذلك كله لم يكن لمصدر واحد لايكذب ، ولا لميزان واحد لايخدع ، ولا لحاكم واحد لايحيف ، ولا لقاض واحد لايضل ، ولا لرأى واحد لايطيش ، ولا لعقل واحد لايتغير ، ولا لغاية واحدة لاتتحول ، ولا لحكمة واحدة لاتضطرب ، ولا لمصلحة واحدة لا تتبدل ، ولكنه يخضع للزمان والمكان والشخص والهوى والغرض ، وتقدير المصلحة أو المفسدة ، ورجاء الخير أو الشر من الفعل أو الترك . .

والناس مهما كان علمهم بالفضيلة والرذيلة ، والضار أو النافع ، والداء أو الدواء ، فى عقلهم قصور ، وفى وعيهم نقص ، وفى تقديرهم خطأ ، وفى إدراكهم خلل ، وفى علمهم جهل ، وفى بصرهم حول ، وفى قدرتهم عجز ، وفى حكمهم هوى ، وفى ميزانهم انحراف ، وفى نظرهم ضعف ، وفى بصيرتهم انعكاس ، وفى قلوبهم مرض ، وفى تفكيرهم هوس . . . ولهذا وجب ألا يوكلوا لشهواتهم النازلة ، وأهوائهم الحقيرة ، ولذاتهم الوضيعة ، وميولهم المسفة ، وعقولهم الصغيرة ،

---

١ — الاختلاس والسرقة

٢ — تلطف وحسن تناول

وإدراكهم البسيط ؛ وتفكيرهم المحدود ؛ وتقديرهم المتذبذب [1] ؛ وأن تقوم عليهم وصاية رشيدة ؛ وحراسة أمينة ؛ وحياطة واعية ، وعدالة حكيمة ؛ ولم يكن ذلك كله إلا دستور السماء ؛ وقانون الوحى ، وشريعة الديان جل جلاله الذى يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور » .

ومن خطأ الرأى ، وخطل العقــل ؛ وهوج التفكير . وهوس المنطق . أن يقال إن علم الأخلاق — وحده — يؤدى رسالة الدين . ويغنى غناء الشرائع المنزلة . أو الرسل الذين بعثهم الله مبشرين ومنذرين وبخاصة بعد أن عرفنا أن الناس لايعصمهم من الشر عقل . ولا يحول بينهم وبين السوء رأى . ولايمنعهم من ارتكاب المنكر وازع . ولاينأى بهم عن مزالق الرذيلة علم محيط ، ولا فقه شامل . ولاثقافة واسعة . ولا عظة رادعة . أو عبرة مانعة . إلا إذا كان ديناً مرعياً . أو شرعاً مطاعاً . وإذا كنا نقول هذا القول فى مقام الدعوة إلى التمسك بالإسلام كدستور لابد منه لاستقرار الأمن . وشمول العــدل . أو سيادة السلام . وعلو راية الحق . وانتشار مبدأ المساواة والإخاء بين الناس . فإننا لا نقوله تمكيناً للإسلام . ولا تنويهاً بشأنه . ولاإعلاناً عنه ؛ ولا دعوة إلى أن يحول الناس وجوههم إليه . بعد أن دوى صوته . وانتشرت دعوته . وارتفعت رايته . وأنجد وأتهم . وصار حديث العامة والخاصة فى جامعات العالم . . . ولكننا فقط نرد هذا الزيف الذى يزعمه هؤلاء الجهال الذين يرون أن الرسالات السماوية لا

---

١ — الذى لا يثبت على حال ولا يستقر على كيفية

وظيفة لها وراء تحديد صلة المرء بالله . أما صلته بالناس . وسلوكه مع الأفراد . والتمييز للخير من الشر . والهدى من الضلال . والظلمة عن النور . والكياسة[1] عن الحمق ؛ وما أشبه ذلك وذلك مما يكون سبباً من أسباب السعادة أو الشقاء ؛ والألم أو اللذة ، والنجاح أو الإخفاق، والقوة أو الضعف ؛ والصحة أو المرض ، فرده إلى ما يكتسبه الإنسان من العلوم والمعارف ، والسلوك أو الأخلاق ، وأن للناس أن يلونوا ذلك باللون الذى يتفق لهم ، والصورة التى تتوفر لديهم ، وأنه لاخير ولا شر إلا ما تعارف الناس عليه من خير أو شر ، وأنه لاضرر على المجتمعات من الاختلاف فى الاعتبارات المتنوعة للفضيلة والرذيلة ، وأن الوجودية التى تدعو إلى أن يعيش الإنسان لوجوده وكفى ، فلا يتوانى عن طلب لذة ، ولا يتخلف عن اغتنام شهوة ، ولا يتراجع فى الإقدام على اهتبال [2] فرصة ، لايضيرها أن تنكرها شريعة . أو تحاربها رسالة . أو تقف فى وجهها كتب سماوية ، لأن أخلاق أهلها لا تنكر لها سلوكاً . ولا تأبى لها ديدناً [3] . ولا تحارب لها سبيلا . وأن الذين هم معتنقون لها لايحتاجون إلى الأديان يرسفون فى أغلالها ويرزحون تحت نير تكاليفها وواجباتها . .

ونحن نقول لأمثال هؤلاء إن الشرائع لم تجىء بها الرسل ، أو ينزل بها الوحى ، إلا لبناء الأمم ، وتماسك الشعوب . وأن الأخلاق التى

---

١ — الحزم والعقل وحسن الرأى والتدبير
٢ — اغتنام وانتهاز
٣ — الدأب والعادة والطبع

تدعو الناس إليها ، لم تكن سوى وشائج من الألفة والمحبة ، والتعاون على الخير ، والتفانى فى الإصلاح . وهى لا يمكن لعقل صحيح أن ينكرها . ولا لرأى سديد أن يأباها . فهى لم تكن ديناً بمقدار كونها عوامل عمران دائم . ونهوض عام ، وعلاج شامل . وإصلاح محقق ويقظة صارخة ، ودواء ناجع ، وهداية رشيدة ، وتخطيط سليم لشؤون المعاش والمعاد ..

اللغة العربية والإسلام

حديث اللغة العربية — هنا — ليس دخيلا على موضوعنا الذى نسير فيه ، ولا بعيداً عن نهجنا الذى نسلكه ؛ ولا نافلة فى الغرض الذى لأجله كان هذا الكتاب . وبخاصة إذ نظرنا إلى اللغة العربية على أنها لغة الكتاب والسنة وهما المصدران الأساسيان للتشريع الإسلامى ، ولا يستطيع مجتهد أن يفهم حكم الله فى مسألة من المسائل ، ولا حادثة من الحوادث ، من غير أن يجعلها أداة للفهم ؛ ووسيلة للعلم ، وحديثنا عنها لا يعنى ضرورة العناية بها والغيرة عليها ، وجعلها اللغة الرسمية فى الدواوين الحكومية ، والمدارس الوطنية ، وإن كان هذا كله من المبادىء المقررة لكل شعب من الشعوب العربية يريد أن يحمل الناس على احترامه ، ويريد أن يحتفظ بقوميته سليمة من الضعف ، بعيدة عن الهزال ، خالصة من شوائب البلبلة والاضطراب . . . وإنما يعنى الحديث أن نتيقظ إلى أن خصوم الدين يكيدون له بكل أسلوب ؛ ويحاربونه بكل سلاح ويقاومونه بكل قوة ، ويصدون عنه بكل حيلة وقد كان من كيدهم له الكيد للغة العربية ، لا على اعتبار أنها من العوامل القوية فى وجود قومية أصيلة يتعصب لها العرب . ويدافع عنها المسلمون ، أو يتمسك بها الناطقون بها التمسك الذى يؤلف بينهم ؛ ويضم شتاتهم ويجمع قلوبهم ؛ ويربط ما بين عواطفهم ووجداناتهم . . ولكن على

اعتبار آخر قلما يفطن له المسلمون ، ويتنبه له المؤمنون ، ويحسب حسابه أهل الرأى والنظر ، والحذق والمهارة .. ذلك أن الاستعمار كانت مهمته فى كل بلد عربى نزل به تحويل أهله على هذه اللغة بحجة الثقافة والمعرفة ، أو التربية والتعليم ؛ واستطاع من وراء هذا التحويل أن يقطع صلة من يتولاهم بالتهذيب من الناشئين فى تلك المدارس التى يفتحها ؛ بأهليهم وذوى قرابتهم ، وبالتالى يقطع صلتهم قطعاً باتاً بدينهم الذى كانوا عليه ، وقد فعل ذلك على وجه التحديد — أو قريباً منه — فى البلاد التى نزل بها فى القارة السوداء — كما يسميها — « أفريقيا » وانقسام السودان إلى شمالى وجنوبى كان من آثار هذا الصنيع السىء الذى صنعه فى تلك البلاد التى مشت قدمه فيها ، وعبثت أصابعه بها وتمكن وباؤه منها . . والذين عاصروا الاحتلال التركى فى مصر يعرفون كيف كانت لغة الأتراك تطغى على العقول ، وتستبد بالعلوم وتلعب بالسياسة ، وتفسد فى الأرض ؛ وتعمل عملها فى اتساع المسافة بين المواطنين والوطنية ، وبعد الشقة بين العربية والعرب ؛ وقطع الصلة بين القرآن وبين المسلمين ... وكذلك كان الانجليز حينما جعلوا الدراسة بالانجليزية ، وكان المستشار « دانلوب » فى وزارة المعارف أشد خطراً على القرآن ؛ وأكثر حربا للمسلمين ؛ من حملات المبشرين الذين قطعوا سبحهم (١) للطعن ؛ ووحدوا كلمتهم للنيل ، وحددوا انصالهم للتجريح، وصوبوا معاولهم للهدم ؛ وهى خطة — موحدة — فى البلاد العربية التى تدين بالإسلام ؛ وتؤمن بشريعة محمد صلى الله عليه

---

١ — الوقت ومنه « ان لك فى النهار سبحا طويلا »

وسلم ؛ ليكون من ورائها انطفا. ذلك السراج المضىء والكواكب المنيرة والمصباح الهادى ، والشعاع اللامع ، والضياء الساطع . وقد استطاع الاستعمار أن ينجح فى غرضه ، وأن يصل إلى ما يريد من كيده ، ولم يرفع يده عن تلك البلاد إلا وهو مطمئن كل الاطمئنان إلى أنه قضى على تماسك العرب ، وعلى معنى القومية فيهم ، وعلى عصبيتهم للإسلام . ولم تعد اللغة العربية بينهم لغتهم التى يغارون عليها ، ويغضبون لها ، ويؤمنون بها ، ويحاولون أن تكون وسيلة التخاطب بينهم ، ولا أداة التفاهم عندهم ، ولم يكن الصنيع الذى صنعوه بالإسلام أقل شأناً ، ولا أهون خطباً ، عن الصنيع الذى صنعوه باللغة التى هجروها هجراً غير جميل ، وتركوها تركا غير لائق ، ونسوها نسياً غير كريم ...

وبعد أن كانت الطعون التى تتجه إلى الإسلام من الملاحدة والمبشرين أصبحت تتجه إليه من المسلمين أنفسهم بحكم حرية الرأى ، أو حرية البحث وهى فى الواقع نتيجة حتمية لما صنع الاستعمار فينا من الإفساد والتضليل ، والانصراف عن المقدسات المصونة ، والمخلفات الكريمة . والمعالم الصحيحة . والمنارات الصادقة . والشريعة السليمة وإلى هنا حمد خصوم الإسلام السرى لأنهم فتحوا ثغرات فى صفوفنا استطاعوا أن ينالوا بها ما يريدون أن ينالوه منا ... وكان السبب الأول هوان [1] هذه اللغة علينا هوانا جعلنا ونحن أهلها الذين كنا نزهى بها على الناس نحاول الغض منها ، والهدم لها . باسم الدعوة إلى

---

١ — رخص .

العامية أو باسم الزراية على بلاغتها المعروفة أو التنقيص من قواعدها الثابتة ، وأظننا من خلال الحديث عن الدعوة إلى إصلاح النحو ، وقواعد الكتابة العربية ، ومقاييس البلاغة . والشعر الحر . وجعل كرسى (١) فى الجامعة للأدب الشعبى ، ندرك إدراكا لا شك فيه مدى نجاح الاستعمار فى أنه صنع منا براذع له . وأخذ منا معارل للهدم فى بنائنا الشامخ ، وكياننا القوى . ولا بد لنا أن ندرك أن هذه كلها حركات على حساب الإسلام والمسلمين ، وأن الذى يستفيد من ورائها هم الخصوم الذين ظلوا حياتهم كلها يعلنون علينا الحرب ، ويسددون إلينا الرميات ، ويحيطوننا بالدخان والنار فى كل زمان ومكان ...

وفى اهتمام الإمام محمد عبده بالرد على هانوتو وزير خارجية فرنسا الذى كان يطعن على الإسلام بالرجعية ، وعلى المسلمين بالجمود والتأخر دليل قاطع على أن الاستعمار قد جعل سلاحه الوحيد فى النيل منا ، والكيد لنا ، هو التشكيك فى مقدساتنا ، والزراية بعلومنا ومعارفنا ، والصرف عن لغتنا ، وإحلال لغته هو محلها . وجعلها لغة الكتابة والسياسة ، ولذا كانت تركية أو فرنسية أو انجليزية على حسب ما كانت السيادة علينا ، أو الحكم فينا أو الاستعمار الجاثم (٢) على صدورنا ...وربما كان من المؤلم المؤسف أن نقول إن كثيراً من تلك البلاد التى تحررت من النير الأجنبى وتخلصت من حكم الدخلاء ،

---

١ — فى جامعة القاهرة وفى جامعة الأزهر بعد ذلك

٢ — جثم الطائر تلبد بالأرض—هكذا عبارة للصباح— وهو كالتربع للانسان

وأعتقها الله من عبودية المغتصب، لاتزال ثقافاتها تخضع للغات الأوربية ولا تزال أفكارها تعانى من الاستعمار من غير التفات للخطر الداهم الذى يتهددها فى دينها وفى قوميتها وفى كل ناحيـــة من نواحى النهوض والتقدم فيها . . .

على أننا ونحن نتحدث عن هذا الخطر الذى يتهـدد الإسلام من وراء العبث باللغة العربية ، والدعوة إلى العامية ، أو التشكيك فى قواعد البلاغة ، أو العمل على إصلاح النحو ، أو الاتجاه إلى نحو جـــديد ، أو كتابة القرآن الكريم بالرسم الإملائى الحديث ، وغير ذلك وذلك مما لايعود على الإسلام إلا بالضرر ، لاننسى أن هنالك سلسلة متكاملة الحلقات فى الكيد لهذا الدين ، والغض من شأنه ، وصرف الناس عنه. ومن هذه الحلقات ماعنينا به — أخيراً — من القول بترجمة القرآن وهو نوع من العبث الذى انبعثت جذوره من أفكار استعمارية مغرضة لاتقصـــد إلا أن تمتد أيدى الإفساد والحرب إلى هذا الكتاب الكريم على الله وعلى الناس ، حتى إذا ما تناوله المتناولون من هذه الناحية ، وتطاول المتطاولون عليه من تلك الجهـة ، صح أن تلعب به الأفكار والعقول ، وأن يتزيد فيه المبطلون ، ويتشكك فيه الملحـدون ، وأن يشتبه الأصل منه . بالترجمة له، وأن تبلغ القحة[1] الوضيعة حد المقارنة لبلاغته فى لغته العربية ، ببلاغته فى لغته المنقول إليها ، وهكذا من كل ما يعرضه للابتذال ، ويهيئه للهوان على الخلق ، ويجعله أهلا لأن ينال منه السفهاء من الناس .... ومن هذه الحلقات ـ كذلك ـ الدعوة إلى

---

١ ـــ سوء الأدب والإيذاء للناس

تحديد النسل ، وقد أعجبنى بعض الأساتذة الذين كانوا يتكلمون فى هذا التحديد — منذ أسابيع — فإنه استدل على أنها مكيدة من غرار تلك المكائد التى يراد منها العمل على إضعاف التيار الإسلامى القوى الذى ينحدر فى نفوس المسلمين بالحيوية الدافقة ، والغيرة الصادقة ، والإيمان العميق ، والإخلاص الصحيح ، لأن المسلمين إذا ما استجابوا لهذه الدعوة كان معنى هذه الاستجابة عدم الإذعان لقول الرسول الأمين « تناكحوا تناسلوا تكثروا فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة » . .وكان معنى ذلك — أيضا — العمل على ضعف شوكة المسلمين بقلة عددهم وانقراض كثرتهم ، وتهافت ذريتهم... ولذلك كان من الملاحظ أن هذه الدعوة لايدوى حديثها ، ولا يرتفع صوتها، إلا فى تلك البلاد التى يطمع الاستعمار فى أن تكون مسرحا له ، أو مرتعا خصيباً لمطامعه وأهوائه . وهو كلام عليه سمة الحق ، ومسحة الصواب ، وطابع الصحة ، لأننا نرى أن البلاد التى انقطع رجاؤه فيها ، أو التى اطمأن إليها كل الاطمئنان، لا أثر فيها لهذه الصيحة ، ولا لتلك الدعوة ... وكم للاستعمار فى البلاد الاسلامية من رواسب ضارة ، ودعوات هدامة ، وسياسة لا تعنى إلا إشاعة الهزال والمرض ، والتخلف والضعف ، والانحدار والتردى ، والجمود والركود ، حتى لا تدب فى المسلمين الحياة ، ولا ينتعش لهم أمل ولا تطلع عليهم شمس ، أو ترتفع لهم رأس ، أو تدوى لهم كلمة ، أو يتمكن لهم سلطان ، أو تعرف نفوسهم معنى الإباء والشمم ، والعزة والكرامة

موقف الغرب من الإسلام

إن العقل ليقف موقف الحيرة والاضطراب ، والغرابة والدهش ، حين يستعرض فى خياله هذا النهوض الذى وصلت إليه الحضارة الغربية ، وذلك التقدم الذى انتهى إليه الفكر البشرى ، ثم يذكر أن الأوربيين والأمريكيين كانوا أولى الناس بالاستجابة لدعوة الإسلام أو الإصاخة لندائه ، أو التأمل على الأقل فيما جاء به من نور ، وما أمر به من خير وما رسمه من إصلاح . وما يوجه إليه من مكارم أخلاق . وبخاصة بعد أن طحنتهم الحروب ، وعركتهم المحن وأدبتهم الحوادث ، وعلمتهم التجارب وضعضعتهم[1] الأيام ، وأدركوا مما يعرفونه عن القسيسين والرهبان والكهان والأساقفة ، أن تلك الدعاوى التى يرددونها . والآراء التى يعرضونها ، ليست من العقل تنبع ، ولا على المنطق تعتمد ولا على البراهين الصحيحة تعول ، وأنها لا تعدو أن تكون أساليب مكشوفة وألاعيب مفضوحة ، وأحابيل مهلهلة وأساطير معادة وروايات لم تكن محبوكة الفصول ، أو متقنة العرض والتمثيل ... وإذا كان لنا أن نأخذ على الغرب أنه قد طغت عليه الحياة طغياناً ظالماً جعله لا يؤمن إلا بالأرقام ، ولا يخضع إلا للواقع الملموس ، ولا يستجيب إلا للثمرة المرجوة ، ولا يعمل إلا لما يعود عليه بالربح العاجل ،

---

١ — طحنتهم وأذهبت قوام وأحلت بهم الضعف

ولا ينساق إلا وراء لذته الجسمية ، وشهوته الصارخة ، وأنه يحكم — دائماً أبداً — العلم في كل شيء ، فلا ينزل إلا على إرادته ، ولا يطمئن إلا لموازينه ، متناسياً أن العلم لا يزال يحبو[1] وأن العصور التاريخية المتلاحقة تهدم منه في كل يوم جديد ما كان شامخاً عالياً يطاول الأيام والليالي ، ويفاخر الإصباح والإمساء ، وأنه يجيء بالبرهان تلو البرهان ، على أنه لا تصلح به الأمم ، ولا تسعد به الجماعات ، وأن الصراع القائم بسببه يجعل الثقة فيه معدومة ، والميل إليه ، أو الارتياح له ، من الطيش البالغ ، والحمق المحقق ، والسفه البين ، أو العته[2] البغيض ... فإننا لا ننسى إلى جانب ذلك تلك العصبية التي تأثرت بها الأجيال المتتابعة من كراهيتهم للإسلام والمسلمين من غير دراسة للأسباب والبواعث على هذه الكراهية ، أكثر من كونهم تلقنوها تلقيناً عن المبشرين الذين لم يجدوا في دعوتهم لليهودية أو النصرانية أكبر من زعمهم أن الإسلام يطردهم من رحمة الله حين يتلقى الزمام من أيديهم ، وينتزع الدعوة من أفواههم ، ويعفى على شرائع أنبيائهم السابقين ويحرم عليهم الفواحش ماظهر منها وما بطن ويحارب الميول والأهواء والطباع والغرائز .. وقد ساعد على أن تتمكن هذه العصبية في النفوس أمران اثنان كلاهما شر من صاحبه ..

<u>الأول</u> : أن تلك الحضارة التي بشم بها الغرب ، وخب[3] فيها

---

١ — حبو الطفل زحفه على ركبتيه قبل أن يتعلم المشي

٢ — نوع من الجنون

٣ — الخبب والوضع نوعان من السير والمراد المباشرة ومعرفة الحال

ووضع ، كانت عاملا قوياً فى إتاحة الملذات البهيمية التى تنشدها الأجسام المبذولة . والعضلات المفتولة ، والشهوات الضالة ، والأهواء غير البصيرة ، والنفوس غير الرشيدة ، والعقول غير المستنيرة ، وعلى حد التعبير القرآنى « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » لم يكن هنالك مجال لتأمل ، ولا موضع لتمييز ، ولا مكان لتفكير ولا فرصة لموازنة ، ولا فسحة لتدبر ، ولا وقت من صفو الروح ، أو استعداد النفس ، تستطيع أن تفلت فيه من تلك القيود والأغلال[1] التى هى مكبلة بها لترجع عن ذلك الضلال الذى استبد بها ذلك الاستبداد الغاشم الذى لا يشبهه إلا استبدادهم بهؤلاء الرعايا الذين يمتصون كل يوم دماءهم من غير حق ، ويبتزون أموالهم من غير موجب ، ويهدرون كرامتهم من غير حياء ، ويحاولون إذلالهم من غير أدب ، وينالون منهم ما لا يمكن أن ينـــاله إلا وحش كاسر ، أو ذئب غادر ، أو كلب عقور ، أو ثعبان سام ، أو عقرب مؤذية ، أو حشرة ضارة ، أو جرثومة فتاكة ، أو عدو كاشح ، أو خطب فادح .

الثانى : أن الإسلام على الرغم من كونه دين العمران والإصلاح ؛ والتقدم والرقى والإخاء والمساواة . والسلام والأمن . والمحبة والألفة وتنمية الأواصر . وإشاعة العدل والإنصاف . والبر والإحسان ؛ والإيثار والعطف . والزكاة والصدقة . والرفق واللين . والتسامح والعفو . والعزة والكرامة . والأدب والأخلاق والتوثب والطموح والكمال والفضل . فإن له تكاليف تحتاج إلى عزائم قوية وقلوب جلدة

١ — الأغلال فى الأعناق كالقيود فى الأرجل

ونفوس محتملة ، وضمائر متيقظة ، وأرواح مترفعة ، وهمم عاليـــة ، وجوارح طاهرة ، وأفئدة نقية ، أو على الأقل إلى مكلفين يتجهون إلى ذلك كله ، بتطلع المشوق ، وتشوف الراغب ، ونية المتلهف ، ولا يمكن لمنغمس فى تلك الحياة التى جرف طوفانها الغرب أن يثوب إلى رشده ليؤمن بالله إيمان المسلم ، أو تواتيه لحظة من لحظات التجلي يبحث فيها وراء الصدق ، أو يتطلع ذلك التطلع الذى يهبه الله لعباده المخلصين لأن ذلك الحجاب الذى يغطى على بصره يظلم بصيرته .. « وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه » ... ومن المخجل أن نقول إن المسلمين يحملون كثيراً من تبعة هذا الإعراض عن الإسلام الذى يبدو فى البيئات ، الغربية ، أو الأوساط الأوربية والامريكية ، وإن خلافاتهم المذهبية ، وعصبياتهم الهوجاء ، وتفككهم المتخاذل ، وتباعدهم الشنيع وضعفهم البادى ، وذلتهم الحقيرة ، وتشتتهم فى الأماكن ، وتطاحنهم على الدنيا أو تهافتهم على المال ، وتباغضهم المزرى ، وإعطاءهم من أنفسهم للناس فى بعض الأحوال صوراً مشوهة عن الإسلام كان له الأثر الذى جعل المجتمعات الأجنبية تصمهم (١) بما كان كفار قريش يصمون به أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فى أول الأمر « ما نراك اتبعك إلا الذين هم أرذالنا » وإن كان المنطق يقضى ألا يؤخذ الإسلام من سلوكنا ، وأنه لا يصح للعاقل أن يجعل أهله تقليدا له ، ولا حكاية عنه ، ولا صورة مشوهة منه ، إنما يبحث عن جذوره ، وينقب عن بذوره ، ويأخذه من أصوله الصادقة ، ومصادره الناطقة ، ومعالمه الصحيحة ،

---

١ من الوصم وهو العيب

فإن المرآة كثيراً ما تخدع ، والفجر ربما كان كاذبا ... إلا أننا مع ذلك نلتمس العذر إلى حد ما لهؤلاء الذين يرون أن أصحاب الدين عنوان عليه — والكتاب يقرأ من عنوانه — لأن العادة جرت بذلك ، وقد قالوا : وكل إناء بالذى فيه ينضح ، وقالوا — كذلك — « ما فيك يظهر على ما فيك » ... والمسلمون الذين لم تربطهم أواصر الدين ، لم تجمعهم كلمة الحق ، ولم تر أمهم شريعة الله ، ولم تأخذهم الغيرة على انتهاك الحرمات ، يقطعون سبحهم كله فى الخلافات المذهبية من غير ثمرة ، ثم لا يعطون عن الإسلام إلا أسوأ المثل ، وأقبح الصور ، وأقذر الشواهد ، وهكذا دأب الناس على أن يجعلوا العنوان ناطقاً بما تحته ، والظل حكاية لصاحبه ، والمرآة تصويراً للناظر إليها ...ولأجل أن يقتنع أهل الغرب اقتناعا أكيدا بما للإسلام من مزايا تحتاجها حياتهم الضالة ، وعيشهم المسف ، وسلوكهم الملتوى ، وشهواتهم المنحرفة ، لابد أن يكون فى المسلمين طبقة تعطى من حسن القدوة ، وروائع الأسوة ، أمثلة تعيد إلى الأذهان طيف عمر بن الخطاب أو عمر ابن عبد العزيز ، وما أظن هذا ممكناً بعد أن طوى الزمن التاريخ ، وغيرت الحياة الناس ، وأفسدت الغرائز المادة ، وأماتت الضمائر الدنيا ، وتمكنت من النفوس الفتنة ، وحولت الطباع الذرة ، وحجرت القلوب الحروب ... فلم يبق لنا من أمل بعد هذا إلا فى الدعوة الرشيدة والموعظة الحسنة ، والإقناع الصحيح ، والاحتيال الماهر ، والعلاج الحاذق ، وإذا كان لكل حرب أسلحتها ، ولكل وقت أذان — كما يقول العوام — فإن هؤلاء الذين يعيشون فى عصر الصاروخ لا يكفى فى إقناعهم أن يقول لهم القائل هذا حلال وهذا حرام ، بل

لابد أن يسير الحديث معهم بلغة الأرقام ، وبمنطق الربح والخسارة ، وبأسلوب الثمرة المرجوة ، والنفع المنتظر ، وصلاح المجتمع ، وفساد البيئة وأن يكون على أساس عرض قانون للحياة ، ودستور للعيش ، ونظام للعمران ، لا على أنه دين ينفرون منه ؛ وشريعة يفرون من إلزامها وليس كل رجل يستطيع ذلك الإقناع أو يحسن تلك الدعاية ، أو يمكنه أن يقوم بتلك الرسالة ، إنما يستطيع مثل هذا الإقناع ، ويحسن ضروب هذه الدعاية ، أولئك الذين درسوا إلى جانب علوم الدين علوم الدنيا ، وكان لهم من قوة الفكر ، ونصاعة الرأى ، وشجاعة القلب ، وشدة الإيمان ، وصدق النية وسلامة الطوية ، ونبل الغاية ، ما يساعدهم على أن يجد صوتهم قبولا وتلقى صيحتهم ارتياحا ... ولولا أننا فى مراكزنا التى نحتلها ، ووظائفنا التى نشغلها ، ورسالتنا التى نؤديها ، لا نختار الرجل الكفء ، لما كانت أحوالنا فى هذا الاضطراب ، وما كانت أعمالنا فى ذلك الخلط ، ولكننا — هكذا — نعانى المرض من غير أن نفكر فى الدواء ...

الإيمان وأثره

يمتاز الشريعة الإسلامية عن غيرها من الشرائع أنها تتخذ الإيمان بالله مبدأ ثابتا مقرراً فى كل أعمالها وسلوكها ، واتجاهاتها ومقاصدها ، ولا تعترف بالعمل مهما كانت غايته من النفع ، أو نهايته من الخير ، أو نتيجته من الإصلاح ، أو ثمرته من الإسعاد للفرد أو الجماعة ، ما لم يكن ذلك كله عن إيمان بخالق السماوات والأرض ، ومبدع الكائنات كلها ، الذى جعل الظلمات والنور ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، وهى لا تقصد من هذا الأدب الذى تؤدب به الإنسان وتطهر به الوجدان ، وتصقل به النفس ، وتهذب به الحس ، أن تكسر فى الآدمى نزوة الشر وفورة العدوان ، وحدة الغضب، وشدة الانحراف وثوبة الضلال ، لتكون عبوديته لله خالصة ، أو ليكون خضوعه لربه باديا ، أو ليكون افتقاره لمولاه مشفوعا بذلة الرق له ، والزلفى إليه ، والحديث عنه ، والتفكير فيه ، والخوف منه . حتى يظهر بحق بعد ما بين المولى وسيده ، والمخلوق وخالقه ، والعاجز والقوى ، أو الفقير والغنى ، فإنه جل جلاله لا يعود عليه من طاعة المطيع مصلحة ولا يلحق به من عصيان العاصى ضرر ، ولا يكبر قدره ، أو يعلى شأنه أن يعبده ذليل له ، متوسل إليه ، راغب فيه ، أو راهب منه ، وهو الغنى الحميد ، وإنما المغزى من هذا الإيمان مغزى تربوى بحت، والهدف هدف يعود على الناس لا على الله ..

وتفصيل ذلك أن الأعمال التى يكدح المرء فيها ، ويجد الإنسان فى تحصيلها ، إن لم تكن عن باعث يحمل عليها ، وغرض يسوق إليها ، ودافع يحرك النفس لها ، ويثير الهمة للنهوض بها ، ويملأ القلب بالرغبة الأكيدة فى أدائها على أحسن الوجوه وأكملها ، لا يمكن بحال من الأحوال أن يبذل الآدمى فيها جهداً ، أو يلبى لها داعيا ، أو يصغى منها إلى نداء أو يحترم هتافها ، أو يجيب صوتها ، وإن أجاب داعيها أو أصاخ إلى ندائها ، تحت ضغط قاهر ، أو سلطان جائر ، أو غرض ملح ، أو دافع شديد ، أو إلجاء عنيف ، لا تكون النتيجة سارة ولا الثمرة طيبة ، ولا الغاية محمودة ، ولا النهاية مشكورة ...

ولذلك كان علماء التربية لا يحترمون إلا العمل الذى تدفع إليه الرغبة ويحفز عليه الشوق ، ويثور له الوجدان ، ويحاولون دائماً أبداً فى كل توجيه الأطفال ، أو تعليم الناشئين ، خلق الرغبة الشديدة ، والشوق اللهيف ، وإثارة الانتباه المتيقظ ، والتأمل الواعى ، ليكون التحصيل مجديا ، والحفظ نافعاً ، والقراءة مفيدة ، والتعليم راسخاً ، والنبوغ مأمولا ، والخير مرجواً ، والنجاح محققاً ..

وقضية الإيمان بالله التى اهتم بها الإسلام هذا الاهتمام ؛ ورتبوا عليها قبول الأعمال من المكلفين ؛ أوردها عليهم ؛ قضية تتعلق بتربية الإنسان وإعداده ليكون لبنة صالحة فى بناء هذا المجتمع الصاخب أكثر من تعلقها بتكوين معنى العبودية ، وتأكيد معنى الطاعة ، وتربية الخشية له ؛ والمهابة منه ، والرجاء فيه ، والاستعانة به والالتجاء إليه ، والترامى فى أحضانه ، والهرب إلى كنفه القوى ،

ورحابه[1] الأمين ... ولذلك جرى الناس على مدحهم للرجل المبرز فى عمله ، المتفوق فى صناعته ، المتفانى فى أداء رسالته ، أن ينسبوا هذا كله إلى الإيمان ، فيقولون إن فلانا نجح فى فكرته لأنه يؤمن بها ، ويرغب فيها ويحب لها ، ويستريح إليها . ويعيش من أجلها،وغير ذلك من الكلمات التى تصور امتزاجها بنفسه ، واختلاطها بدمه ، وسيطرتها على هواجسه[2] ، وقيادتها لزمامه ، وتغلبها عليه ... على أننا لم نرد بسوق هذا المثال ، وحديث هذه الرغبة ، إلا تقريب معنى الإيمان ، أو تصويره للجاحدين فى صورة المعقول الذى لا يستحيل فرضه ،ولا ينتفى وجوده ... وإلا فإن الإيمان بالله لا يصح مقارنته بإيمان الصانع فى عمله ولا رغبة المحترف فى حرفته ، ولا ميل الإنسان لما يقبل عليه من هواية ، لأن هذه كلها وإن كان بينها وبين الإيمان بالله نسب من ناحية القبول والارتياح ، والرضا والرغبة . التى هى السبيل إلى الإجادة والإتقان المطلوب بنص الحديث النبوى القائل « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » فإن الإيمان بالله لا يكون إلا عن دليل يمكن له فى النفس ، ويقوى له فى اليقين ، ويزيد له فى القبول ، ويبالغ له فى الاطمئنان ، ويؤكد له فى الرسوخ ، وينمى له فى الزيادة ، ويصونه من اللجاجة ، ويحفظه من القلق ، ويرعاه من الشك ، ويمنعه من التردد ، ويباعد بينه وبين الريبة ، بخلاف الإيمان بالأشياء ، والميل إلى الحرفة ، الذى يجىء عن الهوى ، ويحدث للغرض ، وتحمل عليه المنفعة ، وهى

---

١ — سبق فرسنا الرحاب بمعنى الجناب والكنف والملاذ

٢ — واحدها هاجس وهو حديث النفس

كلها أمور لاتخلو من الذبذبة ، ولا تبرأ من الخطأ،ولا تنأى عن التهمة ولا يبعد أن يكون خيرها شراً ، لأنها وليدة الشهوة الإنسانية والنظر المحدود ، والهدف القريب، والميل الحيوانى،والتقدير المبنى على الحدس أو التخمين . . .

وعلى اعتبار أن هذه العقيدة ذات أثر بالغ فى حياة المسلم من حيث بلوغه حدود الكمال فى علاقاته مع الناس ، وعلاقاته بالله ، ورسالته فى الحياة التى لابد أن يؤديها ليسعد عيشه ، وتطيب نفسه، ويطمئن خاطره ويساهم بنصيب موفور فى عمار هذا الكون الذى يتسع له ، لم يرض هذا الدين أن تكون تقليداً يحاكى فيه المسلم غيره ، ولا ترديداً من غير إذعان يجرى على طرف اللسان دون أن يستريح إليه الوجدان . . ولهذا جرى القرآن الكريم فى دعوته إليها ، وحثه عليها ، على أن يفتح له مغاليق الكون ، ويضع فى يده زمام الأشيـــاء ، ويطوف بنظره وحواسه فى العلو الشاهق ، والخيال الواسع ، والجو الفسيح ، والفراغ الذى لا يتناهى ، مابين أرض مترامية ، وسماء غير متناهية ، وزروع يانعات ، وثمار دانيات،وأنهار تجرى بالماء ، إلى غير ذلك مما يملأ النفس باليقين فى الله ، والإذعان لما جاءت به الرسل ، ونادت به الأديان ، وربما استعان على ذلك بقصص الأنبياء السابقين يذكرها على صورة مثيرة ، أو شكل مخيف ، أو لون من ألوان الاتعاظ . ثم يعقب على ذكر ذلك القصص بما يبعث على التأمل ، ويسوق إلى النظر والانتباه ، لتربى عند المؤمن المهابة القوية ، والخوف الشديد ، والتقوى الخالصة ، ويؤمن به إيمانا صادقا ، كما يقص فى سورة هود — مثلا — ذلك القصص المجمل ، ثم يقفى عليه بقوله سبحانه « ذلك من أنباء القرى نقصه

عليك منها قائم وحصيد ، وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب ، وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ، إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ، وما نؤخره إلا لأجل معدود ، يوم يأتى لا تكلم نفس إلا باذنه ، فمنهم شقى وسعيد ، فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق ، خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد ، وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ ، فلا تك فى مرية مما يعبد هؤلاء ، ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل ، وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص ».. فهو — كما ترى — يثير بالقصص الشعور ، وينبه الوعى ، ويربى المهابة والخوف ، ويدفع على التأمل الذى ينتهى بالإيمان الذى لا شك فيه .... وربما انتحى بالإنسان إلى ناحية أخرى فيها من متعة الوجدان ، وغذاء الإحساس ، وراحة الشعور ، واطمئنان الخواطر ، الشىء الكثير ، إذ يرتحل به فى ملكوت العلم والمعرفة ، والبحث والنظر ، رحلة تطوف طوفانا خاطفاً ، وتحلق به تحليقا عابراً ، يمر فيه على معالم ، وينتقل فيه إلى أماكن ، تدفع على الدهش ، وتحمل على العجب ، بما تعرضه من الخلق المعجز ، والصنع البديع . . وذلك مثل قوله جل جلاله فى سورة الواقعة « نحن خلقناكم فلولا تصدقون . أفرأيتم ما تمنون . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون . نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى أفلا تذكرون . أفرأيتم

ماتحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون إنا لمغرمون بل نحن محرومون . أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون أفرأيتم النار التى تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين ، وهكذا من طريق الحس والمشاهدة . أو التروى والنظر : ليكون الإيمان الثابت وسيلة من وسائل الإبداع فى الصنع . والإتقان فى العمل . ومن الإبداع فى الصنع . والإتقان فى العمل . يتأتى للإنسان عمار هذا الكون الذى خلقه الله له . والخلافة فى الأرض التى سخرها لطاعته مولاه .

ولولا الإيمان بالله الذى هو عقيدة المؤمن التى ملأ الله بها قلبه . ونورها بصيرته . وأحيا بها جوارحه . وروى بها نفسه . لكانت الحياة من أبغض الأشياء عنده . كذلك لولا هذا الإيمان لما اطمأن إلى مغيب عنه . مجهول لديه . وما أكبر ماتمتلىء به حياته من مغيب مجهول . . . فإن ثمرات أعمالنا . ونتائج جهودنا : كلها غائبة عنا ، مجهولة لدينا ؛ لا ندرى ماذا تكون . ولا على أى وجه توجد . والايمان بالله وحده هو الذى يجعلنا نكل ذلك كله لله فى شىء من الثقة به . والاعتماد عليه والرضا بقضائه . فإن كان خيرا قلنا ذلك الفضل من الله . وإن كان شراً قلنا — أيضا — ذلك الفضل من الله ، لأنه ابتلاء لا يكون إلا للمقربين ولا يحصل إلا للمتقين « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » . .

الذوق الإسلامى

كلمة الذوق وإن كانت ترادف الأدب أو الإحساس بالشيء فى بعض الأحايين إلا أن الناس قد اصطلحوا على أن يطلقوها على ما هو أسمى من الأدب ، وأرق من الإحساس والشعور ، وذاق الشيء أو تذوقه بمعنى أدرك حلاوته أو مرارته ، ومن ذلك قولهم « من ذاق عرف » لأن الذوق فى الإنسان حاسة من حواسه الخمس التى هى سبيل إلى المعرفة ووسيلة إلى الإدراك، ولكنهم — مع ذلك كله — اتفقوا على ألا يطلقوا كلمة الذوق على مطلق الإدراك لما فى الأشياء من حلاوة وملوحة ، وعذوبة ، وبرودة وحرارة إنما يطلقونها على نوع خاص من الإدراك ومعنى بعينه من المعرفة .. وكأن هذا الذوق — عندهم — أشبه بالملكة التى لا بد منها للعلم ، فالباحث فى علوم البلاغة — مثلا — إن لم يكن ذا ملكة راسخة تعينه على التأليف ، وتساعده على التمييز ، وتمكنه من النقد ، وتسعفه عند الحاجة ، لا يكون علمه إلا جهــــلا ، ولا أدبه إلا لجاً ، ولا أسلوبه إلا مفككا ولا بيانه إلا عيا ، ولا نطقه إلا خرساً ولا لفظه إلا منحوتاً من الصخر ... وإذا كانت الملكة من العلم روحه الحية وعروقه النابضة ، وجسمه النامى ، وخلاصته الصحيحة أو راووقه المصفى — كما يقــــولون — فإن الذوق من الخلق القويم ، أو الأدب العالى ليس إلا خياره المحبب ، وروحه الممتازة ، وخلاصته المنتقاة . والملكة العلمية إن كانت نتيجة المزاولة الكثيرة ، والقراءة الواعية ،

والتحصيل المستمر ، والاطلاع الواسع ، فالذوق أول مراحله النقد الفاحص ، أو المقارنة الدقيقة ، أو التمييز الحكيم ، والإدراك الحقيقى لما فى الفضائل من حلاوة ، ولما فى الرذائل من مرارة وآخر مراحله تلك اللباقة التى تجعل أصحابها فى القمة من الأدب ومكارم الأخلاق ، حين لا يكون من تصرفاتهم ما يؤذى ، ولا من سلوكهم مايؤلم ولا من أعمالهم ما يكدر الصفو ، وبخاصة إذا كان هؤلاء كباراً فى مراكزهم ، وعظماء فى وضعهم من البيئة التى يعيشون فيها . . . وقد استقبل النبى صلى الله عليه وسلم — واستقبل معه المسلمون — هذا العتاب الرقيق وأمثاله « عفا الله عنك لما أذنت لهم » بعد إذنه للمتخلفين عن غزوة تبوك أروع استقبال وأحسنه ، وكان لهم منه عظة بالغة ودرس نافع ، ودستور قويم فى السلوك الذى يحمل على الحب والاحترام لأنهم رأوا فيه أروع معانى الذوق ... والمرحلة الأخيرة من الذوق التى عنينا بها اللباقة التى تجعل أصحابها فى القمة من الأدب ومكارم الأخلاق موهبة إلهية لا تتوقف على علم ، ولا تكون عدوى وجدانية عن بيئة طيبة ، أو وسط نقى من الأدران والمفاسد ، ولذلك تراها فيمن لم يأخذوا بنصيب من العلم والمعرفة ، وعند قوم انحدروا من بيئات غير كريمة ، أو أوساط غير محترمة ، وربما كانت هذه الموهبة هى ما يعنيه بعض الناس من قولهم « الذوق شىء ليس فى الكتب » . .

« وللشريعة الإسلامية فى آدابها الملتزمة ، وواجباتها المفروضة ، ومبادئها المقررة ، وأخلاقها المرعية ، القدح المعلى فى الذوق ، لأنها لا تأمر بشىء ، ولا تنهى عن سلوك ، إلا وهى ملاحظة فى ذلك

الأدب فى أجلى صوره ، واللياقة فى أبدع ألوانها ، والطباع السليمة فى أجمل أشكالها ...

ولا يستطيع عقل مهما انحرف ، ولا رأى مهما أسف ولا إدراك مهما انحط ، ولا إحساس مهما تبـــلد ، ولا بصيرة مهما أظلمت ، ولا ضمير مهما كان بارداً ، أن يحكم أنها فى صيانتها للأعراض وحفظها للحرمات كانت تجافى الذوق ، أو تنبو عن الأدب أو تخالف الفطرة ، أو تخرج عن حد المألوف المستساغ ، لان ذلك هو شأن الجبلة الأولى التى عاش الناس عليها فى أظلم عصور المدنية والحضارة ، ولم يعرف أن البشرية فى وقت من الاوقات أغضت عن منكر ينال عرضا أو يعتدى على كرامة ، أو يمتهن حرمة .. وهكذا إذا تتبعنا الأحكام كلها ، وبحثنا التكاليف فى جملتها وتفصيلها .. والقرآن الكريم الذى وافانا بهذه الأحكام ، وجاءنا بذلك الدستور ، وسجل الله فيه للناس ذلك الأدب فى مثـــل قوله عن حديث الإفك « لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم ، إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ، ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين » كان أستاذ الأساتذة .. فنحن نعلم ما كان فى هذا الموقف من غضب ، وما أحاط به من حرج ، وما كان فيه من ريبة ، وما جره على النبى صلى الله عليه من ألم ، جعله يهم أن يطلق أحب زوجاته إليه ،

وقد كان ذلك يقتضى أخشن الخطاب ، وأغلظ الحديث ، وأقسى أنواع اللوم ، وأشد أساليب الكلام ، وأفظع ضروب المهانة والتقريع ولكنه سبحانه حينما يوجه إلينا ذلك الأدب الذى تسيل منه هذه العذوبة ، وينصبح بتلك الحلاوة « لولا ولولا » إنما يرسم لنا خطوطا فى الترابط الاجتماعى الذى لا تصل إليه التربية عند أرقى شعوب العالم ولا أحدث حضارات الأمم . . . ولو أن مثل هذه المقالة الكاذبة ، أو الفرية المفتعلة أصابت عرض كريم فى قومه ، أو مسود فى أهله ، أو مسلط فى رعيته لأقام الدنيا وأقعدها ، وملأ لأجلها الدنيا دخانا ونارا ، وأراق دماء بريئة وغير بريئة .. ولا سيما إذا كان عرضه غير ملوث ، وساحة شرفه بعيدة عن الدنس ، ولذلك يروعنا من القرآن هذا الهدوء ، وتلك الليونة « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون » وقد كان أمس صلة بهذا الإفك بعد صاحبته — عائشة — أبا بكر رضى الله تعالى عنه الذى أراد أن ينتقم لنفسه من مسطح الذى تولى كبره ، إذ هم أن يمتنع عن إطعامه والإنفاق عليه ، وهو من ذوى قرابته ، فنزل فيه قوله تعالى « ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » فطامن ذلك نفسه ، وأرضى قلبه وأزال غيظه وملأ فؤاده بالغبطة والارتياح ... ونحن لا نتتبع مثل هذا الأدب الرقيق فى القرآن لندلك على مقدار ما تضمنه من سلوك ، أو ما حواه من تهذيب ، أو ما علمه للناس من مكارم ، فإن هذه كلها هى بعض رسالته ككتاب للهداية ، ودستور للأخلاق ، وقانون لإرشاد البشرية

إلى سعادتى الدنيا والآخرة ، وهو حلقة مفرغة (١) من الفضــل ، وسبيكة خالصة من الذهب الإبريز (٢) . . . بل نقول لك إن ألفاظه التى يختارها ، وجمله التى يصوغها ، وتأليفه الذى يأخذ به ، نمط من البيان العربى . لم يسبق للإنسانية أن عرفته من دهاقين الذوق الأدبى ، ولا من جهابذة الكلام ، فى أزهى عصور البلاغة . . .

فالنبى صلى الله عليه وسلم لم يكن له شأن بالرسالة أكثر من التبليغ « ما على الرسول إلا البلاغ » ، وصدود من يصدون ، وإعراض من يعرض ، ونفاق من ينافق ، وكيد من يكيد ، يتولى الله النيل منه ، والعذاب له ، والغضب عليه ، وإذا انتصر النبى عليهم ، أو ظفر بهم ، فمن الله هذا النصر والظفر « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » ومع هذا يأبى اللفظ القرآنى النبيل إلا أن يضفى عليه ثوباً من الفضل نسجه الذوق الذى لايكون إلا من العلية ، والأدب الذى لا يكون إلا من السادة ، إذ يقول « لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لايجاورونك فيها إلا قليلا » وإذ يقول « فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » بإضافة الفعل إليه هو صلى الله عليه وسلم ، ومنحه ذلك الفضل العظيم ، والشرف الكبير ، بتحكيمهم إياه ، ولا حكم إلا الله ، ونزولهم على ذلك الحكم نزولا

---

١ — المصمتة التى لا يعرف لها أول ولا آخر

٢ — الخالص قبل أن يضاف اليه النحاس

ينبيء عن الرضا والقبول ، والارتياح والرغبة ، والخضوع والتسليم ، النابعين من القلب « من يطع الرسول فقد أطاع الله » . .

ولقد كان هذا البيان الإلهي ، والأدب القرآني ، أستاذاً تعلم منه المسلمون أروع معايير الأدب ، وأحسن مقاييس الذوق ، حين يأمرهم بمجانبة التطفل ، والبعد عن الفضول ، وعدم تناولهم ماليس لهم بحق ، فيقول « يأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ، فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم ، ليس عليكم جناح [١] أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ، قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ماظهر منها وليضربن بخمرهن [٢] على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة [٣] من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون

---

١ — الذنب والأثم والحرج

٢ — الواحد خمار على وزن كتاب وهو غطاء وجه المرأة

٣ — الاربة الحاجة والشهوة وهي المراد هنا

لعلكم تفلحون » . . فإن المسلم ليجد فى هذا القول وفى أمثاله الصور البانعة ، والدلائل الناصعة ، على أن هذا الدين ذوق من النمط العالى ، لا فى التشريع الذى يجىء به وكفى ، ولكن كذلك فى البيان والتعبير ، يأخذ الناس منه أمثلتهم التى يحتذونها ، وأنماطهم التى ينشدونها . .

والنبى صلى الله عليه وسلم الذى وصفه القرآن بقوله « وإنك لعلى خلق عظيم » كان حسنة من هذا الدين الذى صقله الله به ، وطبعه على شاكلته من الأدب العظيم ، والشمائل الكريمة ، إذ لم يكن منـــه من الحديث الذى يتحدث به ، أو الخطاب الذى يعلنه ، إلا ما يدل على مصداق قول الله فيه « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » وكانت معاملته لأصحابه أنبل معاملة ، من خفض جانب ، ورحابة كنف وسعة صدر ، وفيض حلم ، وجم تواضع ، وموفور أدب ، وحسن معاشرة ، لا يؤذى جليساً ، ولا يجتوى (١) صاحباً ، ولا يتطاول على ضعيف ، ولا يفضح مقترفاً ، ولا يستذل خادماً ، ولا ينتهك حرمة ، ولا يتعدى على كرامة إنسان ، ولا يتتبع عورة ، ولا يبتدىء أحداً بإساءة . . وكان كثيراً ما يستعمل فى خطابه الكناية حتى لا يتألم من معه بسبب التصريح كقوله « من أكل لحم جزور فليتوضأ » ، وكقوله « من أكل ثوماً فليعتزلنا » ... وقد كان ذلك شأنه كله فى الرضا والغضب ، والسرور والألم ، والجد والهزل ، والصداقة والعـــداوة ، فإذا ثار خصومه أشد الثورة ، وتجنبوا اللياقة فى الأدب ، واللباقة فى الخطاب ،

١ — يبغض ويكره

فإن محاورته لهم، وجدله معهم ، لم يعد ما يحكى عنه القرآن الكريم، وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ، وشبهها مما يستل سخائم[1] النفوس، وأحقاد القلوب ، ونزوات الأفئدة ، وطيش العقول . وانحدار الأفكار والتواء البصائر ، ثم يوقظ الوعى إلى التأمل ، وينبه الشعور إلى النظر، ويحفز الإنسان إلى البحث .. ولولا أنه صلى الله عليه وسلم كان ينهل من هذا المعين ، وينهج ذلك النهج ، ويأخذ نفسه بتلك القدوة الحسنة، لما كان هو فى ذاته معجزة الزمن ، ولا نادرة التاريخ ،

ولعل كثيرين ممن يقرؤن عن « جان جاك روسو » وغيره ممن تحدثوا فى علم النفس الاجتماعى يعجبون لأمثال قولهم إن الطفل فى أول أمره أشبه بالعجينة التى يشكلها الخباز على الشكل الذى يريده ، أو كالصحيفة البيضاء التى يكتب فيها المربى ما يطلبه من الطباع والعادات ، أو يرسم فيها الرسام ما يروق له أن يرسمه من الصور والألوان . . وينسون أن الدين الإسلامى سبق هؤلاء جميعاً بمراحل من الزمن ، ومسافات طويلة من التطور ، حين يرشد رسوله الكريم إلى نمط من تربية الناشئين ، أو أسلوب مبتكر فى تهذيب المبتدئين ، إذ يقول « مروا أولادكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم فى المضاجع » فإن أخذ الأطفال بهذا الخلق ، وتعودهم على هذا الأدب ، وبخاصة التفريق فى المضاجع فيه الخير كل الخير ، والفضيلة كل الفضيلة،

---

١ — سخائم النفوس حزازاتها وأحقادها التى تكمن فيها

ويظهر ذلك واضحاً إلى أبعد حد عند التأمل فى الفتيان والفتيات فى البيئات غير الإسلامية ، من كل هؤلاء الذين تظهر فيهم الطراوة والميوعة والخنوثة والأنوثة ، وبرود الطباع ، وفتور الأخلاق ، حتى ليصعب على الإنسان أن يميز بين الذكر والأنثى . . . وهكذا حديث الإسلام كله فى الأمر والنهى ، والترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد ، والرضا والغضب ، لا يعطى إلا عصارة الأدب والذوق

التصوف عند الاسلام

يختلف الناس فى معنى التصوف ، هل هو من صفاء الروح ، وخلوص النفس ، المنبعث عن عدم التعلق بالمادة ، والسعار على المال والتفانى فى الحطام الزائل ، والمتاع الفانى والعيش الذاهب ، والعرض الحقير ، أم إنه من لبس الصوف الذى يعلن به أصحابه عن خشونة حياتهم ، وشظف عيشهم ، وعنف جهودهم ، ووعورة مسالكهم ، وعناء مطالبهم ، وأنهم لم يكونوا من هؤلاء الذين يرضون بالنعيم أو يميلون إلى الرفاهة ، أو يتطلعون إلى اللذائذ ، أو يطيرون وراء الشهوات ، مدخرين كل ذلك كله للدار الآخرة ، التى يكون فيها الجزاء ، ويطيب اللقاء ، ويتم الهناء ، ولا يكون معها شىء من العناء ...

ويرى بعض الذين يتكلمون فى أصل اشتقاق هذه الكلمة أنها مأخوذة من دار الصفة وهى الصومعة التى كان يخلو فيها جماعة من المسلمين للعبادة والذكر بعيدين عن صخب الحياة وضوضاء الناس ، وزحام العيش ، وصراع الشهوات والمطامع ، ظناً منهم أن فى هذا الانقطاع فراراً من الدنيا ، وبعداً عن السفاسف ، وهربا من الفتنة ، واقترابا من الله الذى يمتلىء قلب المرء به على قدر خلوه من التكالب على المال ونأيه عن الرغبة فى المادة ، والطلب لها ، والارتباط بها ، والحرص عليها ء .

والإسلام لا يكره صفاء النفس ، ونقاء الروح ، والتطلع إلى ملكوت الله الواسع ، وملكه الذى لا يتناهى ، وخلقه العجيب ، وصنعه البديع ، وكونه الساحر الباهر، لأن فى ذلك زيادة إيمان به ، واعتقاد فيه ، واستجابة لأمره ، وخوف منه ، وهو أقصى ما تتطلع إليه نفس خاشعة ، وترجوه روح صادقة ، وليست العبادة لله معنى وراء ذلك كله ؛ وهى التى تنتهى بالإنسان إلى أن يذعن أنه ذرة من خلقه ، وومضة من برقه ؛ وأثر من آثار قدرته.... وهذا الصفاء للنفس والنقاء للروح ؛ والسمو للأهداف ، والبعد عن السفاسف ؛ والترامى على عتبات خالق الخلق ؛ ومدبر الرزق الذى يساعد عليه التجرد من الدنيا ؛ والاحتقار لحطامها الفانى ، ومتاعها الزائل ، إنما يكون بخشونة الإنسان ، ورضاه بالقليل وزهده فى اللذائذ وترفعه عن الشهوات ، واعتزاله لمجالس الناس ، وبخاصة إذا كانوا من الذين قست قلوبهم بالمعاصى ، وجمـــدت قرائحهم بالغفلة وبعدت المسافة بينهم وبين الله بسبب غرور الشيطان إياهم واستذلاله لهم وتجارته معهم وسـيطرته عليهم . .

وربما كانت فكرة فرار الناس من صخب الحياة ، وضوضاء الخلق أو مجتمعات البشر ؛ فكرة فطرية أكثر منها دينية جاءت بها شريعة أوحشت عليها ديانة ، أودعت إليها فلسفة من فلسفات الأمم ..

وقد عرف التاريخ من ألوان الرياضات ؛ وضروب المشقات ؛ كثيراً وكثيراً ، كان أصحابه من هؤلاء الذين يفرون بأعصابهم من هذا المعترك الصاخب ؛ رجاء أن يجدوا من راحة الحس ؛ ورضا النفس .

ما عساهم يشعرون بعده بمعنى من السعادة ، أو شيء من الاطمئنان ، أو بعض من الرضا ، أو نوع من الهدوء والاستقرار ...

واللذة الروحية إنما يدرك قيمتها ويقدرها حق قدرها ، الشعراء الذين يسبحون فى الخيال أو الفلاسفة الذين ينعمون بالترقى فى درجات المعرفة ، وهؤلاء وهؤلاء لا يمكن أن يصلوا إلى ما ينشده وجدانهم فى ضوضاء الخلق. ولا فى صخب الناس ، ولا فى أسواق المادة، ولا فى دنيا العبيد، وليس هذا من أجل الدعوة إلى البطالة والإغراء بالتواكل أو الحث على اعتزال البيئة ، والإنسان — كما يقولون — مدنى بالطبع ، ولكنه تقرير لحياة واقعة ، وفى كل أمة من الأمم جماعات تفر إلى الجبال ، وتهرب إلى الكهوف ، وتتجه إلى الصحارى وتعيش مع الوحوش طلباً للانقطاع والعزلة ورغبة فى صفو الخاطر ، وراحة البال واستجمام النفس ، وغفوة المشاعر ، وسمو الروح ، والارتفاع إلى ملكوت السماوات ...

وإذا تحدث المسلمون عن أهل الصفة الذين يعيشون على صدقات الناس ، لا يطلبون الدنيا ، ولا يفكرون فى الحياة ولا يكدر صفوهم السعى فى طلب الرزق ، حتى جاء إليهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه فنكسها عليهم . ثم قال لهم « لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول « اللهم ارزقنى وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة » فإن الهنود — كذلك — يتحدثون عن جماعة البراهمة الذين يستعينون بالرياضة على تحمل كثير من المشقة ، والقيام بكثير من الأعباء والمغامرة فى كثير من الأشياء ، والصبر على ألوان الأذى ، وأنواع المخاطر ...

وربما تحدث غير هـؤلاء وهؤلاء عن جماعة تشبه الدراويش الأتراك الذين كانوا ينقطعون للحياة فيما يسمونه « التكايا» تجرى عليهم الأرزاق ؛ وتصرف لهم الصدقات ؛ على أن يظلوا فى عزلتهم لذكر الله وعبادة الرحمـان . ثم لا يصلهم أبداً بالناس رباط . ولا يجمعهم بالمواطنين وثيقة . . . وقد حدث أن ملكا من ملوك المسلمين لم يعجبه أن يكون فى رعيته مثل هؤلاء المتواكلين الذين هم أشبه بالدراويش الأتراك أو بأهل الصفة الذين طاردهم عمر بن الخطاب فأشار على وزيره بمطاردتهم . والقضاء على بطالتهم . فقال له الوزير[1] إنهم أيها الملك جنودك الساهرون . وحرسك المتيقظون . وعسكرك المجاهدون . سلاحهم الذكر وخيلهم الفكر . بهـم يكون النصر على الخصوم . والظفر بالأعداء . وعليهم تنزل الرحمة . ويهطل الغيث . وتعم البركة . ويزيد الخير . ويخضر الزرع . ويمتلىء الضرع . . .

ونحن لا نشك فى أن الإسلام الذى كانت تعاليمه فى كثير من الأحايين ترضى النزوع والميل . والهوى والعاطفة . وتقر العرب على كثير من العادات والطباع . ما دامت لا تتنافى مع العقيـدة . أو تتعارض مع الدين . قد كان فى أوامره ونواهيه إشباع للوجدانات والعواطف . . . وبما كان من إرضائه لنزوع النفس إلى الفرار والعزلة . والخلوة والانقطاع . الاعتكاف الذى جمل به فريضة الصيام . وحقق به صفاء النفس . وأكد به وثيقة الاتصال بالله . . كما كان من إرضائه لطبيعة حب التجرد من الدنيا حثه على الصدقة فى سبيل الله . وأمره بإخراج

---

١ — يقولون أن هذا الوزير هو ألب أرسلان وزير ملك شاه السلجوقى

زكاة المال . لان فى هذا رياضة على الزهد . وحملا الإنسان على العفة والرضا بما قسم الله له ... وهكذا كان فيه جانب لإشباع النفس لمن يرون أن يتساموا عن الأوضار[1] . ويرتفعوا عن السفاسف . ويحلقوا فى سماء العلم والمعرفة .. وكان فيه جانب لإشباع النفس الكادحة للعيش . الساعية للمال . الراغبة فى التراب . المخلوقة من الطين « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً . كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا . أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا » ... إلا أن إرضاء الإسلام لهاتين النزعتين لا يعنى أنه يشجع على البطالة . ويغرى بالكسل . ويحث الإنسان على أن ينقطع للمسجد . طارحاً وراءه الحقل والمصنع والتجارة . والسعى فى طلب الرزق وهو الذى يقول فى كتابه الكريم « وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » فإن الدعوة إلى ذلك تعطيل للغرائز . وحرب للطباع ، وقضاء على نظام العمران . وقد سجل تاريخ المسلمين أسماء ربانيين كانت لهم صلة بالخالق . وتجارة مع الله وسمو فى الأهداف . ونبل فى الغايات . واستقامة على الجادة[2] واعتدال فى السلوك . وصفاء فى النفس وإشراق فى الروح وطموح فى

---

١ — جمع وضر وهو الوسخ والغبار العالق

٢ — الطريق المستقيم

المكارم . وسبق فى الطاعة . وأريحية(١) للخير . وهزة للمعروف . لم يتخلفوا عن ركب ، ولم يقصروا فى حومة . أو يتلكؤا عن غاية . أو يسقطوا فى ميدان . أو يتأخروا فى طلب مكرمة . . . وإذا كان الناس قد ألفوا عند ذكر كلمة تصوف البطالة . وعدم السعى ، والترقب لما يبذله أهل الخير من المسلمين ، أو الإغراء بحياة الدراويش فى التكايا ، اعتقاداً منهم أن اليد السفلى أفضل عند الله يوم القيامة من اليد العليا ، فإن الإسلام الذى يقول رسوله الأمين « لارهبانية فى الإسلام » ويقول كتابه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » لا يقر بحال هذا السلوك الهزيل ، ولا يعترف بتلك السياسة الفاشلة ، ولا يرضى أن يكون من أهله عالة على المجتمع ، أو زائدة دودية فى جسم البشرية . . .

والحق الذى لا مرية فيه أن التهاون فى الدين جر على المسلمين الويلات التى لا قبل لهم بها ، وجعل المجال واسعاً للخرافات ، والفرصة سانحة للتزيد ، والثغرات مفتوحة ليدخل فيه ماليس منه . . وقد كان جماعة ممن كذبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يبررون هذا الكذب بأنه للمصلحة ، والترغيب والترهيب ، والدعوة إلى هذا الدين ، وهى دعوى جاهلة . وحجة باطلة . لأن الحق لا يخدمه الباطل ، والصواب لا يساعد عليه الانحراف ، والكذب على النبى والافتراء عليه ، لا يكون هدياً صحيحاً ، ولا سنناً مستقيماً . وقد كان صلى الله عليه وسلم يترقب هذا الزيف بعده ، والكذب عليه . ونسبة حديث له هو منه

---

١ — الارتياح للعطاء والجود وفعل الخير

براء . فكان يقول « من كذب على متعمداً فليتبوأ متعمده من النار »
وكان يقول « من أحدث فى أمرنا ما ليس منه فهورد » . . . وإذا كان
العوام فى دستورهم الملتزم . وحكمتهم المرعية . يقولون « السكران فى
ذمة الصاحى » فإن الجاهل — كذلك — فى ذمة العالم . يرشده إلى
الحق ، ويوجهه إلى الخير ، ويفتح عينه على النور . ويهدى قلبه للدين
الصحيح . ومن الغريب أن سكاراناً لم يجدوا صاحياً يكونون فى ذمته.
والجاهلين لم يجدوا العالم الذى يرشدهم . . . والمسلمون كانوا يرددون
على ألسنتهم قول الرسول هدانا الله بهديه « كل محدثة بدعة . وكل بدعة
ضلالة . وكل ضلالة فى النار » ثم يمرون على هذا القول من غير أن
يعيروه التفاتة . أو يعطوه اهتماماً . أو ينحوه نظراً فاحصاً . وتأملا
واعياً . إذ تمكنت الخرافة من أهل العلم . كما تأصلت البدعة فى العوام
الجهلة . وصار من رجال الدين من يفهمه بذوقه . ويخضعه لرأيه. ويتزله
على حكمه . ويوجهه الوجهة التى يريدها . . وقد حكى التاريخ أن رجلا
من بنى هاشم لما سمع قوله تعالى « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى
من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلى من كل الثمرات
فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه
شفاء للناس » قال النحل بنو هاشم . والذى يخرج من بطونها وفيه شفاء
للناس هو العلم والحكمة . فكان الرد عليه ممن سمعه — وهو غير
هاشمى — أن قال له أطعمك الله مما فى بطونهم ، وهى قصة على ما فيها
من فكاهة تدلنا على أن الصراع على تأويل الدين . وفهمه على الوجه
الذى يريده صاحبه . كان شيئاً تضرب جذوره فى القدم . وترجع أصوله
إلى أغوار الزمن . . . ولعل القرآن نفسه وهو يقول « منه آيات

محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » يشير إلى هذا الصراع وذلك التطاحن . الذى جعل فى صفوف المسلمين جماعة كانت تسمى نفسها « الصوفية » وكانت ذات طابع خاص فى فهمها للنصوص . أو شرحها للحقائق . وقالت إن القرآن له ظاهر وباطن . وإن الشريعة غير الحقيقة ، واستطاع فريق منهم أن يتلاعب بالألفاظ تلاعباً يهيم بها فى أودية مختلفة من المعانى . كما صنع الخوارج والشيعة بكتاب الله ليخدم نزوعهم . ويشفى غليلهم . . . وليس المجال — هنا — مجال تأريخ للتصوف . والتتبع لأطواره وعصوره . والحديث عن طبقات رجاله ولكننى فى الوقت الذى رأيت المتحدثين فى الأدب يقولون « الأدب الصوفى » كشعر ابن الفارض وأضرابه من أصحاب الأدب الرمزى . والمتحدثين فى تفسير القرآن أو طبقات المفسرين يعدون فى ذلك جماعة سموهم « المتصوفة » أردت أن أنبه الأذهان إلى أن الإسلام لا يعرف الفرق والطوائف . ولا يعترف بالنزعات التى لصقت به . ولا يؤمن بهؤلاء الذين يحرفون الكلم عن مواضعه . وليس هو كما يدعى المبطلون صاحب ظاهر وباطن ، ولا شريعة وحقيقة . وأنه كما تحدث عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : حنيفية سمحة . ليلها كنهارها . لا تشتبه له معالم . ولا تخفى فيه رسوم . ولا تلتوى منه مسالك . . .

تاريخ المسلم

منذ كانت البشرية فى الدنيا . وحياة الأفراد أو الجماعات مقترنة بتاريخها ، له فى ميزانها تقدير واحترام ، فإن كان الرجل من هؤلاء الذين خلت صحيفتهم من الدنس ، وطهر ما ضيهم من العيب شفع ذلك فى ترشيحه للمجد ، أو تنصيبه للرياسة ، أو تقديمه فى الزحام أو تحكيمه عند اختلاف الآراء ، واصطراع الحجج ، وتضارب الميول والأهواء ، وكان المعروف لدى العرب فى جاهليتها أنهم لا يملكون قيادتهم لخامل ولا يسلمون زمامهم لدعى ، ولا يجعلون رياستهم لمن تحوم حوله ريبة أو يلطخ عرضه قذر ، أو يحيط سيرته شبهة ، أو يعلق بماضيه غبار ، ولكن الذى يقدمونه فى المحافل ، أو يبعثون به فى السفارات أو يحكمونه فى الدية أو ينزلون على رأيه فى الخصومة ، أو يرشحونه للفصل فى المنازعات ، أو يقدمونه فى المجالس ، إنما يؤهله — عندهم — للفصل مع كفايته واستعداده ، وعقله وعلمه وحلمه وخلته ، وحسبه ونسبه وفصاحته وأدبه أن يكون معروفاً بالماضى الطيب ، والعرض النقى ، والثوب الطاهر والسيرة الحميدة ، والتاريخ المجيد .. وقد تحدثت كتب السيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه فى مبدأ أمره على الرغم من غلظة العرب وقساوة قلوبهم ، وجفوة طباعهم وفساد نفوسهم ، وانصراف عقولهم ، وتحجر أفئدتهم ، لم يجد ناحية يغزو بها ضمائرهم ، ويثير بها

شعورهم . ويستولى بهـا على أزمة أرواحهم ، أكثر من أن ينشر لهم ذلك المـاضى الذى عرفوه ، والتاريخ الذى قرؤوه ، والعهـد الذى ألفوه والزمن الذى أدركوه . حينما صعد الصفا والمروة ونادى بطون قريش حتى إذا جاءوا إليه والتفوا حوله وأصاخو بآذانهم له ، قال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى قالوا نعم . . . ما جربنا عليك كذباً ، وهنا لك اســتراح خاطره ، وهدأ قلبه وطابت نفسه وسكن جأشه(١) وأيقن أن له عندهم ذكرى عاطرة . وسمعة طيبة . وسيرة حسنة . وتاريخا حافلا بجلائل الأيام . وعظائم العظات وذخائر السـاعات وأطايب الأحاديث . فظل يبشر وينذر ويعظ ويرشد . ويوجه ويهدى . وينبه ويوقظ . ويقوم ويعلم . معتمداً على أنه فتح مغاليق نفوسهم بهذا التـاريخ الذى لا ينـكرونه عليه . ولا يكذبون فيه . ثم كان فيهم مع هذا أصحاب التراث الموروث . والأيام التى ذهبت . والصحائف التى انطوت . وغلب عليهم التـكاثر حتى بالموتى الذين صاروا حديثا معاداً وخبراً مرويا . وتجاوزوا فى ذلك كله الحد . إلى درجة أن نعى عليهم القرآن هذا الإسفاف . وأنـكر منهم تلك المبالغة . حين يقول « ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر » ، وهم قوم كانوا يجعلون فى اعتبارهم نبل الأخلاق . وسمو الأعراق بمـا يرفع الرأس ويزكى النفس ولو كان بالمـاء الذى يسقون به الحجيج . أو المـال الذى يبذلونه فى عمارة المسجد الحرام . وربمـا زعموا أنها مناقب لا يصل إليهـا شرف السبق إلى الإسلام وامتثال دعوة خير الأنام .

---

١ — الجأش القلب وسمي هكذا لأنه يجيش أى يتحرك

لولا قوله سبحانه « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين » وهو لا يقصد إلى تجريدهم من هذا الفضل . أو عدم الاعتراف لهم بهذه المزايا . إنما يريد مع التسليم لهم بها أن يضيفوا إليها جديداً مما جاء به الإسلام . فإن فضله غطى على الفضل السابق . وهو أشبه بما يقال أن اثنين اختصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحسب والشرف . هذا يقول كان أبى . وذاك يقول كان أبى . فكان رده الحاسم . وحكمه القاطع . أن قال لها « خياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا (١) » . . وفقهوا هذه من الفقه فى الدين . بمعنى معرفة حلاله وحرامه . وأمره ونهيه . وما يجب وما لا يجب . . وهو مصداق للحديث النبوى الكريم « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين »

وإذا كنا بصدد الحديث عن التاريخ الناصع . والسيرة الطيبة . والصحف المنشرة . وكان الاستطراد الذى انتهينا إليه عن الفقة فى الدين وفضله . فإنه لا يفوتنا أن نعلم أن منزلة العلماء عند الله لا تدانيها منزلة وأن فضلهم لا يتطاول إليه فضل . وأن سيرتهم فى التاريخ وسام من المجد . وشارة من السؤدد . وراية من الفخار . وهالة من الحسب والنسب . هيهات أن يصل إليها أصحاب التيجان . وأرباب الصولجان . .

فانزل التاريخ قبراً أو فنم فى الثرى غفلا كبعض الهامدين(٢)

---

١ — دقة الفهم تسمى فقها وليس كل علم فقها
٢ — الهامد الساكن الذى لا يتحرك

والفقه الإسلامى يعتبر العلم — كذلك — مما يرفع هامة الناس ، ويؤهلهم للكثير من الفضل . والعديد من المناصب . ومن المتفق عليه إذا حضرت الصلاة وتهيأ المجتمعون لها . ونظموا صفوفهم عندها . تقدمهم الأعلم . والقرآن الكريم فى أكثر من موضع يشيد بذكرهم . وينوه بقدرهم . وينادى بجاههم . فى مثل قوله « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ومثل قوله « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ومثل قوله « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » وفى الحديث النبوى على صاحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث » وجاء من الثلاث « علم ينتفع به ».

والتاريخ سجل أسماء الفاتحين . والملوك المتوجين . ثم سجل بعد هذا وهذا أسماء العلماء الأعلام . وأخذ الناس يمرون بهؤلاء وهؤلاء . ويقفون على أطلال الملك . ودوارس المجد . وبقايا العز والسلطان . وربما راعهم الأثر . وهاجهم الخبر . ولفت جيدهم ما هنا لك من عظات وعبر . لكن ذلك كله لا يتطاول إلى مجد العلم ولا إلى جاه جهابذة الرأى والفكر ، والدول التى تباهى بالماضى ، أوتزهى بالحاضر ، أو تعلق آمالا كباراً على المستقبل . إنما تجعل العلماء درة فى تاجها . وخرزة ثمينة فى رأسها . ووسام شرف فوق جبينها . وكذلك كان للتاريخ فى اعتبار المسلمين تقدير واحترام . .

والحقيقة التى لاريب فيها أن الناس تاريخ وصحيفة « سوابق » لا أكثر ولا أقل ، وأبناء آدم ، وبنات حواء . اعتمادهم كله فى الثواب والعقاب . والجزاء والحساب « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم

وأرجلهم بما كانوا يعملون ، إنما يكون على هذا ، وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ، . . . ولما كان كل امرىء يكتب كتابه بنفسه . ويسجل عمله بيده . ويسطر بما يصنعه من خير أو شر سطور هذا الكتاب . لم يجرؤ على الإنكار . أو تحدثه وساوسه بالجحود ، كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ، وكان التاريخ ميزان الرجال .

وكتب التشريع الإسلامى تشترط فى الخليفة الذى يقيمه المسلمون على أمر دينهم . ويكلون إليه زمام شؤونهم . أن يكون مع علمه وعدله وورعه وزهده . ودينه واستقامته . معروفاً فى ماضيه بحسن السيرة . وطيب السلوك . كما يشترطون — كذلك — فى القاضى الذى يفصل فى الخصومات . وينفذ الحدود . ويعلن حكم الله فى المشاكل . أن يكون مع اجتهاده وفهمه . وفقهه وتحصيله . وترجيحه الأدلة . وتمييزه بين النصوص . ذا ماض ناصع . وسيرة طيبة . وسمعة حسنة . وعرض طاهر . وأخلاق كريمة . ودين قويم . وسلوك حميد . بحيث لا تحوم حوله شبهة التحيز (١) . ولا تلصق به تهمة الانحراف . ولا تحيط به ريبة الهوى والميل . والمحاباة والغرض . ومجافاة الصواب . أو مجانبة العدل . . . وبمثل هذا الشرط — أو الشروط — يرون أن الشاهد على اعتبار أنه يساعد القاضى فى الوصول إلى الحق . أو التعرف على الجريمة . لابد أن يكون مع المشاهدة والبصر . والإدراك والتمييز .

---

١ — الانحياز والميل وفيها معنى الحيز الذى هو المكان

وتمام العلم . وكمال العقل . غير محدود فى قذف . ولا معروف بالتدليس أو مشهور بالكذب . أو متهم بغشيانه لمواطن الريبة . أو ممن يتأثرون بالغرض والهوى . أولهم فى تلك الشهادة مصلحة أو حاجة . ومن القديم إلى الحديث كان الشرف والصدق . والنزاهة والعفة . والأدب والخلق . والدين والمروءة . وما أشبه ذلك من الكلمات التى تدل على معان من الفضيلة . وظلال من المكارم . وبقايا من السؤدد . وهتاف من الخير ، ونداء من الواجب ، ورأس مال ضخم . يرفع صاحبه إلى مصاف أهل الغنى واليسار . والثراء والنعمة . والملك والسلطان . فلا يرتاب أحد فى صدقه . ولا يشك إنسان فى خبره . ولا يزدرى مخلوق لشأنه ولا يرد آدمى له طلباً . لأن الثقة فيه . والاطمئنان له . كفلت له الضمانات الكافية لإحلاله المنزلة العظمى من قلوب مواطنيه . وأهل البيئة التى تضمه . . . وإذا كان الأشخاص فى هذا المعترك يفتقر بعضهم إلى بعض ليتبادلوا المنافع . ويتناوبوا الخير . ويتعاونوا على وجود السعادة التى ينشدونها . فإن صفات النبل . ومعانى البر . ومزايا الفضل . تتعاون فى شخصية المسلم . وتتضافر على بناء مجده . وإقامة صروح كرامته . . وليس شرفه بالعظم الرميم . والوفر العظيم . أو الجاه المتاح . والسلطان الواسع . مالم يحز إلى جانب ذلك طهارة عرضه . وبياض صحيفته . ونقاء ثوبه . وحسن سمعته . وجلال تاريخه . . . وتلك سنة درج عليها العالم منذ آدم إلى يوم يبعثون . ولا سيما إذا كان الرجل من هؤلاء الذين يتأهبون للمجد . ويتهيأون للعظمة . ويتطلعون إلى ذرى الشرف . أو يجعلون من أنفسهم أوصياء على الناس . .

والذين يطلبون العظمة ، أو يحاولون الصعود إلى القمة ، من غير أن تكون فيهم هذه الجدارة ، أو لم يكن لديهم ذلك الاستعداد ، إما أن يكون الجهل قد أضلهم عن الحق ، وأعماهم عن الصواب ، ومال بهم عن القصد ، وانحرف بهم عن الغاية ، أو أن تكون شعوبهم من البلاهة والسذاجة ، بحيث ينطلى عليهم الزيف ، ويروج لديهم التمويه ، ويسود عندهم الباطل ، ويجوز فيهم الكذب ، وكلا هذين لا يكونان فى الأمم التى أخذت بحظ من الثقافة ، أو نصيب من المعرفة ، أو مقدار من العلم ، أو معنى من الحضارة ، أو شىء من النور والهداية ، يرسم لها الطريق ، ويكشف لها المعالم ، ويضىء لها مواضع أقدامها ، حتى لا تسير على الشوك ، أو تمشى فى الوحل ، أو تخطىء سبيلها الصحيح ، ومثل هذا يذكرنا بقول القائل . .

لعمر أبيك ما نسب المعلى ... إلى كرم وفى الدنيا كريم
ولكن البلاد إذا اقشعرت ... وصوح نبتها رعى الهشيم

والتاريخ نفسه خير معلم ، وأحسن أستاذ ، وأروع شاهد ، فإنه لم ينبئنا أن إنساناً اختلق لنفسه مجداً ، أو افتعل لنفسه عظمة ، أو اخترع لنفسه حديثاً ، أو نسب لنفسه فضلا ، أو أضاف إلى ذاته ما ليس لها ، ولكن الحق هو الذى يسود ويبقى .

القرآن ووشيجة المسلمين

لعله من مكرور القول . ومعاد الحديث . أن نقول إن العرب فى جاهليتها لم تكن لديها معايير للفضيلة . ولا موازين الأخلاق . ولا مقاييس للخير . ولا مفاهيم صحيحة للحسن والقبح . ولذلك كان النزاع الحاد بين الأفراد أو الجماعات أثراً طبيعياً لهذه البلبلة أو الذبذبة السائدة فى الأوساط والبيئات كنتيجة حتمية لعدم وجود فيصل يرفع نزاعا . أو يحسم خلافا . على الرغم من قيام وشائج الدم . ولحمة القرابة وأواصر النسب وعلاقات الجوار والمصالح المشتركة ... وسبب ذلك أن الوشائج التى تصل ما بين الفرد والفرد أو الجماعة والجماعة إن لم تكن منبعثة عن وجدان ثابت . وعاطفة متمكنة لا يمكن بحال من الأحوال أن تسود فى الناس . أو تتركز فى البيئات . ولا تتجاوز حدود المنطق والعقل إذا قلنا إن الاتصال القائم على المنفعة أو الحاجة . تعمل فيه الأهواء عملها . وتفعل فيه الأحداث الطارئة والعواصف المتاحة . فتجعله دائما أبداً عرضة للتغييرات والزوال . أو على الأقل تكيفه بالكيف الذى تمليه الظروف ... ولهذا كان فعل القرآن فى هذا الاتصال عجيباً . لأنه لم يجعله اتصالا قائماً على منفعة تزول . أو حاجة تنتهى . أو غرض يختلف فيه صاحبه . ولكنه جعله عبادة يتقرب بها المسلم إلى ربه . وعقيدة يعمر بها المؤمن قلبه . وديناً يبذل المرء فى سبيله دمه وماله

ونحن نراه لا يخاطبهم إلا بخطاب الجماعة « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط . « يا أيها الذين آمنوا استعينو بالصبر والصلاة » «يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ... يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ... يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ... يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ... يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه . » وهو خطاب مع ما فيه من الدعوة — من طرف خفى — إلى الانطواء فى ضمير واحد . بهـذا الخطاب الواحد والوصف العنوانى الواحد ، يوحى بأن الوشيجة القائمة أو العروة الثابتة ، ليست مما يتأثر بالأهواء ، أو يتزعزع بالأغراض ، أو يخضع للظروف ، أو يتحول بالشهوات الجامحة ..

والمسلمون يشعرون من قرارة أنفسهم — إلى جانب كون القرآن معلماً إلى الخير وهاديا إلى الرشد ومنبها إلى الفضل ، وموقظاً إلى النبل وموجهاً إلى الصراط المستقيم — أن القرآن تراث عزيز عليهم جميعا يرتبط به مجدهم ، ويقترن به جاههم ، ويتقرر به مصيرهم ويتحدد به مستقبلهم ، لذلك يحسون وهم يدافعون عنه ويجاهدون فى سبيله . أنهم يبذلون ما يبذلون من أجل مقوم لحياتهم ، أو ممكن لوجودهم . أو مثبت لأقدامهم أو مقرر لحقيقة إنسانيتهم التى يفاخرون بها الناس .. وهذا هو السر فى أن الاستعمار يجعل اهتمامه كله موجها إلى حربه وإلى القضاء عليه ، وعدم التعاون معه ، والذى يتقصى تاريخه فى كل بلاد العالم يجد أنه لم تهدأ له نفس إلا بعد النيل من القرآن ، أو الإجهاز عليـــه

والاطمئنان كل الاطمئنان إلى أن دولته قد دالت ، وأن سلطانه قد ذهب . وأن حكومته صارت فى ذمة التاريخ . .

وفى القرآن ناحية أخرى كان لها الأثر البارز فى ترابط المسلمين ، ذلك أنه دائرة معارفهم ، وجامعة ثقافتهم ، ومنبع علومهم التى يدرسونها وكتبهم التى يقرؤونها ؛ فإن الذين كتبوا فى تفسيره ، والذين كتبوا فى بلاغته ، والذين كتبوا فى إعجازه ، والذين كتبوا فى استنباط الأحكام منه ، والذين كتبوا فى إعرابه ، والذين كتبوا فى الدفاع عنه ، والذين كتبوا فى العلوم التى يشير إليها . والذين كتبوا فى طريقته فى الجدل أو فى القسم أو فى إثبات الحقائق ، وما شاكل ذلك كله . قد جعلوا من ذلك معيناً لا ينضب من العلوم والمعارف التى لا ينتهى حديثها . ولا يفرغ النظر فيها . . وجعلوا منها إلى جانب هذا مدرسة قائمة بين المسلمين هنا وهنالك . لرفع حجاب الأمية . وإزالة غشاوة الجهل . وذهاب عار التخبط المزرى الذى يتخبطه أولئك الذين لا معالم لهم من نور هاد أو معرفة كاشفة . أو ثقافة موجهة ، أو شريعة مبينة . أو دستور منقذ أو أستاذ مرشد . . . ونحن لو صرفنا النظر عنه – كمدرسة أو دائرة معارف – فإننا لا نستطيع أن نصرف النظر عنه كمنبع للتشريع . ومصدر للأحكام . . . وفى هذه الناحية وحدها من الخصوبة والثروة ما يجعل التمسك به . والالتفاف حوله . والرغبة فيه ، والغيرة عليه ، والدفاع عنه . والفناء فى سبيله من أوجب الواجبات على المسلمين . لا يفرطون فيه . ولا يتغافلون عنه وإن كان الحديث من ناحية صلاحيته للتشريع . والإحاطة بالأحكام . والتعرف على حاجات الناس والإدراك لما تمس إليه ضرورة البقاء والاستقرار . والعدالة والأمن والهدوء

والسعادة . فإننا لانجد ذلك مستوفياً نصيبه من الشمول . وحظه من الدقة . وقدره من الاحترام .إلا فيهذا الكتاب الذى جعله الله دستور الحياة . ونظام البشرية . وقانون العالم . لاينحرف له رأى . ولا يضل له قصد . ولا يميل له ميزان ، ولا يحيف له حكم . ولا يطيش له حلم . ولا يلتوىله سنن ، ولا تتغلب عليه غاية . أو تحيط به شبهة ، أو تحوم حوله ريبة . . . . » ولم يسلك القرآن — لقصد ترابط المسلمين — أسلوباً واحداً . أو أسلوبين اثنين حين دعاهم إلى أن يدخلوا فى السلم كافة ، ولكننا نراه مع الترغيب فى العفو والصفح . والحلم وكظم الغيظ والوصاة بالجارذى القربى والجار الجنب . وما شاكل ذلك من المعانى التى تزرع المحبة . وتزيد فى المودة . وتشيع العطف . يناديهم بالتكتل ويحثهم على التآلف . فيقول « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات » ويقول « إن الذين آمنـــوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض » فهو لم يكتف بدعوتهم إلى هذا الترابط .وتنفيرهم من هذا التفرق والاختلاف .دون أن ينبههم إلىأن أولى الناس بولائهم وأحقهم بمودتهم . وأجدرهم بأخوتهم . هم هؤلاءالذين يجمعهم وإياهم الدين . وتصلهم بهم وشائج متنوعة تطل عليها شريعة الإسلام من أكثر من زاوية واحدة . . . ولذلك نراه سبحانه وتعالى - مع أمره لنا أن نفسح صدورنا للناس جميعاً على اختلاف الملل والنحل - يوصينا فىغير المسلمين ألا نصادقهم صداقة الواثق . أو نركن إليهم ركون المطمئن . أو نعتمد عليهم اعتماداً صحيحاً . فيقول « لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين » ويرشدنا إلى أنهم لايخلصون فى نواياهم .

ولا يحبون لنا الخير . مهما تظاهروا به . وأن الدين بين الناس هو أقدس الروابط ، وأقوى العلاقات ، إذ يقول « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم » .

وفى قصة هؤلاء المنافقين الذين كانوا يؤمنون وجه النهار ويكفرون آخره « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا . وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون » ما يدل دلالة صريحة على أن الدين كان له المحل الأول فى صداقة الأصدقاء . وصحبة الإخوان . وألفة ذوى المودة . والذى يلتفت هوناً ما من الالتفات ـ إلى ما يجرى فى الكرة الأرضية من اهتزازات : وما يدور عليها من صراع . يؤمن الإيمان كله . أنه لم يكن على لقمة العيش ، ولتنازع البقاء ، بمقدار كونه للدين ولهذا فإن القرآن الكريم حين يقول « لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة » أو حين يقول « لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا » وأمثالهما مما يظن فيه القسوة على الكفار . والبطش بغير المسلمين . لم يكن مبالغاً فى الشدة . ولا صارما فى المعاملة . ولكنه يقرر قضايا النفوس . وعصبيات البشرية : ونزوع الإنسان . . وهى قضايا يقررها ما حدث من صراع النفوس ، وخلاف الجماعات ، ومن هذا أن الإسلام يرى أن الإيمان فى قلب صاحبه معين خصب للخير : وورد دائم للبر وسيب سحاح بالمعروف[1] ولا يفوتنا حين نتحدث هذا الحديث عن الترابط الذى أحدثه القرآن فى العالم الإسلامى أن نقول إن هنالك ترابطا آخر أحدثه القرآن بسبب بيانه ولسانه :

---

١ — مابين القوسين من كتابنا « القرآن الكريم دراسة » .

فإن العرب مع بيانهم العذب : ولسانهم الطلق ومنطقهم الحلو وبلاغتهم النادرة ، وأسلوبهم الفخم وألفاظهم المختـــارة وجملهم القوية وأدبهم الرائع . وجدوا فيه جديداً من المنطق : وفريداً من الاسلوب وبليغا من القول . وغريبا من التراكيب ورائعاً من التصوير : وساحراً من اللفظ وعالياً من البيان وعظيا من المعانى ، لم يكن لهم به إلف سابق ، ولا عهد متقدم ولا معرفة سالفة .. وهنالك أخـــذهم الذهول ، وتملكهم . الإعجاب ،واستولى عليهم الدهش ثم لم يكتفوا بذلك ولكنهم جعلوه شغلهم الشاغل : وهمهم المضنى وأفكارهم الدائبة : ومائدتهم الممدودة : التى التفوا حولها للأخذ والرد ، والدراسة والفهم والإمعان والتأمل والتروى والنظر . والتنقيب والبحث والنفع والاستفادة ، ومما لا خلاف فيه أن القرآن شغلهم عن الشعر وصرفهم عنه وزهدهم فيه وجعل بعضا منهم لا يعنون بأمره فى قليل ولا كثير : إلا أننا لانعنى من وراء هذا ان نقول إن الشعر قد اختفى من الميدان كل الاختفاء ، فإن واقع الحال يكذب ذلك: لأن الشعر كان موجوداً يؤدى دور التأييد أو المعارضة ، وكان للنبى صلى الله عليه وسلم مؤيدون ينافحون[1] عنه ويحمون ظهره من عدوان خصومه ، كما كان هنالك معارضون يحولون الأنظار إلى غيره من أنصار الشرك ، ودعاة التخلف إلى الوراء ، وإذا حاولنا أن نسجل تسجيلا صحيحاً ذلك الدور الذى لعبه القرآن - حينئذ - إلى درجة أنه صد عن الشعر هذا الصد ، وبغض فيه ذلك التبغيض ، لانجد أن دعوته كانت حادة وأن دعوة الشعر كانت هازلة

---

١ — يدافعون

أو أن هدفه نبيل . وهدف الشعر غير نبيل . ولا أنه صوت الحق . وأن الشعر صوت الباطل . ولا أنه الثورة الإصلاحية الكبرى التي ذهل لدويها أهل الأرض جميعاً ، فلم يعد عندهم من الفراغ ولا من القبول ما يساعدهم على الإقبال على الشعر . والرغبة في الاشتغال به .

إنما نجد — كذلك — أنه تناول الموضوعات والأغراض التي كان يتناولها الشعر ، فأربى عليه ؛ وجاء بأسلوب جعل العقلاء من الناس يحكمون بأن أسلوب الشعر لاقيمة له بعده . . . ولا نريد من وراء ذلك أن تقنعك الإقناع كله لتؤمن بأن القرآن طرق أبواب الشعر — جميعاً — حتى الهجاء والرثاء ، وحديث المعارك والملاحم . وإن كنت لاتعدم — إذا أردت البحث — أن تجد لذلك ملامح بارزة . وصوراً ظاهرة ، إنما نريد فقط أن نقول لك ، إن للقرآن أسلوباً تميز به ، وخصائص من البيان لا يشاركه فيها غيره ، لأنه كتاب تشريع وهداية ، وتهذيب وإصلاح ، وانتشال للبشرية من وهدة الضلال الذي كانت تعانيه . . . ومثل هذا الكتاب الذي يكون صاحب رسالة خاصة أو غرض بعينه ، ما كان ينتظر منه إلا أن يكون جاف المعين ، خشن التصوير ، غليظ البيان ، جامد الأدب . تحيط بالناظر فيه الملالة والسأم . . ولكنك قد تجده مؤرخاً ينتقل بك عبر القرون فيحدثك عن آدم وقابيل وهابيل . ويقص عليك أنباء بني إسرائيل . وما عاناه منهم موسى من العنت والإرهاق . أو يقص عليك خبر البقرة والمائدة التي أرادوا أن تكون لهم عيداً لأولهم وآخرهم ... أو يذكر لك دعوة إبراهيم عليه السلام واصطدامه بأبيه ومناقشته له . وتحطيمه للأصنام وإلقاء النمروذ له في النار . وقوله سبحانه للنار « كوني برداً وسلاماً على

إبراهيم ، وغير هذا وهذا مما انطوى فى لفائف الزمن ، واندثر فى غبار التاريخ ، يذكره ذكراً خاطفاً ، ويعرضه عرضاً مجملا . ويقصه فى روعة وجمال ، مملوءاً بعناصر البهجة والهشاشة . والشغف [1] والرغبة . والظمأ الدائب للمزيد من التطلع ، والإكثار من التعلق . . ولئن كان أحسن ما اهتدى إليه الناس فى الأسلوب « البيانى » فى النثر الأدبى أن يكون مرسلا من القيود ، خالياً من الأغلال ، بعيداً عن الصناعة ، حراً مما يثقله من الالتزامات المستكرهة .. فإن للقرآن منهجاً غريباً فى أسلوبه ، فأنت قد تظنه مسجوعاً وهو غير مسجوع ، وقد تراه ذا فواصل وهو خال منها ، وقد تظنه موقوراً [1] بالصناعات اللفظية . والمحسنات البديعية ، وهو برىء منها براءة الذئب من دم يوسف بن يعقوب . . . وللقرآن بعد هذا الذى قدمناه لك من الميزات البيانية التى يلحظها فى تصويره الأشياء . وإبرازه للمعانى ، ومراعاته للدواعى والأغراض ، لفتات نفسية محتاج وحدها إلى أن يتضافر عليها علماء النفس ليبرزوها ويكشفوا الغامض منها ، وستظل الدراسة الحديثة التى تمسه ذلك المس الرقيق تظهر لنا منه أكثر مما نعرف ، وأحسن مما نكشف ، لأنه يعطى كل إنسان على قدر ما يفهم » [2]

وإذا كان تاريخ الأدب العربى قد أنبأنا أن الكتاب الفحول فى العصور المختلفة كانت لهم مدارس تمثل أدبهم ، وتحاكى أسلوبهم .

---

١ — شدة الحب الذى يقطع شغاف القلب أى غلافه الرقيق الذى يغطيه

٢ — مابين القوسين من كتابنا « القرآن الكريم — دراسة » الناشر دار الفكر العربى

على طريقتهم فى البيان ، من أولئك الذين عشـقوا بلاغتهم ، وافتتنوا بفصاحتهم . وتعلقوا بما كان لهم من نهج خاص فى الأدب والبيان ، كالجاحظ فى استرساله واستطراده ، وابن المقفع فى سلاسته وخفة روحه فإن المسلمين الذين افتتنوا بالقرآن الكريم كانوا لا يحاكون أسلوبه ، ويتأثرون بطريقته ، بمجرد محاكاة أو تأثر ، بباعث العصبية الدينية . . ولكنها كانت عصبية التلاميذ للمدرسة . . والمتذوقون للأسـلوب الأدبى حق التذوق يستطيعون أن يقولوا فى الأسلوب الذى نهل صاحبه من بيان القرآن ، هذا أسلوب رجل يغترف من بحر ، ويقطف من زهر ويشتار العسل من سورة النحل ، .

ومن حقنا وقد وصلنا إلى هنا من حديث هـذه « الوشيجة » أن ندعو آخرا بما كنا ندعو به أولا ، من تعلم لغة القرآن لنستطيع أن نفهمه الفهم الذى يليق بأدبه الضخم . وبيانه المعجز ، وبلاغته العالية ، حتى لا نظل على هذا التخبط فيما يعطيه من معنى ، ويمنحه من هداية ، ويهبه من تشريع ... وإننا لننادى بأن هـذا التفـكك الذى أصاب المسلمين ، وهذا التباين الذى يدركون أنه حاصل لهم فى الوقوف على أسرار التنزيل ، ووجوه التأويل ، سببه أنهم حاولوا فهم الـكتاب الكريم بلسان غير لسانه ، وبيان غير بيانه ، وهنالك كانوا يحاولون العبث ، ويطلبون المستحيل ، ويخطئون القصـد ، ويضلون الصراط السوى . . ومازلنا نقول إن المسلمين الذين لا يطلبون القرآن بلسانه وبيانه يطلبون منكراً من القول وزوراً . وأنا أعيـذهم أن يكونوا

هكذا . أمام هذا النداء الإلهى ، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ، وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه . وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ، . . ونسأل الله الهداية والتوفيق ، إنه تعالى سميع مجيب الدعاء . . .

تم بحمد الله وعونه

اعتـــذار

رغم المجهود الذى بذل فى تصحيح هذا الكتاب إلا أنه لا يخلو من بعض أخطاء مطبعية يستطيع القارىء أن يدركها بفطنته .

الفهرست

	صفحة
مقدمة	٣
العروبة والإسلام	٥
من التاريخ	٢٠
الأزهر ودوره	٢٨
محنة فلسطين	٣٤
الجامعة العربية	٤٢
أمراض العروبة والإسلام	٥١
معنى الإسلام	٥٨
الإسلام قوى	٧١
الإسلام لا يحب الظلم	٧٨
الإسلام دين القوة	٨٥
موقف الإسلام من الأديان	٩٤
موقف الإسلام من المدامين	١٠٣
منابع التشريع الإسلامى	١١٧
الإسلام غير جامد	١٣١
سياسة الإسلام فى التشريع	١٣٨
إنسانية الإسلام	١٤٨
مستقبل المسلمين	١٥٥

الموضوع	صفحة
إنقلاب إسلامى	١٦٢
لا سبيل إلا الإسلام	١٦٩
الجهاد الإسلامى	١٧٨
الكتاب الإسلاميون	١٨٢
عصبية الإسلام	١٨٩
الحاكم فى الإسلام	١٩٧
التكافل الاجتماعى فى الإسلام	٢٠٤
الأخلاق فى الإسلام	٢١٠
اللغة العربية والإسلام	٢١٦
موقف الغرب من الإسلام	٢٢٢
الإيمان وأثره	٢٢٨
الذوق الإسلامى	٢٣٤
التصوف عند الإسلام	٢٤٣
تاريخ المسلم	٢٥١
القرآن وشيجة المسلمين	٢٥٨



الثمن ٢٠ ص